إيريك إيمانويل شميت

انتقام الغفران

20.4.2019

ترجمة: أبو بكر العيادي

إيريك إيمانويل شميت

انتقام الغفران

ترجمة: أبو بكر العيادي

مراجعة: رضا الحسني

مسكلياني

عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة
La Vengeance du pardon
Eric-Emmanuel Schmitt

الكاتب: إريك إيمانويل شميت

عنوان الكتاب: انتقام الغفران

ترجمة: أبوبكر العيّادي

مراجعة: رضا الحسني

خط الغلاف: سمير بن قويعة

تصميم الغلاف: محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-046-7

الطبعة العربية الأولى: 2019

© Editions Albin Michel - Paris 2017

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الفهرس

1 - الأختان بربران 9
2 - الآنسة باترفلاي 95
3 - انتقام الغفران 197
4 - أُرْسُم لي طائرة 275

الأختان بَرْبَران

لو تخيّلنا الجنّة الأرضيّة على صورة قريةٍ لكانت «سان سورلان».

فَعَلى طول الأنهج المبلّطة الّتي تنزل المنحدر الخفيف حتّى النّهر، كانت كلّ واجهة تُشكّل حديقة. كانت الوستاريات[1] قد علّقت مساريجها البنفسجيّة في الطوابق، فيما كانت تعريشات الجيرانيوم تلتمع في النوافذ، والكروم تُنير الطبقات الأرضيّة، وزهور الكشتابين تندفع خلف المقاعد الخشبيّة، وغُريسات زنبق الوادي تنبو وسط الحجارة، معوّضةً عن قامتها الرقيقة بريحٍ طيّبةٍ قويّةٍ.

من يمرّ بـ «سان سورلان أن بوجي» يحمل عنها ذكرى بأنّ ليس لها غير فصلٍ وحيد هو شهر مايو. فيه يغزر الزّهْر حيًّا، كثيفًا، متغطرسًا، يُحيل البيوت إلى محامل. تحت سماءٍ زرقاء بسيطة، اجتاح جمعٌ كثيفٌ من الورد الجدران، وورود ورديّةٌ، لَحِمةٌ، متفتّحةٌ، أشدّ نضجًا من الثّمار الناضجة، مرتجّةٌ، وافرةٌ، عارضةً لبّ بتلاتٍ تُغري بالملامسات أو القبل، ورودٌ سوداء حيّة مضرّجة، ورودٌ حمراء ناشفة رقيقة العود، ورودٌ صفراء ذات أعراف فلفلٍ أسود دقيق، ورودٌ برتقاليّة خرساء بلا رائحة، ورودٌ بيضاء جافلة، زائلة، ما أسرع ما خابت إذ تأكسدت. هنا أو هناك، مثل متوحّشين ضربوا

---

(1) Glycine: ج وستارية: جنس نباتات معترشة من الفصيلة القرنية. (كلّ الهوامش من وضع المترجم).

خيامهم بالمدينة، ثمّة أزهار نسرين برّي بأوراق برغليّة ذات حبوب ضاربةٍ إلى الحمرة يصنع منها السكّان مربّى. على جانب حافّة حوض الغسيل أزهار أرطنسية خبّازية كثيفة تهب الأماكنَ جَدارةً بورجوازيّةً بالاحترام. من كنيسة سانت ماري مادلين إلى ضفاف الرّون، تبدو الحياة النّباتيّة مفرطة حتّى «سان سورلان».

في ساحة السّوق، سارت ليلي باربران، وهي سيّدةٌ مسنّةٌ تنسجم طلاوتها مع الأزقّة البهيّة. كانت بشوشًا، نحيفةً، رهيفة البشرة، دقيقة الأنف، صافية العينين، توحي بالطّيبة. إن صحّ أنّ «سان سورلان» صورة من الجنّة، فإنّ ليلي تُجسّد حقًّا الجَدّة المثاليّة! فهي عطوفٌ، حريصةٌ على مساعدة بني قومها. كانت تبدو أنّها تجعل من الشيخوخة تواريًا مهذّبًا ممزوجًا بالأثرة، رغم أنّ الحياة كان يمكن أن تقودَها إلى الكراهيّة، وتلزمها الضّغينة. ألم تقع مضايقتها طوال سنين؟ ألم تكن عرضةً للاحتقار وسوء المعاملة والخيانة والبغضاء؟ وفوق كلّ ذلك، أليست مدعوّةً من الغد للمثول أمام القضاء بتهمة القتل؟

ومثلما اختزنت البلدة ذاتُ المظهر العجيب نصيبها من الضّغائن والغَيرة والجرائم، كانت العجوز، تحت قناعها الأملس النّضير، تسير على شفا الجحيم. هل اجتازت أبوابه؟ هل ارتكبت المحظور؟

كان مُتَّهِمها، فابيان جربيي، يرقبها من محلّ سِكافته. رجلٌ قويّ البُنية، فارع القوام، مقطّب الحاجبين، ضاري النظرة، كان ينهال على النِّعال بمطرقته في عنفٍ موجّه إلى ليلي بربران. ورغم سنّ المرأة، وهشاشتها، وقرينة براءتها، كان يَجِدُ في انصرافها إلى شؤونها بحريّةٍ

وفي عطف النّاس عليها أمُورًا لا تُطاق. هو الّذي نشر الشكوك، وحرّض رجال الدرك، وحثّ الشرطة، ومهّد لفتح محضرٍ قضائيٍّ، وهو المسؤول عن السّوار الإلكتروني الّذي يكبس على عرقوبها، لأنّ السّلطات المتراخية لم تشأ حبسها قبل الجلسة.

غدًا، يذهب فابيان جربيي إلى «بورغ أن بريس» لحضور المحاكمة. غدًا، يتابع مشهد القضاء وهو يعمل. غدًا، نعلم أخيرًا.

منذ أسابيع، وأهالي «سان سورلان» يجدون متعةً، وهم جالسون إلى المناضد، في أن يرووا للغرباء أو الأصدقاء العابرين حكاية ليلي بربران. وبالأحرى حكاية الأختين بربران، إذ لا يمكن، وإن بقيت إحداهما فقط على قيد الحياة، أن يجري الحديث عن واحدةٍ منهما دون ذكر الأخرى.

***

- أمرٌ لا يصدّق!

رأت الأختان بربران النّور في اليوم نفسه. وإذ كانت الأولى قد أثارت الإعجاب، فإنّ الثّانية ولّدت الانذهال وهي تنبجسُ من بين فخذي أمّها المتعبتيْن بعد نصف ساعة. لم يكن أحدٌ يتوقّع ذلك. ففي وقت كان الأطبّاء لا يسبرون أرحام مريضاتهم إلاّ نادرًا، كانت الولادة هي الّتي تكشف جنس الأطفال وعددهم.

- اثنتان، مدام بربران! هذا ما كنتِ تُعدّينه لنا في الخفاء: بنتان رائعتان!

هتفت القابلة مبتهجةً.

ولمّا كانت الأختان بربران متشابهتين تمامًا في كلّ شيء، متماثلتين من زرقة العينين إلى طيّات أصابع أرجلهما، فقد كانتا تملآن والديهما زهوًا. إنّه لمن العجيبِ أن يصنع المرء طفلاً. ولكن اثنان، اثنان متطابقان، فذاك من قبيل المعجزة!

– يا للرّوعة!

انبهر الحاضرون، فلم يتوقّفوا طويلاً عند الاندفاع الّذي فاجأتهم به الثانية، ولا عند استهلال[1] الاستنكار الّذي أطلقته، كأنها كانت تحقد على البشر لأنّهم ما رقبوها ولا ترقّبوها.

– ماذا ستسمّيانهما؟

بلا تردّد، أطلق بربران وزوجته اسم «ليلي» على الكبرى بنصف ساعةٍ، كما خطّطا له. أمّا الصّغرى الطارئة، فقد بقيا تحت وقع المباغتة برهةً، وأخيرًا، اقترحا «مويزيت»[2] لأنهما لو رزقا ذكرًا لكانا أسمياه موسى.

ليلي ومويزيت... والّذين استغربوا تباين اللفظين، بين الأوّل ذي الجرْس العذب، والثّاني ذي الرّنين الغريب، كان قلقهم في محلّه. في هذا الاسم البديل ما ينذر بمصيرٍ سَيِّئ...

عاشت ليلي ومويزيت أربع سنواتٍ في سعادةٍ. وكان الوالدان بربران ينعمان بتوأمتهما المشهودة، ويضخّمانها للتّندر: فلا يفصلان بين البنتين، ويكسوانهما الزيّ نفسه، وينعتانهما بـ «التوأم».

---

(1) صراخ الطفل الوليد.

(2) Moïsette: مويزيت تصغير لموسى.

قبل استعمال لغة المجتمع، كانت ليلي ومويزيت تتكلّمان بلسانهما، ثغثغةً سائلةً، ذات مفاصل، تمرّ من إحداهما إلى الأخرى بغير انقطاع، ومزيجًا من الطّنين والزقزقة الخفيفة، صافيًا لديهما بقدر ما هو غامضٌ عند من هم حولهما.

- يا لانسجامهما! غالبًا ما يقول الجيران الّذين لاحظوا أنّهما تحبوان، وتلعبان، وتأكلان، وتنامان، وتعدوان، وتتناجيان معًا.

في الواقع، لو لاحظناهما بشكلٍ أفضل، لألفينا أنّهما لا «تتّفقان» بمعنى الكلمة المتداول، فلكي يتمّ الاتّفاق -التّعبير، الإنصات، الإجابة- ينبغي أن يكون ثمّة اثنان. ليلي ومويزيت كانتا تكبران جنبًا إلى جنب دون أن يكون ثمّة إحساسٌ بالاختلاف. والثّابت أنّ الأختين، في فجر حياتهما، كانتا تجهلان ازدواجيّتهما، كانتا تُشكّلان شخصًا واحدًا، كيانًا بجسدين، جسمًا بأَرْبَعِ أذرع، وأَرْبَعِ أرْجُل، وأرْبَعِ شفاهٍ، وفمين. وعندما تبدأ إحداهما حركةً، فإنّ الثّانية تُنهيها. كأنّ مشيمةً لا مرئيّة تجمعهما بشكلٍ دائم، كانتا تسبحان في الانسجامِ، محروستين بجيْبٍ حامٍ، فقاعة مشبَعةٍ من سائل سابيائيّ تتحرّكان فيها، في سكينةٍ، وحرارةٍ مستقرّةٍ، وهما تتذبذبان في رجعٍ لطيف.

أيّ حدث شقّ ذلك الجيب؟ أي سكّين فصلت الأختين؟

في ذلك الصّباح، بمناسبة عيد ميلادهما الرّابع، وضع الأبوان علبةً زرقاء بين يدي ليلي، وعلبةً حمراء بين يدي مويزيت. تأمّلت كلّ طفلةٍ هديّتها بشراهةٍ وهي فرحانةٌ، ثمّ مالت تستطلع هديّة أختها مبتسمة. تخلّصت مويزيت من الحمراء وأمسكت الزّرقاء الّتي

أعجبتها أكثر، فَقَبِلت ليلي. ولكنّ الوالدين تدخّلا:

- كلاّ! الزرقاء لليلي، والحمراء لمويزيت.

أعادا توزيع الهديّتين. وما هي إلاّ ثوانٍ حتّى أعادت مويزيت الكرّة بعناد.

- مويزيت، ألا تفهمين: علبتك هي الحمراء، وليست الزرقاء.

قطّبت مويزيت جبينها. كانت تؤثر اللّون الأزرق على اللّون الأحمر ولا تفهم لماذا يُبعد أبواها تلك العلبة. فسحبتها.

أوقفتها ضربةٌ خفيفةٌ على معصمها. فظلّت فاغرة فمها مستاءةً.

- هيّا، افتحا هديّتيكما، يا ابنتيّ!

وبينما كانت مويزيت تحملق فيها، فكّت ليلي الغلاف السّماوي، وكشفت عن كرتونٍ فيه دمية.

- أوه! هتفت الصّغيرتان معًا.

كانت مويزيت، على غرار أختها، مذهولةً أمام الصّنيعة الشقراء الفاخرة، وهي تجلس في العلبة مكسوّةً بساتان أبيض.

- إنّها جميلةٌ! همست ليلي.

- أي نعم! قالت مويزيت مؤيّدةً.

رفعت ليلي البلاستيك برقّةٍ، وأخرجت الدُّمية وجعلتها في وضعٍ قائمٍ. ومويزيت ترقب المشهد وتعطي انطباعًا بأنّها جزء منه.

ثمّ داعبت ليلي شعر الدُّمية الذهبيّ، مداعبة شجّعتها عليها مويزيت. أخيرًا، قبّلت ليلي خدّيها الورديّين، فاحمرّ وجه مويزيت

كأنّها هي الّتي تلقّت القُبلة.

- مويزيت، هديّتك؟

مرّت عشر ثوان قبل أن تدرك مويزيت أنّ والديها يُخاطبانها. فألحّا:

- لستِ فضوليّة؟

- أحبّ الدُّمية.

- أنتِ محقّة: إنّها جميلةٌ جدًّا.

- أحبّها.

- ولكنّها لِليلي.

تجاهلت الملاحظة ومدّت ذراعها لكي تردّ إليها ليلي الدُّمية.

فقرّر الأبوان اتّخاذ موقفٍ صارمٍ.

-كلاّ يا مويزيت، إنّها دمية ليلي!

انتزعا اللّعبة من مويزيت، وكانت قد ضمّتها إلى صدرها وأعاداها بقوّةٍ إلى ليلي.

- هي لكِ، فلتحتفظي بها.

فكّرت مويزيت، وبعد ثوانٍ مدّت يدها مبسوطةً إلى ليلي، فأعادت إليها أختها الدُّمية. اعترض الأبوان. وكان العنف يصّاعد.

- كلاّ، كفى! حسبُنا الخلط. دعي هديّة ليلي. فُكّي عُلبتك.

كردٍّ لاإراديّ على نبرة التّهديد تلك، جعلت مويزيت تبكي.

- يا لك من بلهاء! تحصلين على هديّة ولا تُلقين عليها نظرة.

نتساءل لماذا نرهق نفسينا هكذا...

لم تفهم مويزيت شيئًا، سوى أنّها ما عاد يحقّ لها أن تتصرّف على هواها. اندفعت ليلي لتضمّها وبكت لبكائها. اطمأنّت مويزيت، فذرفت دموعًا أخرى، ثمّ تصوّرت الوضعيّة: أمّها تُقدّم لها العلبة الحمراء بعنادٍ.

مزّقت مويزيت الورق مضطرّةً، وبوجهٍ جامدٍ، وأخرجت دبًّا رائعًا.

- أوه كم هو جميل، هذا الدبّ! هتف الأبوان ليحرّضاها.

أوْلَتْهُ مويزيت اهتمامًا عابسًا.

- أعجبكِ؟

التفتت إلى أختها الّتي كانت تنظر إلى الدُّمية الوبريّة في نهمٍ، وتمتمت:

- نعم.

قدّرت أنّها في حِلٍّ من أمر أختها، فاستولت على الدُّمية.

وتردّت الهجمة المباغتة[1] إلى ما هو أسوأ. ملّ الأبوان فرفعا صوتيهما، وإذا بمويزيت تُعاود البكاء، بينما جعلت ليلي تصرخ على انفراد.

- كلاّ يا ليلي! لست أنتِ من يفعل هذا! لا يصحّ أن تشجّعيها فوق اللّزوم! ولا أن تكوني في غباء مويزيت!

---

(1) استعمل الكاتب عبارة algarade وهي من أصل عربي وتعني الغارة.

انطلقت الشّتائم كالصّواريخ، واصطفق الباب، وتوارى الأبوان تاركيْن الطفلتين تنشجان بالبكاء على أرضية الغرفة، وسط جثثٍ من مواد التغليف.

عيد الميلاد ذاك شجّ وحدة التّوأم: فكلّ واحدةٍ منهما أدركت بشكلٍ غائمٍ أنّها لا تمتزج بالأخرى. وفي العام الرّابع، ولدتا من جديد، ولكن اثنتين هذه المرّة، متمايزتين، ليلي وموِيزيت.

أمّا ليلي، فقد مثّل ذلك لديها معلومةً؛ وأمّا مويزيت، فكان حِدادًا. لا لأنّها لم تكن أختَها فحسب، بل لأنّها كانت وحيدةً. علاوةً على ذلك، صاروا يعاملونها بشكلٍ أسوأ. كلّ واحدٍ منّا صُعق أثناء الطفولة: فعندما يعي المرء فجأةً الفضاء الّذي يفصله عن العالم، يدرك أنّه موجود على حِدة، مختلفٌ، جسدٌ مفردٌ وسط أجساد غريبة، سياجٌ ذهنيّ فريد. إنّه جور الوعي... هو انبهار لدى بعضهم، وانحدار لدى بعضهم الآخر. وإن في ذلك رفع ستار عن عالم أولئك، فإنّ فيه حاجزًا يطوّق الآخرين في سجن. فالوحدة مملكة يرى منها بعضهم العرش، ويرى غيرهم الحدود.

أحسّت ليلي بفرحة استكشاف الطبيعة من حولها؛ فكانت تتنقل فيها مزوَّدة بمنظار! أمّا مويزيت، المكدّرة والمرتابة، فكانت ترى العالم مناوئًا، وتجد في حضور أختها ما يخلع عنها تأثيرها، ومكانتها، ورفعتها... خلال عيد الميلاد ذاك، كسبت ليلي أختًا، أمّا مويزيت فقد اكتشفت لنفسها غريمةً.

منذ ذلك اليوم، ظلّت الأختان التوأم شخصًا واحدًا في عيون

القرية، ولكن أكثر من ذلك في عيونهما.

كانتا تلتحمان بشكلٍ ارتكاسيّ، في كلّ ظرفٍ، أمام الأهل، والمدرِّسين، والرّفاق. إذا تعثرت الأمّ عند عودتها إلى المنزل في لمبةٍ مكسورةٍ أنكرت البنتان. «لست أنا!»، تصرخ ليلي بصوتٍ راعد. «لست أنا!»، تردف مويزيت. لا فائدة من الانتظار، لن تدلّ أيٌّ منهما على الجانية. كان كلّ انتهاك لسلطةٍ في فضائهما يدعم تواطؤَهما. والنتيجة إمّا أن تلغى العقوبات، أو تسلَّط على كلتيهما. لا يهمّهما أن تُحرما من المُحلّيات، أو أن تقضّيا عدّة ساعات حجزٍ مفروضةٍ من المعلِّمة، أو ألاّ تُدعيا عند الصّديق الّذي فقد كجّاته بعد زيارتهما، فثنائيُّهما أهمّ بكثيرٍ من غضب الأغراب أو شجبهم. كانتا كتلةً واحدةً.

بيد أنّ تلك الكتلة تتصدّع، حينما تكونان في غفلة من الأنظار. فإذا كان الفارق بينهما جسمانيًّا مجرّد كيلوغرام -سمنةٌ شابت ليلي- فإنّ الشّقوق، سيكولوجيًّا، كانت تتّسع.

كانت ليلي سبّاقةً. فهي سفيرة التوأم، جريئةٌ، مرتاحةٌ في وضع الكشّاف، تعقد اللّقاءات، والألعاب، والتنقّلات. وبما أنّها كانت تبادر النّاس بالكلام فإنّهم يتعلّقون بادئ الأمر بها هي. ولّما كان وضعها العفويّ كقائدةٍ قد كرّس العادة، فإنّه غالبًا ما كان يجري الحديث عن «ليلي» أو «التوأم» أكثر من «مويزيت»، بل إنّ بعضهم كان يكتفي بأن يقول «الأخرى»، فيما ينسى كثيرٌ منهم اسمها.

كانت مويزيت تتبع أختها الكبرى، دون أن يخطر ببالها تغيير هذا النظام الّذي يكاد يكون طبيعيًّا، ولكنّها كانت تحسّ أنّها تعيش في

ظلّها. طوال سنتين، لم تحفظ ضغينة لأختها، أختها الضروريّة، أختها الأبديّة، أختها الّتي تحسّ أنّها ناقصةٌ بعيدًا عنها؛ كانت تُلقي باللاّئمة على الكبار أخلياء البال، غير المكترثين، مسلوبي الذاكرة. حتّى إنّ ليلي كانت تسهبُ في تأييد مويزيت حين تُدين عدم مراعاة هذا أو ذاك، وتدافع عنها دومًا.

كما هي الحال في أعياد نويل أو أعياد الميلاد، بما أنّهما كانتا تتلقّيان هدايا مختلفة، فقد تبنّتا استراتيجيًّا: تتظاهران بالفرح أمام النّاس، وما إن تخلوا إلى نفسيهما، حتّى تعمدا إلى إعادة التوزيع. كانت مويزيت، المستاءة بصفةٍ آليّة من هداياها، تشترط الاستحواذ على هدايا ليلي، الّتي كانت تُهديها إيّاها بلا تردّدٍ، ولا تغضب حتّى إذا رفضت مويزيت من بعدُ إعارتها إيّاها.

في العام السّابع، شرخت المدرسة اتّحادهما. كانت مويزيت بوصفها بطيئةً وأقلّ دقّةً من أختها، تجد صعوبةً في التعلّم، فأشعرت المعلّمات الأهلَ. استمدّت مويزيت من ذلك اللّقاء سعارًا أسود فنسقُ دراساتها المطابق للثلث الأخير من الفصل، ولم يكن أسوأ من نسق رفيقاتها، ما كان ليجلب انتباه أحدٍ لو لم تكن مشفوعةً بأختٍ لامعة. ومن تلميذةٍ عاديّةٍ، صارت رديئةً لأنّهم يُقارنونها بليلي! حقدت عليها لأنّها تفرض تلك المقارنة، ولأنّ تلك الصّموتَ اللّعينة أكثر موهبةً منها، فاعتادت أن تلقي الخطأ على ليلي إذا ما حصلت على عددٍ سيِّئٍ.

في العام العاشر حدث المحتوم إذ اقترحت معلّمةٌ فصلَ التوأم لوضع كلّ واحدةٍ في فصل يناسب مستواها. وعبثًا امتدحت المدرّسة

مزايا الاختلاف، ووعدت بتكاملٍ أفضل، وأشادت بفعاليّة الصّيغة الفرديّة، فقد نكست مويزيت رأسها وحملقت في ليلي باشمئزاز.

منذ تلك اللّحظة، صارت تخرّب بانتظامٍ غرفة أختها الكبرى، وتُتلف كتبها، وتكسر أقلامها، وتحطّم رسومها، وتثقب ثيابها. ولكنّ ليلي كانت ترتّب كلّ شيءٍ دون أن تنطق بكلمةٍ، لحماية أختها، ولا يخطر ببالها أن تنتقدها، لأنّها على يقين من قلّة ما تولي مويزيت ذلك من اعتبار.

كانت ليلي هادئةً، رصينةً، تحول دون اكتشاف صَغار أختها. وعندما تعاني كثيرًا من عدوانيّتها، تقاومه ببرودة دم ماكرةٍ. من ذلك أنّها، لّما كانت متمسّكة بالأشياء الّتي طلبتها، ذهبت يوم المناولة[1] باكرًا إلى المائدة حيث وضعت الهدايا، واستبدلت البطاقات، فاستطاعت، في مساء اليوم نفسه، في حميميّة اللّيل، أن تسترجع ما رغبت فيه، عندما تبادلت الهدايا مع مويزيت.

خلال عامها الثّاني عشر، تغيّر التوازن.

ذات صباح، حدّقت مويزيت في ليلي وصرّحت:

- سِحنتك سيّئة.

حدجتها ليلي فاغرة الفم.

- أنتِ أيضًا.

اصطفّتا معًا أمام المرآة، فلاحظتا أنّ الانعكاسات تؤكّد رأيها: كان وجهاهما يتغيّران.

---

(1) Communion: جزء من القداس يتناول فيه القربان.

بعد أسبوع، ركّزت مويزيت نظرها في وركي ليلي.

- كفّي عن الأكل: أنت تسمَنين بشكلٍ قد تمُزّقين معه وشيَ تنّورتك.

- أنتِ أيضًا.

مرّةً أخرى، أكّدت لهما المرآة البليّةَ المشتركة. ومثل جيشٍ سرّي، كانت الهرمونات قد اجتاحت جسديهما وبدأت بتغييرهما.

لا يكاد يمرّ صباح دون أن تلاحظ إحداهما في الأخرى شائبةً سرعان ما تجدها في نفسها: بثرةٌ في طرف الأنف، نهدان يبرزان، شعراتٌ قيد الظهور، شحمٌ في الفخذين، دهنٌ على البشرة، رائحةٌ جديدة... كانتا قد هجرتا ضفاف الطفولة لتلتحقا بقارّة النّساء، ولكنّهما كانتا لا تزالان تبحران في مياه النكران.

اكتشفت ليلي في دهش جسدَها الجديد على جسد أختها التوأم. أمّا مويزيت، فلم تحتمل أن تسلّط عليها أختها مشهد تلك الهزيمة. هل نقضي أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة أمام المرآة؟ كانت ترى أنّ الفظيعة ليلي تذكّرها باستمرار بدمامتها نفسها؛ باختصار، كانت ليلي تضايقها كثيرًا بإبراز العيوب الّتي كانت تمقتها.

بتدبيرٍ من العناية الإلهية، ما إن أنهت مولّدات النزوة[1] استعمارها وأتقنت التحوّل حتّى تبدّت الأختان بربران جميلتيْن. كلتاهما جميلة.

ابتهجت مويزيت.

---

(1) Œstrogènes: هرمون يبعث حرارة التّوالد في الإناث.

وداعًا للتباين الّذي أفرزته الدراسة، لقد عادتا متماثلتين!

المفارقة أنّ غرامياتهما الأولى قرّبت بينهما. كانتا مرتعبتَيْن من رغباتهما، متعطشتَيْن إلى ممارسة نفوذهما الجديد على الأولاد، مولعتَيْن بألعاب الإثارة، فكانتا تتشاوران بلا انقطاع، وتكرّسان تفاهمًا قويًا أقرب إلى تضامن جنودٍ في مواجهة خطرٍ غير مسبوقٍ من الصّداقة الحقّ. تجمعهما أخوّة سلاح. كانتا تتبادلان الحديث عن محاولاتهما، إخفاقاتهما، نجاحاتهما، بشكلٍ جعل مويزيت، الأقلّ جرأةً من ليلي، تغتنم عثرات أختها الكبرى كي تغامر من جهتها بحدّةٍ أشدّ وتستمتع أكثر.

ثملتا أحيانًا بمخادعة بعض الأولاد كأن تعوّض إحداهما الأخرى من أجل قبلةٍ خاطفة أو دعابةٍ رومانسيّة. ففي السنّ الّتي تخشى فيها المراهقات سطوة الذكور، كانتا تنتشيان فرحًا، فخورتَيْن بأنّهما تروّضان المظاهر، وتهيمنان على عشّاقهما.

هل كانتا متحابّتَيْن؟ بالتّأكيد، كانت ليلي تحبّ أختها حدّ العبادة، تحرص على سعادتها، تسعد بسعادتها، وتشقى إذا لم تكن كذلك. وكانت مويزيت في مثل اهتمامِها بها إن لم يكن أكثر. فقد أضافت إلى القرب الجسديّ الموجود منذ الولادة عطفًا عميقًا، جوهريًا.

أما بالنّسبة إلى مويزيت فكان الأمر عندها عادةً أكثر من أن يكون محبّة. فهي وإن كانت تحسّ بحاجةٍ شبه ماديّةٍ إلى ليلي، فإنّها لا تتفطّر حزنًا إذا ألمّ بأختها مرض، ولا تبادر أبدًا سواء لفائدتها أو لفائدتهما معًا، ولا تُدمج أختها في أحلامها المستقبليّة بل إنّها تستطيع أن تبتهج إذا رأتها في ضيق.

- أقدّمُ لكِ فابيان.

ذاتَ أصيلٍ أشدّ حرارة من حمّام، أرتْ ليلي، بإشارةٍ من يدها، أختَها مويزيت شابًّا أسمر ذا عينين متّقدتَيْن وصدرٍ منتفخٍ وقامةٍ مقوّسةٍ ورجلَيْن مفرجتَين كأنّه نَزَل من فوق حصان.

منذ أن قابلته في بيت إحدى رفيقاتها، قبل أسبوعٍ، كانت ليلي تحدّثها عن فابيان ولم تُخْفِ عنها شعورَها بالحبّ لأوّل مرّةٍ.

ولّما كانت مويزيت متلهّفةً، مستثارةً باقتحام «الحبّ» حياتها، فقد فهمت اضطراب ليلي وهي تتفحّص فابيان. طويلٌ، مشيقٌ، هيئةٌ رشيقةٌ مشوبةٌ بمجانة، شعرٌ جَعد مفرط الطّول قليلاً، قزحيّةٌ خضراء مثقوبةٌ ببؤبؤ واسعٍ داكنٍ تجعله يبدو كمن نوّمته البنات. ثابت القدمين، بين صورة الصّهر المثاليّ وصورة الصّعلوك، كان ذا شفتَيْن غليظتَيْن ترسمان بسمةً فظّةً ومرحةً.

احمرّ وجه مويزيت تحت نظرته، نظرة مذهولة أمام تشابه الأختين التامّ، نظرة محمّلة بالرّغبة... الثّابت أنّ الولد يجد التّوأم بربران على ذوقه. أغضت مويزيت جفونها في الحال. «خطر!» صرخ صوتٌ داخليّ. خفق قلبها بقوّةٍ، وانقبض جُمْعاها، وطلى العرق إبطيها، فخشيت أن يقطع دمها المضطرب عروق رقبتها.

خلال الأصيل الّذي قضّاه ثلاثتهم معًا، تركت مويزيت أختها ليلي تختار التّسالي، والفسح، ووقت الشاي، ونوع الشاي، والبسكويت الّذي يُؤكل مع الشاي، ومكان الحديقة الّذي يُشرب فيه... عادت إلى انزواء الطّفولة وخجلها، فامّحت، ولم يكن ضحكها إلاّ صدى لضحك

أختها، ولم تفتح فمها إلاّ تأييدًا. أربكها الشّابّ، فكانت تفكّر بخمولٍ وهي تستشعر خدرًا شبقًا. كانت تلك الوضعيّة تزعجها. وهي واعية بأنّ أختها تزداد توقّدًا، كانت تكابد هي أيضًا حَمْوًا ملتبسًا: فهي تؤيّد حماس ليلي، من ناحية، وتلوم نفسها على الإحساس به، من ناحيةٍ أخرى. أرهقها ذلك التّوتّر كثيرًا، فتنفّست الصّعداء عندما غادرهما فابيان أخيرًا.

- هه، ما رأيك؟ هتفت ليلي.

- مثلك! أجابت مويزيت متنهّدةً.

- أعجِبه، أليس كذلك؟

تذكّرت مويزيت حال فابيان المنتعشة وهو يختلس النّظر إلى ليلي.

- واضح.

انفجرت ليلي فرَحًا وهي تدور حول نفسها. ولم تذكر مويزيت أنّها لمست لدى فابيان الوَلَهَ نفسه تجاهها هي.

ولمّا أتمّت ليلي رقصها حول المائدة، حَكَّت مويزيت رأسها.

- هل هو جسديّ بالأساس، ما بينك وبينه؟

- ليس هذا فقط.

- بدأ ذلك بنظرة.

- طبعًا. لم أقابله عن طريق المراسلة.

- ولا عبر الهاتف...

- ولا عبر الهاتف! أجل، أنتِ محقّةٌ، مويزيت: النظرة الأولى

صعقتنا، صدمةٌ كهربائيّةٌ من ثلاثمائة فولت. كلاّ. ألف فولت. إنّه حبٌّ لاعج.

- إذن هو جسديٌّ بالأساس.

- كلاّ يا مويزيت، إنّه جسديٌّ في بدايته. ثُمّ، كلّ الباقي... أي نعم، كلّ الباقي...

ردّدت ليلي حالمةً «كلّ الباقي» عدّة مرّاتٍ في نبرةٍ غامضة.

هزّت مويزيت رأسها: لم تحدّد معنى «كلّ الباقي». طوال ساعتين، لم يتّسم النقاش بغير كلامٍ تافهٍ وجملٍ مبتذلةٍ ودعاباتٍ قديمةٍ وصمتٍ حرج تتخلّله ضحكات مفرطة؛ وقد وعت ذلك بصورةٍ أفضل لأنّها شهدت النقاش أكثر ممّا ساهمت فيه. من خلال نقاط اهتمامه، يبدو فابيان ولدًا عاديًّا، فظًّا، بسيطًا، شبيها بآلافٍ مثله، ليس له من ملمحٍ فاضحٍ غير رغبةٍ جامحةٍ في نيل الإعجاب. ولئن كان يبدو يقظًا عند الصّيد، فإنّ ذهنه يعمل بصفةٍ أثقل من عينيه المراودتين.

احتفظت مويزيت بحُكمها، وهنّأت نفسها في قلبها[1] بصفاء ذهنها الّذي يفوق -دون شكٍّ- ما تتحلّى به أختها المسكينة العاشقة.

كان فابيان يقيم في مكانٍ غير بعيد، في أمبريو، خلال شهري العطلة المدرسية. ولما كان حرًّا في وقته، فقد كان يتنقّل كما يشاء على درّاجةٍ ناريّة عهد بها إليه عرّابه؛ فصار لا ينقطع عن زيارة آل بربران.

---

(1) باللاتينيّة في الأصل in petto: في قلبها، في قرارة نفسها.

ارتفعت الحرارة بشكلٍ سريع بين ليلي وفابيان، على غرار زئبق المحرار في ذلك الصّيف القائظ. في نهاية يوليو، أخبرت ليلي مويزيت أنّها لن تنتظر: عمّا قريب ستمارسُ الحبّ مع فابيان.

- دون أن تتزوّجَا؟

- نعم.

- أو تعقدَا خطوبةً؟

- لا يهمّني من ذلك شيء.

- عفوًا؟

- افهميني يا مويزيت. طبعًا، أنا أتمنّى أن أقضّي حياتي كلّها مع فابيان لأنّي أحبّه. ولكن كيف أتأكّد أنّ ذلك سيحصل؟ «الحياة كلّها»... شيء مجرّد، أليس كذلك؟ ثمّ إنّه لا يقيم هنا إلاّ في هذا الصّيف؛ سيعود إلى ليون في سبتمبر. حياتي الآن وليس غدًا. علاوةً على ذلك، لا تتظاهري بالاستغراب، لقد تحدّثنا في هذا الموضوع مائة مرّة، أنا وأنتِ، نحن ننكر الزّواج. إن حصل فيا حبّذا. وإن لم يحصل، فسأكون على الأقلّ قد ضاجعت فابيان.

احتجّت مويزيت طويلًا، بقوّةٍ، ساعات وأيّامًا. صحيح أنّها، بعكس الأجيال السّابقة، كانت تطالب هي أيضًا بحريّة أن تكون امرأةً قبل أن تكون زوجة، ولكنّ قوّةً عنيدةً تدفعها إلى الاعتراض على ليلي بتعداد الحجج لكبحها. أيّ قوّة؟ خوفٌ بألف وجه، خوفٌ من فقدان أختها، خوفٌ من العودة إلى المحلّ الثّاني، «الأخرى»،

التوأم، الصغيرة المتأخّرة، البطيئة... المغفّلة. باختصار! كانت، وهي تمنع ليلي من الطيران إلى ذراعي فابيان، تصارع لأجلها هي، وليس لأجل ليلي.

في منتصف أغسطس هدأت، لأنّ ليلي ما عادت تتحدّث عن وَهْب نفسها لفابيان، إذ كانت تغيّر الحديث كلّما طرقت أختها الموضوع. ها قد انتصرت مويزيت. إذ منعت ليلي من أن تكبر. فأن تسكن هذا البيتَ يَرَقَتان خيرٌ من سُرفة وفراشة.

مساء 15 أغسطس، بعد احتفالات تقليديّة بالعذراء أتاحت السُّكر للجميع، فاجأت مويزيت همسات في أسفل العمارة النّائمة.

كان الجرس قد رنّ ساعة منصف اللّيل.

غادرت فراشها قلقةً، ودنت من النافذة بخطى صامتةٍ. في الشارع، تحت قَمَرٍ أصهب، كانت ليلي حافية القدمين، والمداس في يدها، تلتحق بشخصٍ متينٍ بسُترةٍ على درّاجةٍ ناريّة. امتطت حاملةَ الأمتعة، واحتضنت جذعه، والتحمت بظهره، راضية. وفابيان يذرع الأرض برجليه، مستغلاً المنحدر وثقل الآلة كي يمضي دون تشغيل المحرّك حتّى طريقِ المقاطعة الّتي تعبر القرية. انسحب الاثنان دون ضجيج عند عطفة الشّارع؛ وما هي إلاّ ثوانٍ حتّى سُمع أزيز المحرّك، فتضخّم بصفةٍ موجزةٍ ثمّ توارى مبتعدًا...

أعاد الصّمت بَسْطَ طبقته الرّصاصيّة على المشهد المطفإ.

ارتعدت مويزيت. لم تشعر قطّ بمثل هذه الوحدة...

إلى أين يذهبان؟ لا تدري. لكنّها تحدس ما سيفعلان... على

السّقف المقابل، كان قطٌّ بعينين مشعّتَيْن يرمقها. عضّت مويزيت على معصمها من شدّة الحنق. إن كانت أختها قد لزمت الصّمت في الأيّام الأخيرة، فلأنّها كانت قد حدّدت خيارها. لقد أهانتها بشكلٍ مضاعف: لم تكن تنصت لها واكتشفت الحبّ قبلها.

- أكرهها! أبغضها بُغْضًا لا عهد لي به نحوها.

تخيّلت أختها تحت جسد فابيان العاري وهو يرهَز وقد كَوَّرَ جسدها ورفع رِدْفَيْها.

- خنزيرة! لا شيء سوى خنزيرة!

على وقع تلك الكلمات الّتي تسرّبت من شفتيها، انتصب القطّ حذرًا وصلّب ذيله.

تراجعت مويزيت في عتمة غرفتها ولمحت طيفها المضحك على مرآة الخزانة الضخمة: إنّها سمكة غمبري في بيجاما.

- عاهرة! أعادت قاصدةً أختها.

على وقع الشتيمة، فرّ القطّ فوق القرميد.

في ذلك الصّباح، كما في الأصباح الّتي تلته، سكتت مويزيت عن الكلام أمام تحوّل أختها. كانت ليلي مهيبةً مثل فجر، تشعّ بشكلٍ امبرياليّ وكهنوتيّ، متألّقةً تألّقًا يجعلها تفرض الاحترام. سحنة في لون العنبر، شعرٌ يقطر حيويّة، فمٌ في شكل الفراولة، عينان لامعتان، ليلي الّتي كانت فتاةً فاتنةً، صارت امرأةً جميلةً. كانت تضاعف سعة حركاتها والوجه مضاءٌ ببسمةٍ دائمة: لم تعد تمشي، كانت تندفع؛ وحين تثبت في مكان تتّخذ صورة أبي الهول؛ وعندما تتمدّد على أريكة،

ينبعث منها شبقٌ حامٍ، كأنّها أفروديت تتّخذ لها وضعًا أمام نحّاتٍ لا يُرى. شيء مّا أثقلها قليلاً وجعلها أكثر إغراءً وفتنةً وشهوانيّة. أَهُوَ سرّ الشّهوة الحسّيّة، ربّما؟

كفّت مويزيت عن نقد أختها لكثرة ما كانت تحسدها. لم تعد تتمنّى سوى أن تشبهها من جديد.

لذلك صارت تبدي كثيرًا من التّملّق لإعادة ربط الحوار. ومن فرط لطفها، والتلميح بأنّها تظلّ شريكتها الوفيّة، وإن كانت تعرف ما يجري كلّ ليلة، استعادت ثقة ليلي وهي متعطّشة للتفاصيل. وصفت لها أختها الهري حيث كان فابيان يأخذها، وضوء النّجوم على وجهيهما، واختلاج بشرتها حين يعرّيها، وقدرتها الجنسيّة الّتي تلمسها في عيون الذّكر الحامي، النّشوان، وقوّتها الإيروسيّة الّتي تُثير في فابيان التريّث والعجلة مثلما تثير الرقّة والاندفاع. وبعد أن حثّتها مويزيت، فصّلت القول في جماعهما، ما كان يفعله لها، وما كانت تفعله له، ما تستطيبه يومًا بعد يوم، وما تشغف به، وما ستحاوله قريبًا... ذكرت الخوف الّذي يشلّ في البداية، ويشجّع بعدها. وصفت مسار الحشمة، ذلك التقزّز الّذي أحسسنا به منذ الطفولة بخصوص بعض الملامسات، تقزّزٌ يذوب أثناء الحبّ، تقزّزٌ يتحوّل إلى ضِدِّهِ، إلى شراهةٍ، باختصار ذلك التقزّز الّذي اتّضح أنّه سمة البنيّات.

افتتنت مويزيت بتلك الحكايات، فصارت امرأةً بالوكالة، مستعيدةً تقريبًا وحدة أعوامها الأولى. بيد أنّها في أثناء اللّيل، حينما تهجر ليلي البيت على متن درّاجة فابيان النّاريّة، وتبقى وحيدةً في

فراشها، تعود إلى التشنيع بها، وقد باتت مهملةً، منبوذةً، حانقةً لأنّها لم تعد تملك سوى فسحة الاستيهام.

في 31 أغسطس، عكّر حدثٌ مأساويٌّ حياة آل بربران. فعند العشاء، نقر أحد الأقارب الباب ليعلن أنّ الجدّة غرسان تُحتضر وأنّها تطلب ابنتها.

قرّرت السيّدة بربران مرتاعةً أن تذهب إليها مباشرةً في مونتاليو، 15 كيلومترا جنوبًا. وأسرع السيّد بربران إلى سيّارته في المستودع ليقود زوجته.

كانت السيتروين واقفةً أمام درج المدخل والمحرّك يشتغل. اجتازت السيّدة بربران العتبة مصحوبةً بابنتَيْها، وفجأةً استدارت نحو ليلي:

- رافقيني.

تراجعت ليلي إلى الممرّ.

- أنا؟

- نعم.

رغم أنّ ليلي كانت متألّمةً لما حدث لجدّتها، فقد فكّرت في فابيان الّذي ينتظرها هذه اللّيلة شأن اللّيالي الأخرى. ألقت نظرةَ استغاثةٍ إلى مويزيت وأعادت:

- أنا؟

- أسرعي! هيّا اخرجي! البسي حذاءك.

- أنتِ متأكّدة؟ قالت ليلي في تلعثم.

- نعم، تعالي لنسهر بجانب جدّتك المحتضرة.

- لماذا أنا وليست مويزيت؟

كانت المرأة منزعجةً، مضطربةً، ولكنّها لم تتأخّر عن تخيّر ألفاظها حينما ركبت السّيّارة فقالت:

- لأنّ جدّتك تحبّك كثيرًا!

ارتجفت الفتاتان. أسندت مويزيت ظهرها إلى جدار الممشى وكادت تقع لو لم يمنعها الحاجز. ماذا؟ جدّتها المحبوبة لم تكن تحبّها إذن؟ كانت تفضّل عليها ليلي؟ هي أيضًا؟

قدّرت ليلي الضربة الّتي منيت بها أختها وتطلّعت إليها في إشفاق. ولمحت الأم تلك النظرة، فأدركت هفوتَها، وبدل أن تعتذر، غضبت:

- هيّا، أفّ، كفى! لا تعقّدا الأمور أنتما معًا. ليس هذا المساء. ليلي، اتبعيني. مويزيت، احرسي البيت. إلى الغد!

وأطبقت باب السّيّارة. كان أمام ليلي عشرون ثانية كي تركب في المقعد الخلفيّ. ثمّ انطلقت السّيّارة بأقصى سرعةٍ.

ظلّت مويزيت برهةً طويلةً في فرجة الحائط. وحيدةً... مرّةً أخرى... وحيدةً... على هامش المآسي العائليّة... على هامش العواطف العائليّة... وحيدةً... عليها أن تحرس البيت... مثل كلب... وحيدةً...

اتّخذت قرارها فورًا. صعدت إلى غرفة ليلي، أغلقت على نفسها بيت الاستحمام، تطهّرت، وتزيّنت، وتعطّرت، وارتدت أحد فساتينها.

بعد منتصف اللّيل، عندما ظهر فابيان، كانت مويزيت تمشي

تحت باب الجيران المقوّس، كما تفعل ليلي.

قفزت على حاملة الأمتعة، طوّقت فابيان، والتصقت بظهره واستسلمت لأمر أَخْذِها...

بعد ساعتين، تحوّلت إلى امرأةٍ بين ذراعَيْ رجل. لم تعرف كلّ ما حدّثتها أختها عنه، بل جانبًا منه. في البداية، اجتهدت، ربّما بإفراط لا يسمح بالتّمتّع، وفي معانقاتهما الأخيرة، أسلمت نفسها فأحسّت بانفعالاتٍ قويّة.

كانا يستريحان عاريَيْن، مستلقيَيْن على الظهر، جنبًا إلى جنب، وهما يرمقان القمر الّذي لاح خلف كوّة السّقف. في تلك اللّيلة، كانت السّماء تحوي نجومًا أكثر من ذي قبل. كانا صامتين، مجهَدين، يحاولان استعادة نفَسيهما.

كانت موبزيت سعيدةً في البداية، وكلّما ارتخى جسدها وتباطأ قلبها، فكّرت أنّ الأصعبَ ما يزال ينتظرها: إنّها المحادثة. لم يتبادلا حتّى الآن غير همهمات في القرية، سارا في اللّيل، ثمّ ارتمى أحدهما على الآخر وسط سريرٍ متهالكٍ أُعِدَّ كيفما اتّفق بين أكوام التّبن.

هل ستخون نفسها عند الحديث؟ انتابها خوفٌ فجأةً.

التفت إليها فابيان، واتّكأ على مرفقه، وداعب ردفها وهو يتأمّلها.

ابتسمت محرجةً. وابتسم هو أيضًا.

– هه، مويزيت، هل أعجبكِ هذا؟

تصلّبت، تردّدت، ثمّ وجدت القوّة كي تطلق ضحكةً لا تخطئ.

– ها، ها، ها... لماذا تناديني مويزيت؟

أوف، لقد نجحت في نبراتها: كأنّنا نسمع ليلي وقد أدهشتها طرفةٌ جيّدة. فأعادت:

- ... لماذا تناديني مويزيت؟

- لأنّك مويزيت.

- في هذه اللّحظة، مويزيت تنام في سريرها، ككلّ اللّيالي.

تمدّدت بسمة فابيان، في حدّة:

- تحسبينني أبله؟

ارتجفت مويزيت، ولكنّها أصرّت:

- فابيان، أخبرني: لماذا تناديني مويزيت؟

أشار فابيان بهدوءٍ إلى البقع الدّاكنة في الجزء الأسفل من اللّحاف.

- لا تفقد الفتاة عذريّتها مرّتَين.

اخضرّ وجه مويزيت. علامات دم! في حميا الجماع، لم تتفطّن أنّها نزفت.

- عفوًا؟

- هذا الدم، هنا، هذه اللّيلة، ما هو؟

مذعورةً، وقد أدركت في الوقت نفسه ما جرى وما خطر ببال فابيان، ضمّت رجلَيْها إلى صدرها، وجعلت ذقنها بين ركبتَيْها وانغلقت على نفسها.

تابع حركاتها ساخرًا. كان قفاها ثقيلًا، فلم تجرؤ حتّى على النّظر إليه.

ألحّ بصوتٍ بطيء، خليع:

- ساورني من ذلك شكّ. ثمّ حصلتُ على الدّليل.

- متى؟

هزّ كتفيه وأشار في سخريةٍ إلى القذارات الضّاربة إلى السُّمْرة.

- في أسرع وقت.

- وواصلت؟

- مثلكِ...

التفتت نحوه مرتعبة. غضّن عينيه وضحك ملء فمه.

- نعيد الكرّة متى تشائين.

تقبّضت مويزيت. ساءها المنعرج الّذي اتّخذه المشهد. وكان كلّ شيء ينفلت من بين يديها.

فزعت قائمةً، خطفت ثيابها وارتدتها على عجل. وظلّ هو عاريًا، لا يطرف له جفن.

عندما هيّأت نفسها، أمسكها من عرقوبيها بعنفٍ، فأفقدها توازنها، وأسقطها أرضًا ثمّ دحرجها تحته. بدا في صوته رنين معدني:

- بجدّ: نعيدُ الكرّة متى تشائين.

- ماذا؟ أتفعل هذا مع أختي؟

- ماذا تعنين؟

- تخونها!

- نعم، أفعل. كما فعلتِ أنت.

تخبّطت مويزيت وهي تكيل له ضربات برجليها.

- يا حقير! يا قذر! أطلقني.

أعجبته مقاومتها، فضغط عليها بثقله، وكبح انتفاضها وقيّد حركتها. على مقربة سنتمتراتٍ من عينيه، صارت عيناها متوحّشتَيْن.

- انظروا إليها، هذه الّتي تعطي دروسًا في الأخلاق! تختطف صديق أختها، وتجرؤ على الاستنكار!

- أطلقني.

- أمّا أنا فأقلّ ما أعتذر به أنّي اشتبهتُ فيك.

أدارت وجهها. أطلقها فجأةً، ومال على جانب ولبس ثيابه دون أن يبدو عليه انفعال.

دعكت مويزيت معصميها وهي تجترّ مذلّتها.

بعد أن سوّى مظهره، بدا كأنّه يكتشفها على الأرض، مدّ إليها يده وساعدها على النهوض بلباقة.

- متى تشائين، وحيثما تشائين.

قوّمت جذعها دون أن تردّ. ألحّ مستهزئًا:

- حتّى مع أختك، إن شئتما.

غادرت مويزيت الهري بخطى واسعة. اقتفى أثرها وهو يدخّن.

أدركت مويزيت، وهي جالسة على الدرّاجة النّاريّة الّتي كانت تشقّ ليلاً عدائيًّا باردًا، في أيّ فخٍّ وقعت. ماذا ستقول لأختها؟ لا شيء طبعًا. ولكن ماذا سيحدث لو أنّه كَشَف لها غدًا عن هذه اللّيلة

أو جزء منها. كيف ستبرّر سلوكها؟ ما الّذي...

ارتعدت.

يا للظلم! لقد انتابتها للتوّ أحاسيس بحجم المحيطات، واقتحمت عالم الأنوثة الكبرى، ولكن ليس من حقّها أن تستمتع بها بسبب أختها اللّعينة! أختها، ذلك السمّ، تلك المعكّرة، تلك الأذيّة، تلك المانعة عن المتعة! الفظيعة ليلي!

عند مدخل القرية، قبيل مصابيح الشارع، أطفأ فابيان المحرّك وأنزل مويزيت، فتسمّرت أمامه.

- لا تقل شيئًا لأختي.

- نعم؟

- لا تقل شيئًا لأختي وإلاّ وَشَيْتُ بك.

- ماذا؟

- سأفسّر لها الأمر بأنّي نزلتُ إلى الشارع لإعلامك بأنّها لا تستطيع لقاءك بسبب جدّتنا، ولكنّك أرغمتني واغتصبتني.

- ويحك، هذا أمرٌ ممكن الحدوث!

- جديرٌ بالتّصديق ما دمتَ قد اعترفت به: أنتَ تحبُّ جسدَي الأختين بربران. وسيّان عندك أكانت هذه أم تلك، أيُّ فرق...

صرّ أسنانه.

واصلت بحدّة:

- حسب رأيك، من ستصدّق ليلي؟ تلك الّتي تشاطرها كلّ شيء منذ اللّحظة الأولى، توأمها الدّائمة، وإلى الأبد، أم صديقها لفصلِ الصّيف؟

- أنتِ...

اصفرّ وجهه.

وإذ أحسّت بتفوّقها، وجّهت الطّعنة الأخيرة:

- ثمّ لماذا ستحدّثها عن ليلتنا؟ إن صدّقتك فسوف تتقيّؤك. وإن لم تصدّقك، فسوف تلعنك. وفي كلتا الحالتَيْن تخسرها، هذا هو اليقين الوحيد.

نكّس رأسه.

انتصرت مويزيت.

ظلاّ دقيقةً على تلك الحال، هي تقيسه، وهو يتأمّل الأرضيّة. كان جسداهما لا يزالان حاميين من أثر ساعتيْ المضاجعة، وجلداهما لا يزالان يزفران روائح جذّابة وعضواهما لا يزالان يرغبان في... كانا يتهيّجان بشكلٍ فاضح.

تمتم بصوتٍ أجشّ:

- أنتِ حقًّا فاجرة.

فأجابت في همس:

- وأنتَ وغدٌ بامتياز.

رفع شدقيه، وفجأةً، ومن دون أن يفهم كلاهما، قبّل أحدُهما

الآخر بِوَلَهٍ. تداخل لساناهما وتدافعا وانعقدا وتقاذفا وتطاردا سائلي اللّعاب، مُرغبين. وضع راحة كفّه على إليتيها، فندّت عنها حشرجة لذّة. راحت أصابعها تنقّب تحت سروال الكتّان عن العضو الصّلب.

ماءَ قطٌّ مواءً حانقًا على حافّة الطريق.

وإذ شعرت مويزيت بأنّها تفقد السيطرة، خلّصت نفسها من القبلة، وتطلعت إلى فابيان وبصقت في وجهه.

فبصق هو أيضًا.

انحدر البصاق الّذي أصاب صدغ الفتاة حارًّا، على طول خدّها، ورقبتها، وأرسل خضّةً كهربائيّةً إلى بطنها. حطّم اندفاع مّا دواخل مويزيت، كما هي الحال قبل قليل، تحت سقف الهري، فارتبكت واستدارت هاربةً، خشية أن تنتابها هنا، وسط الطريق، نشوة جماعٍ ثانيةٍ.

عندما عادت إلى البيت، علّقت مويزيت خطوتها حين سمعته ينطلق، واتّكأت على الحائط وانفجرت تبكي من فرط الغيظ والاضطراب، عاجزةً عن تحديد ما إذا كانت تعسةً بشكلٍ لا يُحتمل أم سعيدةً بعمق.

***

في «بورغ أن بريس»، يوم الاثنين ذاك، لم يتزاحم النّاس كثيرًا على قصر المحكمة.

بدا امتعاض فابيان جربيي في تقلّص عضلات وجهه. إذ كانت جرائم القتل تملأ القاعة في العادة. هو نفسه، تابع هنا، على مدى ثمانين سنة من عمره، عدّة قضايا، كقضيّة الأرملة السّوداء ماري موريستيي،

وقضيّة الأب بوسيي الّذي قتل أبناءه الثلاثة، وقضيّة سائق الشاحنة مُقطّع النّادلات. نجاحاتُ فضولٍ في كلّ مرّة، انتصاراتٌ باهرةٌ. ما الّذي جرى؟ أختٌ تقتل أختها، إنّه من الأشياء النّادرة، الخليعة، الّتي تُحدث وقعًا، وهذا يستحقّ إقبال الأيّام المشهودة وجيَشانه... ولكن ليس ثمّة في قاعة المحكمة الباردة الّتي لا تزال عاملةٌ عبوس تنظّفها بالخيشة غير ستّة أفرادٍ كانوا يقطّرون مطرّياتهم تحت المقاعد الخشبيّة. خارج المحكمة، كان مطرٌ رخوٌ يخدّر المدينة.

- وسائل الإعلام هي السّبب! غمغم في سرّه.

وبما أنّ الصّحف اليوميّة وقنوات الإذاعة والتلفزيون لم تجعل لتلك القضيّة أصداء، فإنّ النّاس لم يعلموا بها ولم يكن ثمّة أيّ مراسلٍ صِحَفِيّ لتغطية الحدث.

جلس فابيان جربي مقابل مِقرأ من خشب الكرز حيث تجلس المتّهمة عادةً.

- ستكون مرغمةً على رؤيتي، قهقهه في سخرية. سأتقمّص ضميرها، ما دامت بلا ضمير.

ذرع القاعةَ محامٍ رقيع، بيده قهوة وهو يمازح زميلةً له:

- حسب رأيي، القضيّة ستنتهي اليوم: الملفّ فارغ.

انتفض فابيان جربي. ماذا؟ البوليس لم يعثر على أيّ شيء؟ هؤلاء العاجزون يقلّلون ما أكدّه منذ أشهر: ليلي بربران قتلت أختها؛ مويزيت لم تمت في حادثٍ.

تذكّر بحنقٍ كم صارع لإرغام السّلط على التّقصّي، تلك السّلط

الّتي خلصت منذ البداية، بالتوافق مع القرية، إلى أنّها مأساةٌ حدثت مصادفةً. ولم يثنِ ذلك فابيان إذ اقترح عدّة دلائل. ولكن دون جدوى! ولمّا يئس، هدّد بتأليب الصّحفيّين لفضح تحقيقٍ مرتجل.

«بربّك، مسيو جربيي، كان الباحثون يردّدون، لماذا تريد أن تقتل امرأة في الثمانين أختها؟».

- ماذا تعرفون عن التّوأم؟ يردّ فابيان جربيي.

- أنّهما تعيشان معًا منذ ثمانين سنة!

- هكذا؟ هل هناك تاريخ محدّد؟ أيكفّ المرء في الثمانين عن أن يكون قاتلاً؟ أَلَنْ يُقبَض عليّ غدًا لو قتلتُ جنديًّا؟

- أنت لا تأتي بأدلّة مسيو جربيي. إنّها مجرّد ذرائع وشكوك.

- ذرائع وشكوك، ذلك كان كافيًا كي يقاد عدّة مشبوهٍ فيهم إلى محكمة الجنايات ثمّ إلى السّجن. وهي لا؟

دخلت الإجابة إلى قاعة المحاكمة، مخفورةً بشرطيين: كانت ورديّةً، جذّابةً، هشّةً، بدت ليلي بربران في رقّة الخزف، والوجه مشرقٌ بتجاعيد خفيفةٍ وهي تتقدّم بخطى صغيرة متواضعة، في تجسيد للدّماثة والعناية، ممهورةً برصيدٍ لا يتغيّر لجدّةٍ حنون.

«هي تموّه على كلّ الأغبياء العاجزين عن تجاوز المظاهر»، فكّر فابيان. قطّب جبينه، ورفع ذقنه، ورمقها بحقد. وخلافًا للآخرين، كان مقتنعًا بجُرمها: لقد خالطها منذ أن بلغ الثامنة عشرة.

***

اطمأنّت مويزيت: لن ينطق فابيان بكلمةٍ.

كانت ليلي قد عادت إلى البيت -بدأت الجدّة تتعافى من نوبة قلبيّةٍ بسيطةٍ- ولم تغيّر سلوكها مع أختها؛ واصلت ائتمانها على أسرارها، والبَوْحَ لها بتردّدها، وابتهاجها وانتظاراتها. وكانت مويزيت، الّتي تعي أنّها تحظى باحترامٍ مؤقّتٍ قد يُسحب منها في يوم مّا، تحبوها لطفًا عميقًا. لعلّها كانت تحاول أن تكفّر عن خيانتها، وحتّى أن تمحوها؟

كلّ مساء، عند منتصف اللّيل، كانت ليلي تلتحق بفابيان. ومن النافذة، حيث ترقب تواري الثّنائي في الظلمة، صارت مويزيت تعرف أين وكيف يواصلان لقاءاتهما.

منذ ليلتها بين الذراعين القويّتَيْن، صارت مويزيت تزداد اقترابًا من أختها، وتفهمها بشكلٍ أفضل، وتحسدها بقدرٍ أقلّ. في الواقع، لم يكن فابيان يعجبها حقًّا؛ فأثناء لقائهما، تذوّقت بالخصوص عنفَ ما داخلَها من أحاسيس. أمّا عن تفتّحها، فقد كان الأداة، وليس السّبب. استغلّته، لا غير. حتّى وإن احتفظت بذكرى جميلة عن جسده وملامساته، فإنّها لا تقيم له وزنًا نظرًا إلى ضيق تفكيره، ودعارة موقفه، ونذالته تجاه ليلي.

قدّرت مويزيت أنّ فابيان ارتكب خطأ: خان أختها عن عمد. هو لا يستحقّها. وعلى كلّ معترضٍ يرى أنّها هي أيضًا أساءت التّصرّف، يمكن أن تردّ بأنّها لا تحطّم علاقة الأزواج! كلاّ، هي لم تحرّض فابيان على الخيانة ما دامت قد تنكّرت في شخص ليلي. كان كلّ شيء سيعود إلى مجراه لو لم يلحّ في مضاجعتها بعد أن عرف حقيقتها؛ من هنا تبدأ الرّذيلة.

في بعض الأحيان، كانت مويزيت تبدو في غاية الانسجام مع أختها، امرأة مثلها هي الّتي عرفت جلد الرّجل، ورائحة الرّجل، وعضو الرّجل في بطنها، حتّى إنّها كانت تودّ أن تعترف لها بذلك. نعم، كانت تتوق إلى التعبير عن فرحتها، وتقاسم نشوتها. ولكنّ ذلك، للأسف، يستوجب الاعتراف بكيفيّة حدوثه. كانت تكتم أمرها، ولكنّها تكره أن تجبرها ليلي على الصّمت. «هي روت لي كلّ شيءٍ بالتفصيل، وأنا ينبغي أن أغلق فمي. يا للظلم!».

عندما بدأت ليلي تتذمّر من نهاية العطلة الّتي ستحرمها من فابيان، أعادتها مويزيت إلى الجادّة:

- أنتِ تمزحين يا ليلي؟ لا تقولي إنّك ستواصلين علاقتك الجنسيّة مع هذا الولد بعد الصيف؟

- أحبّه.

- وهو، هل يُحبّك؟

- أظنّ.

- هل قال لكِ ذلك؟

- نعم.

- متى؟

- في البداية؟

- في البداية، وما عاد الآن يقولها؟

- أوه... لا.

- في البداية، كي يُجامعك. ثمّ انتهى منذ ذلك الوقت. ألا ترين أنّ هذا أمرٌ غريب؟

- هو لا يحتاج إلى أن يقول، هو يُثبت لي.

- كيف؟

طرفت عينا ليلي واحمرّ خدّاها.

- أنتِ تعرفين جيّدًا...

ولّتها مويزيت وجهها... فعلاً، كانت تعرف غاية المعرفة.

اتّضح أنّ القطيعة عسيرة. كانت ليلي تتوسّل إلى فابيان كلّما قال لها إنّهما سيفترقان، وعندما ينصاع، تتجدّد حكايتهما فيساور ليلي ظنٌّ بأنّها انتصرت.

في 4 سبتمبر، ذهب إلى ليون ليبدأ سنته النّهائيّة في معهد إدوار هيريو. بالغت ليلي في البكاء حتّى قَبِلَ فابيان القدوم إلى «سان سورلان» كلّ يوم سبت. ورغم أنّه أوضح لها من جديد أنّ علاقتهما في حكم الماضي، فإنّ جسدَيْهما الغضَّيْن تَوَاثَبَا ومارسا الحبّ وأعادا.

كانت مويزيت ترعد. ونصحت ليلي بصدٍّ ولدٍ لم يعد يريدها. واعترفت في قرارة نفسها أنّ الخطر لن يزول إلاّ إذا هجرهما فابيان.

- اسمعيني يا ليلي. حكايتكما ملّت نهايات... أنتِ تتعذّبين! اهجريه نهائيًّا، دون خصامٍ، ولا تلتقيه بعد ذلك أبدًا. كان حُبّكِ الأوّل، ولكنّه كان حُبَّ صيفٍ.

- أكيدٌ أنّك محقّة، أقرّت ليلي بين نشيجَيْن.

ذات سبت من شهر أكتوبر، اختلقت ليلي عيد ميلاد صديقة

لتبرّر غيابها وتلتحق على متن الباص بفابيان في ليون. تفاجأ رغم أنّها أعلمته، وأحسّ أنّه متملّق، فجامعَها من جديدٍ في غرفة مراهقته، تحت صور لاعبي كرة القدم. بعد خدر اللّذة، توسّلت إليه أن يعود إلى «سان سورلان»، فجعل يصرخ:

- كفى! اغربي عن وجهي! ضاق صدري بالأختَيْن بربران!

وكأنّ ثعبانًا لَدَغَها، ردّت ليلي:

- الأختان بربران؟ يا لك من أخرق! أنا لستُ الأختين بربران، أنا ليلي.

- بجدّ؟ ليس في كلّ الأماسي...

- كيف؟

- كلتاكما فاسقة.

- عفوًا؟ ما فتئتَ تضايقني طوال أسابيع لكي أضاجعك، حتّى رضخت، فقضينا أوقاتًا ممتعةً؛ ثمّ تكافئني، بأن تجفوني وتصفني بالفاسقة.

- بالضّبط، فاسقة! وأختُكِ في مثل فسقك!

- أوه، دعكَ من أختي! مويزيت لا علاقة لها بك! وهذا أفضل... أن تخالط شخصًا مثلك، المسكينة، لا أتمنّى لها ذلك.

- هي لا تشاطركِ رأيك!

- هه؟

- أختك شديدة الغلمة.

- هذا لغو! أنتَ تُلمّح إلى أنّ أختي تُجامع أشخاصًا؟

- كلاّ، شخصٌ واحدٌ.

- شخص؟

- شخص!

- ومن هو؟

- ها، ها...

- «ها، ها»... يا لكَ من هزأة! كانت أعلَمتني بذلك، لو تدري.

- لا أظنّ.

- نحن نحكي لبعضنا بعضًا كلّ شيء.

- بحقّ؟

- أنا واثقةٌ.

- صحيح؟

- اسْحَبْ اتّهامك: أختي تقول لي كلّ شيء!

- هل قالت لكِ إنّها ضاجعتني؟

تلقّت ليلي الجملة مثل طعنةٍ في الصّدر. ظلّت مترنّحةً، مسلوبة العقل.

عندئذٍ، روى لها بقسوةٍ بالغةِ الدّقةِ كلّ ما حدث. نفرت في البداية، ثمّ خضعت في صمتٍ لانتهاء الحكاية.

كانت مويزيت محقّةً عندما قالت لفابيان إنّ ليلي سوف تقطع علاقتها به حالما يحدّثها عن تلك اللّيلة: بعد ذلك السّرد الدّقيق،

جمعت أشياءها، وغادرت الشقّة دون أن توجّه كلمة إلى فابيان، وركبت آخر باص إلى سان سورلان بوجهٍ متقبّض.

عندما عادت، صعدت إلى بيت الاستحمام، وازدردت ثلاثين قرصًا كانت في خزانة الأدوية، واتّجهت إلى غرفتها، وأغلقت على نفسها الباب، وتمدّدت مشيطة الشعر مكويّة الملابس على حشيّتها لتنتظر الموت.

من حسن الحظّ أنّ مويزيت سمعتها حين عادت، وتحيّرت لعدم ظهورها كي تُسرّ إليها كلّ شيء كعادتها. بعد ساعةٍ، نقرت بابها.

أزعجها غياب الردّ. ألحّت، وأدارت أكرة الباب، واصطدمت بصمود مصراعه، توسّلت، ولمّا لم يأتها ردٌّ صرخت. لم يكن أيّ شيء يتحرّك في غرفة ليلي.

على عجلٍ، نزلت مويزيت تُعلم والدها. خلع الباب، ووجد ليلي فاقدة الوعي، فاستنجد برجال المطافئ[1].

نجت ليلي بفضل الفريق الطّبيّ.

رغم أنّ أبويها عزَوَا فِعْلَتَها إلى خيبةٍ عاطفيّةٍ، فإنّ مويزيت كانت تُقدّر أنّه أسى أخطر: لقد انضاف خداع مويزيت إلى لامبالاة فابيان.

حقدت على نفسها كثيرًا.

لكنّ ذلك لم يَطُلْ، لأنّ إدانة ذاتِها بذاتِها لا تُناسبها. ولمّا كانت

---

(1) رجال المطافئ في فرنسا لا يقتصر دورهم على إطفاء الحرائق وحماية الغابات، بل هم يتدخّلون في حوادث المرور ومواجهة التّلوّث والمخاطر الصّناعيّة، مثلما يتدخّلون لإسعاف الحالات الفرديّة المستعجلة.

غير مستعدّةٍ للنّدم، ولا تحتمل أن تكون عدوّة نفسها، فقد اندفعت في محفّات الذنب، تبحثُ لنفسها عن ظروف تخفيفٍ، وتحسبها، فتحمّل الذّنبَ أمّها وأباها وجدّتها وفابيان، ولكي تفرغ ضيقها في النّهاية، حقدت على ضحيّتها، إذ عادت ليلي تستأثرُ بالاهتمام، وتحتلّ مركز العالم. كانت مويزيت، رغم خزيها، تلعنُ أختَها.

عرض عليها أبواها نقلها إلى المستشفى.

- كلاّ! صرخت.

وأمام ذهولهما، شعرت بضرورة تبرير موقفها:

- ما زلتُ أجسُّ نبضي. هذا يؤلمني كثيرًا.

خضعا لذلك. ومن الغد، حاولا من جديدٍ، فنهرتهما بالطريقة نفسها مع إضافة بعض الدّموع، في اليوم الّذي تَلاَ يوم الغضب؛ وأخيرًا هدّدت بقطع أوردتها إن ألحّا.

بعد أسبوع، اشترطت حضور أختها.

لم يعد لمويزيت أعذار، دخلت غرفة المستشفى مطأطأة الرأس، ملتهبة الخدَّين، أوهن من سجينٍ يُقاد إلى التّعذيب. كانت الجدران الّتي في لون قشور البيض تخلق جوًّا غريبًا، كأنّ الشّمس الّتي أنارت في ما مضى جوانبها انطفأت. وكانت ليلي في ثوبٍ شفّافٍ ترتاح على سريرٍ ذي كرومات[1] ثخينةٍ ولامعةٍ ومثيرة.

تطلّعت إلى أختها وهي تقترب.

---

(1) Chrome: جسم معدني لا يصدأ يستعمل في طلي المعادن لصيانتها.

تسمّرت مويزيت عندما تقاطعت نظراتهما. حبست نفَسَها مذهولةً.

- تعرفين أنّي أعرف؟ قالت ليلي بصوتٍ رخو.

نكست مويزيت رأسها علامةً على الموافقة، فتنهّدت ليلي.

- حدّثتك نفسكِ بذلك. لأجل هذا لم تأتي؟ تحسّين بالخجل؟

انسابت الدّموع على خدّي مويزيت.

أخرجت ليلي يدًا من تحت اللّحف وأمسكَت مِعْصَمَ أختها.

- أغفرُ لكِ ذَنْبَك.

لاحظت مويزيت طلاوة نبرة الجملة -برد جلدُها بينما كان جلدُ ليلي ينشرُ الدّفء- ولكنّها لم تفهمها في الحال.

ألحّت ليلي:

- أنتِ أختي، أغفرُ لكِ ذَنْبَك.

رفعت مويزيت رأسَها، كمحكومٍ عليه بالموت لا يصدّق أنّ جلاّده رمى بفأسه بعيدًا.

ابتسمت ليلي بجهدٍ وبطء.

- لن يفرّقنا ولد. لسنا نحن...

وسّعت مويزيت أجفانَها، فأردفت ليلي مؤكّدةً:

- إلاّ ذاك على وجه الخصوص!

انفجرت الأختان ضحكًا، ضحكًا حلقيًّا، أليمًا، تمزّقًا صوتيًّا يطردُ الجزع، والخيبة، والذّعر، والوحدة. ارتمت مويزيت على صدر

أختها وبكت بغير انقطاع.

كانت ليلي تحبّ أختَها. تحبّها كما هي، بعيوبها، وغيرتها، ورغبتها الّتي تتغيّر في الاستحواذ على ما تملك هي، تلك الرّغبة الّتي تفتح على الغدر والسّرقة والجريمة. وبما أنّ مويزيت تتألّم أكثر منها، فقد كانت تتوقّع أنّها ستتصرّف دومًا تصرّفًا سيّئًا. وما عادت تأمَل في تغييرها، وهي في الثّامنة عشرة، بل كانت تنوي الصّفح عنها وحمايتها.

عندما عادت إلى البيت، تعافت في وقتٍ وجيزٍ، كأنّ ذلك الانتحار غير المحسوب مكّنها من التّفكير. كانت تحلّل الوضع بفطنةٍ، بعد أن تخلّصت من ضباب العاطفة: لم تغفر لفابيان لأنّها في الحقيقة لم تُحبَّه قطّ؛ وتغفر لمويزيت لأنّها تحبّها. أقسمت في قرارة نفسها أنّها لن تخلط بين الرّغبة والعاطفة الحقّ. إنّه درسٌ تستخلصه لوجودها كلّه... بدا لها أنّها أدركت الحقيقة عن طريق الخطإ، والحكمة عن طريق الجنون.

- مويزيتي المسكينة...

فكّرت ليلي مليًّا وشكّت في أن يساهم حضورها في تحسين طبع مويزيت، فقد كانت أختها، وهي مرغَمة على مواجهة دائمة لا تسمح لها بالبروز، تعبرُ أطوار الحياة المعتادة بصعوبةٍ أكبر. من دون ليلي، لن تترنّح تحت نيران النّقد، سوف تنتهج طريقًا أقلّ وعورةً.

زعزع هذا التّخمين ليلي. استعادت ذهنيًّا حكايتهما وقدّرت أنّها مسؤولة عن انحرافات أختها. بل مذنبة! «لا أحد شرّيرٌ باختياره»، رنّت في ذهنها هذه الحكمة السّقراطيّة الّتي امتحنَها فيها أستاذ الفلسفة: لم تكن مويزيت شرّيرةً لا بالطّبع ولا بالنّيّة، لم تكن كذلك

إلاّ بسبب ليلي.

وإذْ قدّرت ليلي أنّها مخطئة، صارت تحبو أختها عطفًا كبيرًا طيلة أشهر، حتّى اطمأنّت مويزيت وبدأت تنسى فِعلَتها وتعاودُ احترام نفسها من جديد.

في يونيو، نجحتا في امتحان البكالوريا - بملاحظة حسن لليلي، وتدارُك لمويزيت. أعلن الامتحان نهاية الطّفولة. سوف تندمجان في المجتمع، وتحفران فيه مكانًا. صرّحت مويزيت بأنّها تسعى إلى العمل نادلةً في «خان بريس»، غير بعيدٍ عن القرية، في طريق ترويت. بعد صمتٍ دام شهرًا، أعلمت ليلي والديها أنّها تطمح إلى دراسة الحقوق في ليون.

أربكَهُما الخبر: وحتّى تلك اللّحظة، لم تَعرض ليلي أيّ مشروعٍ مستقبليّ واتّخذت الأختان الوجهةَ نفسها.

ثمّ وافقَ الأبوان ووعدا بدعمهما الماليّ. لم تستقبل مويزيت الخبر ببشاشةٍ: كانت فكرة ابتعاد ليلي تُصيبها بالجزع. صارت كئيبةً، ذات مزاجٍ مكدَّر، وعافت الأكل عدّة أيّام.

- أنتِ حزينةٌ يا مويزيت؟

- ليلي ستذهب يا أمّي.

- عزيزتي المسكينة...

- أحبُّ أختي، قالت مويزيت متنهّدةً.

كانت مويزيت بطبيعة الحال تسمّي حبًّا ذلك المراس الطّويل مع أختها، تجاورهما الجسدي، قرابتهما الحيوانيّة؛ كانت تسمّي حبًّا استنادها

إلى أختها على الدّوام؛ تسمّي حبًّا راحتها أمام الكائن الّذي لا ينتقد تصرّفها أبدًا؛ تسمّي حبًّا حسدَها، طمعَها، حقدَها، رغباتَ انتقامها، سَورات عدوانيّتها؛ تسمّي حبًّا كرهها الثّابت لأختها الكبرى.

تحت مظهر الإحباط، انكفأت على نفسها. ها إنّ ليلي تفوز، مرّةً أخرى، بالنّجوميّة: سوف يَقلق أهلها لأجلها، يُنفقون المال لأجلِها، يطلقون صيحات الإعجاب لأجلِها. كانت مويزيت تستبقُ سَيْرَ الأعوام: سوف تنتقلُ من جديدٍ إلى الظلّ، محجوبةً بدراساتِ أختها العليا، وتعود كما كانت، أي تلك الّتي لا نتحدّثُ عنها، «الأخرى».

أمّا ليلي، فقد أخذت قرارَها ذاكَ لأجلِها هي ولأجلِ مويزيت أيضًا، يقينًا منها بأنّ انسحابَها سوف يحرّرُ أختها، لتواجهَ مصيرها في حِلٍّ من المقارنات.

تناءت البنتان وانتابتهما من ذلك راحة.

كانت ليلي تتعلّم كيف تُدبّر أمورها في مدينةٍ كبرى، ليون، تلك المدينة المزدوجة، وإن كانت معتدلةً، حيث هضبتان هما «لافورفيير» و«لاكروا روس» انحطّتا في جدولَي ماء. كانت في عزلةِ أوّل حُلُولها، وسرعان ما أحاط بها الطّلاّب والطّالبات الّذين تعلّقوا بشخصيّتها المنشرحة. شبّانٌ كُثر حاولوا مغازلتَها؛ غير أنّها، وهي الّتي تعلّمت من خيباتها مع فابيان، ولا ترغب إلاّ في تركيز طاقتها على دراسة القانون، كانت تجعلُ مسافةً بينها وبينهم في انتظار الجيّد.

في خان بريس، كانت مويزيت مبتهجةً بعملِها نادلة، وهي مهمّةٌ براغماتيّةٌ مناسبة تُنجزها بنجاح. بخلاف أختها، كانت أكثر حريّةً في

أوقاتها وأكثر رغبةً في التّعرّف إلى الرّجال، فكانت تُعدّدُ المغامرات العاطفيّة. ومثلما كانت في المطبخ تذوق الأطعمة الّتي ستقدّمها في القاعة، كانت تجرّبُ الذّكور خارج أوقات عملها. في خفيةٍ ونجاعةٍ، كانت هي الّتي تقود اللّعبة، فتحدّدُ البداية والنّهاية، وتُسيطر على مشاعرها المفقودة، رغبةً في التّعرّف إلى جنس الذّكور والإحاطة به بشكلٍ أفضل.

عندما تلتقي الأختان، كانت موزيت هي الّتي تفيض بالحكايات، وهو ما يُسعد ليلي ويُقيم لها الدّليل على أنّها كانت محقّةً في الذّهاب. كانت أختها تُرسّخ قدراتها.

ولكنّ ليلي كانت في قرارة نفسها تأسفُ على مغادرة «سان سورلان»، قريتها المزهرة المأهولة فقط بوجوهٍ أليفة، وأنهجها الضّيّقة المبلّطة الّتي قطعتَها ألف مرّة، وضيقها الواقي. في شقّتها الصّغيرة المحصورة بأعلى أحد الأبراج، حيث يتهدّدها الدّوار، تفكّر في والدَيْها، فينتابُها حنين الأسل إلى ضفاف الرون -لم يَعُد النّهر في ليون يلعقُ غير أرصفةٍ حجريّة-، وقططٍ ناعسةٍ على الجدران، وكلابٍ محبوبةٍ طليقةٍ، وطيورٍ قَرْقَف تزقزقُ كبوّاباتِ المباني، وطيور سنونو تهبط معلنةً عن عاصفة، وحلزونٍ رفيقٍ يغزو الأسوجة غبّ المطر، وأحمرةٍ ذات عيون وانيةٍ، وأبقارٍ تحيّي العابرين بخوار. في الواقع، لم تكن تتحمّس كثيرًا إلى دروس الحقوق، كانت تقودُ دروسَها عن وعي في طريقٍ انتهجته ذاتَ ليلة صيف لتتركَ المكان لأختها، وتواظب انسجامًا أكثر منه ميلاً.

في يومٍ كئيب، باحت بغمّها دون حَذَرٍ لصديقةٍ أعادت الحديث من الغد لمويزيت. نسيَتْ الأختُ الصّغرى الهدنةَ وهاجت وماجت. ماذا؟ أختُها تتقمّص دَوْرَ الشّهيدة؟ أختُها تزعمُ أنّها تضحّي بنفسها؟ المُنافقة! تحتكرُ مال الأبوين لأجلِ دراستها، وترتقي في المجتمع بفضل شهاداتها، وتُخالط المثقّفين، ثمّ ينبغي أن نُشفق عليها؟ غير معقول، مثل هذه الصّفاقة... هي، مويزيت، لا تكلّف أحدًا شيئًا! إن كانت تقيمُ مع والدَيْها فإنّها تُساهم في مصاريف البيت، وتشاركُ في الأعمال الجماعيّة. أمّا ليلي فكانت تعودُ -هذا إنْ عادت!- من ليون متعبةً، مثل أميرة، ويحرصُ من في البيت على راحتها. هل نتعبُ بهذه السّرعة حين نكون في العشرين؟ هل تهدُّ قراءة الكتب البدَن؟ هل يُجهد الاستماع إلى أستاذ؟ لو كانت تحرّك ردفيها، تلك الليلي، قد نتفهّم تعبَها لو كانت تجري في الخان من طرفٍ إلى آخر وفي يديها أطباقٌ ساخنة، أي نعم. كنّا نتعاطفُ معها لو كانت تُواجه زبائن يُزمجرون لأنّهم طلبوا تحديدًا «تروتة مشويّة» وليست «مقليّة في الطّحين»، أو أنّ عمّتهم زُوِي لا تُعدّ «الجزيرة العائمة» هكذا. ولكن هنا! دون مشاغل ماديّةٍ، وهي تُقيم في شقّةٍ صغيرةٍ منيفةٍ على «لا بار ديو»[1]!

وعاودت مويزيت وساوسها القديمة. لم تكفِ ثلاث سنوات هدنة لتغييرها، كانت ترغي وتزبد! عندما رأت أختها من جديد، لم تُبدِ شيئًا من ذلك، ولكنّها لاحظت، من خلال بعض الأسئلة الماهرة

(1) La Part-Dieu: أعلى برج في ليون، يضمّ مركزًا تجاريًّا من أكبر المراكز التّجاريّة في أوروبا ومحطّة أرتال.

الملقاة بنبرةٍ عابرة، مدى صدق الصّديقة في قولها: لم يكن يروقُ ليلي أن تعيش بعيدًا عن أهلها وعن «سان سورلان».

أكثر من الشّفقة، داخلَتها من ذلك ضغينة. كانت ليلي ترغم نفسها حبًّا وذاك ما كان يثيرُ سخط مويزيت. لو كانت هي لما فعلت هذا! أو فرضت على نفسها شيئًا منه! لماذا؟

فكّرت مويزيت في الموضوع أشهرًا، حتّى أيقنت أنّها لا يمكن أن تضحّي بنفسها لأنّها لا تحسّ بأيّ تعلّق. ما من عاطفةٍ تحثّها على إيثار أختها على نفسها. بالعكس. فما صدمَها هو اكتشافُ أنّ ليلي تُحبّها، وهي لا تحبُّ أختَها.

- فاجرة!

استعادت تلقائيًّا الكلمة الّتي استعملتها سابقًا، في ليلة من ليالي أغسطس حين فرّت ليلي على درّاجة فابيان جربيي النّاريّة.

- فاجرة!

أليس احتكار الحبّ ذاك طريقةً جديدةً ترتقي بها ليلي إلى الصّفّ الأوّل، صفّ الأختِ الوفيّة، التوأم التّامّة، الخالية من العيوب، المتفوّقة؟

كان ذلك الحبّ يُنزل مويزيت الّتي لا تقاسمُ أختَها إيّاه منزلةً دُنيا. يُدنّسها، يَجعلها بائسةً، مزريةً، يرثى لها. يحطّها ككلٍّ ما يأتي دومًا من أختها الكبرى. كانت تمقتُ ذلك الحبّ.

بدأت ليلي تعدّ شهادة الأستاذيّة في الحقوق وهي لا تعرف الأفكار الّتي كانت تهزّ أختها الصّغرى، ووقعت في هوَى بول دوني،

طالبٌ لامعٌ ومُعْدَم، كان ينظر إليها بنظّاراته المرقّعة كأنّها نجمٌ لا يُدرك، رغم أنّ طوله مِتران.

دقّ قُدوم هذا الشّابّ الهزيل ناقوس الخطر لدى مويزيت: كان لا بدّ من التّحرّك لِكَيْ لا تفوتها أختها.

بحثت في جموع العشّاق القدامى، والعشّاق الرّاهنين والعشّاق المقبلين عمّن يُضفي عليها قيمةً أكبر في حال الزّواج. فأفرزَ البحث فائزًا، هو المرشّح كزافيي فوري، ابن البرجوازيّين الكبار فوري الّذين يملكون حصصًا في متاجر السوبر ماركت بالجهة، ما يعني أنّه وريث ثروةٍ.

ولّما كانت مويزيت حاذقةً، متمرّسةً بالرّجال، فقد عرفت كيف تحمل كزافيي فوري على التّعلّق بها، إذ حمّته، وسلقَته، وزجرته، وأثارته من جديد، واستطاعت أن تنتزع منه طلبًا في الزّواج.

في مساء الأحد ذاك، رُفعت أقداح الشمبانيا في بيت آل بربران. كانت ليلي قد أتمّت دراسة الحقوق، ومويزيت قد وضعت حدًّا للعمل في المطعم، لأنّها ستزفُّ إلى ابن إحدى الأسر. يا له من نجاحٍ باهرٍ!

ضحكوا وشربوا، وأعادوا الضّحك والشّرب. وفي خضمّ تلك النّشوة، قالت ليلي لوالديها في خجلٍ إنّها تُريد هي أيضًا الزّواج من فتى أحلامها، بول دوني.

– ماذا يفعَل؟ هتفَ الوالدان.

– يدرسُ الحقوق.

التهبت عينا مويزيت وهي تستطعمُ ذلك المشهد الّذي توقّعته.

- وأبواه؟

- ماتا.

- نعم؟

- حادث طائرة.

- هَلْ لهُ أهل؟

- لا.

- لا؟

- لا.

- ثمّة أناسٌ مناكيد بحقّ! استخلصت الأمّ في نبرةٍ متقبّضةٍ، كأنّ اليتيمَ قَتَلَ ذويه.

ركلَها الأبُ برجلِه كَيْ يُقاطعها، ولكنّه كان مذهولاً هو أيضًا، وقضى ثلاثين ثانيةً قَبْلَ أنْ يستأنفَ النّقاش بسحنةٍ باردةٍ:

- من ينفقُ على دراسته؟

- لا أحد. تلقّى منحةً.

- آه...

- ويعملُ حارسًا لَيْلِيًّا في مأوى سيّارات كي يسدّدَ إيجارَ غرفته.

وبينما كان صوتُ ليلي يَتَلاشَى، كانت مويزيت تهلّلُ في سرّها.

تنحنحت الأمّ واستطاعت أن تُتمتم:

- له جدارة...

فتحت مويزيت قنّينة شمبانيا أخرى في تحمّسٍ، وتوجّهت باسمةً إلى الحاضرين[1]:

- نزرًا آخر من الخمر الفوّارة؟ عندما أقول خمرًا فوّارة... فهي في الواقع دوم- بيرينيون! فليذهب البُخل إلى الجحيم! يمكن أن نفرط في شربه، فكزافيي سلّمني صندوقًا باثنتي عشرة قارورة! من يريد؟

غطّى صوت الفقاقيع على الصّمت الذّاهل للأبوين اللّذين لا يستطيعان الاعتراض على ليلي بشكلٍ مباشرٍ.

- ماذا عنده من شهادات؟

- أتمّ سنته الرّابعة، مثلي. ولكنّه سيمضي أبعد كثيرًا، إنّه لامعٌ جدًّا.

- طيلة كم سنة؟

- ثلاث سنوات. أربع... أوه، بابا، ماما، نحن نحبُّ بعضنا بعضًا.

كزّ الزّوجان بربران أسنانهما. وكانت مويزيت تستمتعُ بِبَلْبَلَتِهما إذْ تسمعهما يفكّران: «ماذا! مويزيت تجيئنا بخيرِ خاطبٍ، بينما ابنتنا ليلي، الّتي أنفقنا عليها كثيرًا، تقع في هوى يتيمٍ يعيشُ على منحةٍ ومُسْتقبلهُ غير مضمون... لو استطعنا أن نحدس ذلك...».

تركتهما مويزيت يتخبّطان في الانزعاج ثمّ قالت في حبورٍ:

---

(1) استعمل الكاتب la cantonade وتُقال حين يتكلّم أحدهم -في المسرح بخاصّة- وكأنّه لا يخاطب شخصًا بعينه.

- ما رأيكم لو نتزوّج في اليوم نفسه؟

- عفوًا؟

- ماذا؟

رمقها الوالدان دون أن يفهما وهما يصمّان آذانهما.

- أقترحُ أن نتزوّج أنا وليلي خطيبَيْنا في اليوم نفسه.

نظرت ليلي إلى أختها محرجةً، فارتمت عليها مويزيت تحضنُها بين ذراعيها.

- سوف يسرّني ذلك كثيرًا يا ليلي. هل تتصوّرين؟ وُلِدْنا في اليوم نفسه، ونتزوّج في اليوم نفسه! رائع، أليس كذلك؟

انفجرت ليلي باكيةً، معترفةً بالجميل: كانت مويزيت تُساعدها في فَرْضِ بول على أبوَيْها الممتَنِعَيْن، كانت مويزيت تُصارع لأجلِها.

- أرجوكِ يا ليلي، ليكن زواجُنا مشتركًا!

- أوه، سوف يُسعدني ذلك...

انشغل الأبوان بمشهد التوأم المؤثّر فهزّا أكتافهما، وكتما شروطهما، واستسلما للطّاعة في تذمّر.

مثّل الزّواج المضاعف حدثًا مشهودًا أرضى تمامًا قسوة مويزيت.

بدا الفارق بين الأزواج جليًّا في عيون كلّ فرد: خمسمائة مدعوّ لمويزيت وكزافيي فوري، وثلاثون لليلي وبول دوني. هدايا باذخة -أوانٍ من الفضّة والكريستال والخزَف، أثاثٌ من طرازٍ قديم- للأوّلَيْن، وقد دلّلهما كلّ رجال الصّناعة الّذين يتعاملون مع آل

فوري؛ كتبٌ وأسطواناتٌ مهداةٌ للأخيرَيْن من زملائهما. وإذا كانت العروسان ترتديان فستانَيْن بالقدر نفسه من البَذَخ -اشتراهما الأبوان بربران- فإنّ مويزيت كانت تَرشحُ بالمجوهرات وقد أحاطت نفسَها بوصيفاتٍ ممتلئاتٍ مفرطاتِ الحليّ والزّينة.

«لنتزوّج معًا!» توسّلت مويزيت.

كانت في الواقع تُحاول أن تضع الزّيجتَين في مستوى متماثل، إذ أعارت أختها الليموزينة، وشكرَت على رؤوس الملإ آل فوري على تأجير هذا القصر لهم هم الأربعة، مدرجةً أختها الكبرى في كلّ المناسبات الفاخرة. كانت مويزيت تتصرّف بسخاءٍ دون أيّ جهدٍ. ولكنّ كرَمَها كان في الواقع يُشبع صَغارها: فكلّما زادت في اقتسام يُسرها مع ليلي، انتشت بتفوّقها. ولما أشبعَت رغبتَها، انفجرت باكيةً بصدقٍ، في المساء، أمام جوقةٍ ضخمةٍ من موسيقيّين حقيقيّين كانوا يُحيون الحفل، رغم أنّها ارتمت مباشرةً في حضن كزافيي، لكي تدلّ الضيوف إلى الّذي موّل تلك العلاوة الباهظة.

لم يُفسد ذلك نهار ليلي لأنّها لم تكن تشكّ كثيرًا في مَكْرِ أختها. كانت تشرقُ فرحًا في ذراع بول، وقد بدا أكبر من الفراك[1] الّذي استأجره، بول الّذي لم يسترعِ الانتباه سوى بقامته الفارعة. سافرت مويزيت من الغد في رحلة قَنْصٍ إلى جنوب إفريقيا، فيما اكتفى بول وليلي بالبقاء في «سان سورلان»، في بيت الطفولة، ولعب الورق مع الأهل، والتّجوّل يدًا بيدٍ على ضفاف الرون، وتذوّق تورتة بالسّكّر

(1) Frac: لباس احتفال أسود له سترة مذيّلة.

على أسوار بيروج، تلك المدينة القروسطيّة البديعة الّتي عَبَرَت القرون بأعجوبةٍ.

ما تَلاَ ذلك أكّد صحّة الخطّة الّتي وضعتها مويزيت. بدأ الأزواج حياتهم الزّوجيّة، أقام بول وليلي في شقّةٍ صغيرةٍ جدًّا ببرون، لكي يُتمّ بول دراسته، بينما تولّت ليلي منصبَ امرأةِ قانونٍ مبتدئة؛ وأقامت مويزيت وكزافيي في أحد ممتلكات فوري بمونتاليو، قصرٍ ريفيٍّ صغيرٍ من الحجر الرّماديّ والآجرّ الورديّ بناهُ في القرن التّاسع عشر قطبٌ من أقطاب المال كان مولعًا بفرساي.

انتصرَت مويزيت. كانت فخورةً بنجاحها، لا تتوانى عن استعراض امتيازاتها والإسهاب في الحديث عن الحفلات الّتي تُدعى إليها. باختصارٍ، كانت تُؤدي دورَها كَثَرِيَّةٍ جديدةٍ بوعي نهم. وغالبًا ما كانت في هذا السّهم الّذي يستهدف أختها تضيفُ سهمًا آخر، سهم الشّفقة:

- حدّثيني، الحياة في برون؟ أليست بالغة الصّعوبة؟

كانت تتلذّذ بتحرّج ليلي وتستقصي بلا انقطاعٍ المصاعب الّتي تواجهُ الزّوجَيْن.

- هل تعتقدين أنّ بول سينهي دراساته الجامعيّة عمّا قريب؟

تتنهّدُ بصوتٍ مسموع.

- فظيعٌ أن يدرسَ المرء كثيرًا ويحظى بعيشٍ قليل. لا، حقًّا، أنا أكرّر هذا لكزافيي: أنتما تستحقّان كلّ تقدير.

كانت ليلي تحدس أنّ مويزيت تجد لذّةً في الإشفاق، ثمّ تلومُ

نفسَها على هذا الظّنّ وتجيبُ أختَها بلطفٍ وهي مرتبكة.

جَرَت الأعوام.

كانت مويزيت تحبّ كلّ شيء من زواجها، ما عدا زوجها.

صحيح أنّها لم تغذّ مطلقًا أوهامًا بخصوص كزافيي، لأنّها اختارته كما نختار سيّارة، بدمٍ باردٍ وتمييز؛ كانت تَعلمُ ضعفَ طبعه، وتُدركُ منذ البداية أنّه ليس أكْثَرَ مِنْ بنيةٍ جسديّةٍ رديئةٍ تتهدّدها السّمنة، ولم تتفاجأ مفاجأةً مكدّرة بجَرْدِ عيوبٍ إضافيّة؛ وما دامت لم تخطئ في شأن عائلته ولا ثروته، لم يساورها أيّ ندم. بَيْدَ أنّها كانت تشعرُ بالملل، لا من الحياة الّتي يحييانها، بل من وجوب عيشها معه. كانت تجرّ كرةً حديديّةً مشدودةً إلى قدمها. لمَ لا يتغيّب.

غالبًا ما كانت تُؤنّبُ نفسَها: «اهدئي يا مويزيت! قد يُلازمك رجلٌ آخر بالقدر نفسه، ولكنّه سيدلّلكِ بقدرٍ أقلّ». في نهاية الأمر، تُصدّق على قرارها السّابق وتقولُ لنفسِها بتكرارٍ مملٍّ إنّه ما من مهمّةٍ إلاّ وفيها دومًا نصيبٌ ممّا يروقُ وممّا لا يروق، وإنّ الجهد يُرافق البهجة. زواجها كان يُغدق عليها مُتَعًا - المال، المكانة الاجتماعيّة - ويكلّفها عملاً - المسألة الحميمة - فبعيدًا عن الأنظار، تقومُ بواجباتها الزّوجيّة مثل عاملٍ مرغمٍ. «أوف، لا أحدَ يَعلمُ أنّي أغصب نفسي!» المغازلاتُ مع زوجها ترهقها بشكلٍ يجعلها لا تحلمُ حتّى بالخيانة. عندما يُداعبها، تخفي تمنّعها، وتَلينُ له، فتبتسمُ، تخجلُ، وتتظاهرُ، وتتأوّه. تؤدّي بمهارةٍ الحركات المناسبة لكي ينتعظَ بسرعةٍ ويحسب نفسه بطلاً. عندما تتخلّص من المسألة، وهي مسرورة بالاستراحة،

لا يساروها أبدًا أن تعيد الكرّة، لا معه ولا مع غيره. كان الحرمان الجنسيّ يجعلها وفيّةً تمامًا.

بلغت الأختان عامهما الثلاثين ولم تُنجب أيٌّ منهما.

كانت ليلي قد ألغت تلك الإمكانيّة طالما لم يُنْهِ بول دراسته. بَيْدَ أنّ بول ترقّى بين خبراء الضّرائب العالميّين المطلوبين، وكانت العقود تتهاطل، هامّةً، مجزيةً، وكان الاثنان يتلقّيان مكاسب السّنوات المحفوفة بالمخاطر، ونابت السّعةُ عن الضيق. في شقّةٍ فسيحةٍ بشبه جزيرة ليون، كانا يعملان كثيرًا، ولكنّهما كانا يسمحان لِنَفسيْهما بالأسفار الّتي تخلّيا عنها سابقًا، ويلتقيان في المساء لقاء حبيبَيْن في المطاعم الفاخرة، ويذهبان في أيّام السّبت والأحد للتّزحلق في الجبل أو السّباحة في المتوسّط.

أخيرًا صارت اللّحظة مواتية: توقّفت ليلي عن تناول حبوب منع الحمل.

امتنعت مويزيت أيضًا دون تشاورٍ، وقد أحسّت أنّها ستدعمُ زواجها بأطفال.

وعندما باحت كلّ أختٍ لأختها بذلك، ضحكتا، وأعادتا تواطؤ الأعوام الأولى، وظلّتا تتبادلان الأخبار عمّا يحدثُ في بطنَيْهما.

ولكنّ محاولاتهما باءت بالفشل للأسف. إذ أكّدت لهما صديقات أنّ الرّحم، تتراخى في العودة إلى خصوبتها، بعد عدّة أعوامٍ من منع الحمل، فصبرتا.

ومن عجب أنّ تقاربهما حصل أيضًا على المستوى الاجتماعيّ.

فبقدر ما كانت ليلي وبول يزدهران، كانت مويزيت وكزافيي يفتقران. خسائر في البورصة، عمليّات بيعٍ غير موفّقة، صفقاتٌ وُوجِهت بعقوباتٍ جعلَت ثورة عائلة فوري تتآكل، ما اضطرّها إلى تخفيض المبالغ الّتي كانت ترصدها لأطفالها الخمسة. وبدل أن يخفّف كزافيي من نسق حياته، أمعن في التّبذير بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر، ما أرغمه على الاقتراض. بلغ دَيْنه درجةً جعلته يُقتّر في الهدايا، والفساتين وفُسح التّرويح الّتي كان يُقدّمها لمويزيت، فساءها ذلك لأنّ البحبوحة كانت أساس التّعلّق الّذي تُوليه لزوجها.

ذات صباحٍ أعلنت ليلي لبول ظافرةً أنّها حبلى. بعد ساعةٍ، أعلمت مويزيت، فتظاهرَت أختها بالغبطة، ولكنّها أحسّت بالغبن. ها إنّ من تكبرُها بثلاثين دقيقة تتفوّق عليها! وعادت الدّورة الجهنّميّة لتنطلقَ من جديد.

ورغم فَوْرَتها، انتابها ارتياح: إذا كانت أختها التّوأم قادرةً على الحمل، فهي أيضًا كذلك! فيزيولوجيًّا، ليس المشكل مرهونًا بها، بل بكزافيي.

بَعْدَ أسبوع، خانت زوجها مع أحد العمّال، السّائق، مثلها في الثّلاثين، راضٍ عن نفسه مثلها، متزوّج مثلها - لا مجال للتّعلّق: تظلّ الخيانة الزّوجيّة نزيهةً، جنسيّةً محضًا، دونما عاطفة! هل ترتكبُ خطأً؟ كلاّ، كانت تقومُ بواجبها: تزويد عائلة فوري بذرّيّة. أمعنَت في إقناع نفسها حتّى إنّ نوعًا من الحرج انتابَها وهي ترتجف من فرط اللّذة بين ذراعَي عشيقها الخشنَتَيْن المفتولتَيْن.

في نهاية الشّهر الثّالث، فقدت ليلي جنينَها. كان الخبر في صالح مويزيت: ستسبقُ أختها. دعت السّائق إلى أن يكون أكثر همّةً وأسلمَت نفسها بين الحين والحين إلى كزافيي. «أوّلاً، ينبغي أن يعتقدَ أنّ الطّفل طفله. ثانيًا ربّما يكون منه...» وكلّما تقدّمت ازدادت قناعةً بأنّها تتصرّفُ بصواب.

بعد أن شُفيت ليلي من مصابها، بمؤازرةٍ جيّدةٍ من بول، عرضَت نفسها على طبيبٍ مختصّ. فحَصَ البروفيسور نوربوا الزّوجَيْن، وأجرى اختبارات كشفٍ، وأكّد النّتائج، ثمّ أعلمَهما أنّهما لا يُمكن أن يُنجبا إذ تبيّن أنّ ليلي غير قادرةٍ على المضي بالحمل حتّى نهايته.

حزن بول وليلي حزنًا شديدًا، وهما اللّذان ابتسمَت لهما الدنيا حتّى تلك اللّحظة، ثمّ قرّب الحزنُ بينهما. مثل اللّبلاب الّذي يضمّ تريستان وإيزوت في قبرهما حتّى الأزل، كان عُقمهما يربطهما، كعلامةٍ عن قدَرهما، والتزامٍ بعدم الافتراق أبدًا. كانت الطّبيعة، بحكمتِها، قد مكّنتهما من أن يلتقيا ويتحابّا.

ولكن كان ثمّة خاطرٌ يستبدّ بليلي: إخبار أختها. الاستحالة نفسها تُحزن أختها. كانت تخشى لحظة البوح تلك، وهي تعلمُ الأسى الّذي تُسلّطه، وودّت لو تُجنّبه أختَها.

تأنّت بضعة أشهر ثمّ ذهبت إلى مويزيت.

كانت أختها موتورةً، طردت سائقها لأنّه لم يكن أخصب من كزافيي ولأنّه ربط علاقةً غراميّةً مع دلاّكتها الطبيّة، امرأةٌ أربعينيّةٌ متزوّجة تُربّي أربعة أطفال. أخفت تلك التّقلّبات عن ليلي وجلست لتناول الشّاي.

- شاي أبيض، تعرفينه؟ كزافيي يَطلبه من طوكيو. إنّه أكثر الأسعار الباهظة شططًا. القشّة بسعر الكافيار. ذوقي، سوف تعشقينه.

لم يَبْقَ لها سوى هذا النّوع من التّفاصيل لتظهر تفوّقها على ليلي، فكانت تتمسّك بتلك التّفاهات كما يتمسّك الغريقُ بعارضة.

- مويزيت، كنتُ أودّ ألاّ أقولَ لكِ بتاتًا ما سأقول.

من صوتها المختلج ومنخريها اللّذين قبَضهما التّوتّر، وزرقة شفتيها، أدركت مويزيت أنّ أختها تُكابد محنةً شديدة. جلست مصغيةً وهي تتمنّى أن تُعلن ليلي مصابًا يثير البهجة. بول يهجرها؟ بول لديه عشيقة؟ فضيحةٌ تحكمُ على مكتَبه بالإفلاس؟ كانت تتحلّبُ مسبّقًا...

- نعم؟

بحثَت ليلي حولها عمّا يُشجّعها، ولم تجد شيئًا، فانحنت إلى الأمام.

- أنا عاقر.

ما لبثت مويزيت، وهي أمام الأخت المرآة، أن أدركت خطورة كلماتها. بَيْدَ أنّها، ولِكَيْ تَمْنَحَ نفسَها هوادةً ببضع ثوانٍ، عمَدَت إلى الإنكار وتظاهرت بعدم الفهم:

- أنتِ...؟

- أنا عاقر.

- آه...

- أجرَيْتُ كلّ الفحوص.

- أوه...

- إذن...

- إذن؟

- إذن، أنتِ أيضًا، عزيزتي مويزيت.

ها قَدْ نَزَلَ الحكم. لا بدّ لمويزيت أنْ تُواجهه. أحسّت بفراغٍ داخلها، بدا لها أنّ لحمَها يَنهارُ، وقد نخرَه عدَمٌ داخليّ. طيلة ثانية، تمنّت أن يُغشى عليها.

كانت ليلي ترقبها، ثابتة الجفون، رحيمة النظرة، ممدودة اليدين، على أهبة إسنادها.

ترنّحت مويزيت، ولاحظت في غيظٍ وغمٍّ أنّها لا تفقدُ وعيَها، فتخيّلت لحظةً أنّ ليلي تُواسيها، وفجأةً، إذْ رأتها أرقّ وأحنّ من منتحبة[1]، امتلأت حقدًا. ماذا؟ هي مرّة أخرى! كلّ الكوارث تأتي من طائر النّحس هذا!

- اخرجي!

- ماذا؟

نهضت مويزيت مرتجفةً، محمرّة الوجه، منحرفةَ الفم من شدّة الغضب، وأشارت إلى الباب بإصبعٍ مُتصلّبة.

- اغربي عن وجهي! لا تطأ قدماك هذا المكان أبدًا. أبدًا، أتسمعينني، أبدًا!

- ولكن يا مويزيت، أنا لا أتحدّث بسوء نيّة، أعرفُ الألم الّذي

(1) Pietà: تمثال أو لوحة تمثل العذراء وهي تمسك على ركبتيها جثمان المسيح.

يسبّبه هذا، وقد أصابني. أقول لك هذا كي تُنظّمي أمرك، كي تُعلمي كزافيي، كي...

- إليكِ عنّي!

- ولكنْ...

- أنتِ أنتِ، وأنا أنا.

- ولكنْ...

- لا علاقة.

أرادت ليلي أن تحتجّ، أن تُقنعها بحسن نيّتها، أن تحضنها لتواسيها، ولكن مويزيت، بعد أن كانت جامدةً، تناولت التّحف الصّغيرة وألقتها على أختها.

فرّت ليلي.

- نِعْمَ التخلّص! زمجرت مويزيت.

في السّاعة الّتي تلتها، استدعت المدلّك الطبّيّ، وأرغمته على مُضاجعتها، وكم كان اندهاشها حين عاشت أقوى نشوة جماعٍ في حياتها.

* * *

كان فابيان جربيي يغلي. مدموك القامة، قويّ البُنية، مكسوًّا بمخملٍ خشنٍ، رأسه مربّعٌ ومتينٌ مرزوزٌ في كتِفَيه، وعيناه البرونزيّتان غائصتان تحت قوسَي حاجبيه الشّائكين، كان ينظرُ إلى هيئة المحكمة دون أن يُخفي استهجانَه، مثل بحّارٍ يتأمّل المطر ولا يخشى أن يبلّه.

كان مشهد تلك المحاكمة يثيرُ في نفسه الاشمئزاز. وكانت المحكمة، وقد أعداها تظارفُ سيّدةٍ عجوزٍ شريفة، تتلطّفُ في استنطاق ليلي بربران، حتّى وكيل النّيابة؛ كلّما وجّهت إليها سؤالاً، صقلَته، وحاولت الإيهام بأنّ عنف العدالة يستوجبُ ذلك ولكنّها لا ترضى به إلاّ من طرف اللّسان. أعلموا المدعوّة أنّها غير متّهمةٍ وأنّهم رضوا بمحاكمةٍ مموّهةٍ كانت نهايتها -إعفاء من التّهمة- معروفةً سلفًا.

- لم يَبْقَ لهم إلاّ أن يسقوها الشّاي والمرطّبات، تذمّر فابيان جربيي.

المشاهدون السّتّة، الّذين شوّشت أذهانهم كلّ تلك التّراتيب، آل بهم أمرهم إلى العزوف ونام أغلبهم.

بعض سكّان القرية تقدّموا إلى حرم المحكمة، وحيّوا ليلي والمحكمة بالصّوت الخافت نفسه، وذكّروا بالتّفاهم العميق الّذي كان يربط الأختَين التّوأم. ذكروا أيضًا الأشهر الأخيرة، وأفادوا بأنّ ليلي صرخت بقوّةٍ عندما اكتشفت الجثّة، ما استوجبَ نقلَها إلى المستشفى -كما حدث عند موت زوجها-، وأنّها كانت تبكي بحرقةٍ عندما أعطت ثياب مويزيت للفقراء، وأنّها كانت تزورُ قَبْرَ أختها في مونتاليو كلّ أربعاء، حيث تترحّم عليها طويلاً. فابيان كان يعرفُ كلّ ذلك، فقد تبع ليلي حتّى المقبرة، وانذهل بذلك الإجلال الأسبوعيّ.

رفضوه شاهدًا. ماذا سَيقول؟ لا شيء، حسب محامي الطّرفين. هو أوّل عشيقٍ لليلي قبل ستّين عامًا، لكنّه لم يكلّمها منذ ذلك التّاريخ. استقرّ بعد تلك الفترة بكثيرٍ في «سان سورلان»، وفتح محلّ سكافة،

وهو عملٌ كان يُمارسه لشغفه به أكثر من أن يكون لحاجةٍ إليه، فمعاشُ تقاعده كإطارٍ تجاريّ كان يَضمن معيشه. كبقيّة القرويّين، رأى الأختَيْن المسنّتين تعيشان معًا في بيت والديهما الرّاحلين. كبقيّة القرويّين، لاحظ أنّ موريزيت كانت تعذّبُ ليلي، تشتِمها، تُوسعها تأنيبًا، وتفرضُ عليها أمام النّاس مواقف محرجةً؛ ولكن كبقيّة القرويّين، لاحظ استسلام ليلي، وحِلمها، وشفقتها. بدا أنّها لم تتخلّ عن حبّها لأختها المقيتة، وكانت، باسم ذلك الحبّ، تغفر لها في كلّ مرّةٍ.

«كلّهم بقوا على هذا الرّأي! هم يرفضون أن تكون ملّت فانتقمت».

كان فابيان يعلّق أملهُ في الخبير. قد يؤكّد أنّ موريزيت لم تقع عَرَضًا في عمق الحديقة، وأنّ ليلي دفعَتْها.

قدّم الخبيرُ نفسَه وأجابَ عن أسئلة القاضي. وصفَ البئر في عمق الحديقة، ببَيْتِ آل بربران، بئر يرجعُ عهدها، حسب الوثائق، إلى القرن السّابع عشر.

- هل يُذكر أنّ ثمّة من وقَع فيها خلال ثلاثة قرون؟

- لا.

- هل تمثّل تلك البئر خطرًا؟

- خطيرةٌ، لست أدري. عميقةٌ، تلك حقيقة. طبقةُ الماء الجوفيّة لا تلامَسُ إلاّ على مسافة عشرة أمتارٍ تحتها. زِدْ على ذلك أنّ الماء عند الحادثة كان ضحلاً. وحفرةٌ في مثل ذلك العُمق تغدو قاتلةً في حالة الوقوع.

- هل يمكن أن ندفعَ فيها بشخص؟

- بسهولةٍ تامّة، لأن الحافّة لا تَعلو كثيرًا. ارتفاعها ستّون سنتمترًا. فوق الرُّكب بقليل. نجلس كَيْ ننهل الماء.

- ما يعني أنّ الجالس، إذا فقد توازنه، يمكن أن يقع في البئر بسهولةٍ.

- بالضّبط.

شبّ وكيل النيابة قائمًا وإصبع اتّهام مصوّبةٌ نحو السّقف.

- هذا معناه، سيّدي القاضي، أنّ الشّخص الّذي يُدفع يقع في البئر.

- هذا أيضًا صحيح، أقرّ الخبير.

- هذه البئر تقدّم الوسيلة المثلى للتخلّص من شخص مّا...

- صحيح!

-... وتسمحُ بتزييف الجريمة في شكل حادثٍ.

استعادَ فابيان جربيي الأمل. استفاقَ وكيل النيابة، وتَحمَّلَ أخيرًا دوره، واتّهم، ووجّه مرافعتَه ضدّ المظنون فيها.

استرسل وكيل النّيابة:

- من السّهل إذن أن نُقنِّع جريمة قَتْلٍ في شكل وقوعٍ عرضيّ. بشرط وجود دافعٍ بطبيعة الحال... وهو ما لم نتبيّنه حتّى الآن، وما لم تقدّمه لنا، أنتَ أيضًا، سيّدي الخبير.

أيّد الخبير كلامه بابتسام. كانت هيئة المحكمة تُلقي، في توافقٍ،

نظرة عطفٍ على ليلي، كلّما اعتراها قلقٌ لبضع ثوان.

كوّر فابيان جربيي قبضتَيه: إذْ بدا أنّ المحاباة كانت تزداد. كانوا قَدْ قرّروا مسبقًا أنّ ليلي «غير مذنبة». فاض به الغيظ فقام موجّهًا كلامه إلى هيئة المحكمة:

- كيف تفسّرون أنّ مويزيت، الّتي كانت تعرفُ تلك البئر منذ الطفولة، لم تَحْذَرْها؟

ألقت ليلي نظرة طَيْرٍ قلق على فابيان، ثمّ أطلقت حدقتاها نورًا باردًا، قاتلًا تقريبًا، تخالف صفاء امرأةٍ بريئةٍ. لمحها بوضوح.

- انظروا إلى وجهها! صاح. رأيتموها مثلي: لقد غادرت دور اللّطيفة.

التفتت هيئة المحكمة إلى ليلي بربران، فألفت العجوز ذات السّلوك القويم، الجديرة بالاحترام، الّتي تعوّدت عليها، ثمّ هتف القاضي في غضبٍ:

- من يكون هذا الرّجل؟ أخرجوه! لا يمكن إزعاج عمل المحكمة.

فهم فابيان جربيي أنّه أخفق. لقد خلع عنه طبعه الدمويّ كلّ مصداقيّة، ولن يسمعه أحد.

هجموا عليه، قاوم تلقائيًّا ثمّ أسلَم أمره للطّرد.

هل أصبح مجنونًا؟ عندما مرّ أمام مقعد ليلي بربران مخفورًا بالحُجّاب، لمح على شفتَيها بسمةً ساخرةً.

***

تمسّكت مويزيت بموقفها: فمنذ اللّقاء الّذي كشفت لها أختها خلاله عقمَها المحتمل، رفضت لقاءها حتّى في بيت أهلهما. كان الخلاف قد اتّخذ صبغةً رسميّةً.

بلباقةٍ، لم تَنقل ليلي المشاحنة الّتي سبّبت قطيعتهما، ظنًّا منها أنّ الألم وحده جعل أختها رعناء، جائرةً، متصلّبةً. ودّت لو تحضنها، تهدّئها، تؤكّد لها أنّها يمكن أن تكون سعيدةً دون أن تنجب أطفالاً، وهو الأفق الّذي اقتنعت به هي وبول، غير أنّها تفهّمت شدّة ألمها فصبرت.

كانت مويزيت تعيش بصفّارة إنذار مزروعةٍ في مخّها. على حذرٍ، مثل وحشٍ ينقّل النظر حوله عشر مرّاتٍ قبل أن يرِد، كانت ترتجفُ لأيّ نظرةٍ تَقَعُ عليها، مخافة أن يُكتشف سرُّها، وتتشمّم النّاس الّذي يقتربون منها، النّساء بخاصّةٍ، منمّيةً حاسّةَ شمٍّ راشحةً تُزيح أصحاب الأفكار الثّاقبة. كانت رغبتها الجنسيّة تزداد حدّةً بقرب الرّجال، يهزّها الخوف ويُذكيها الجزع، وكانت تُكثر من العشّاق في هيجانٍ بدافع اليأس أكثر من الرّغبة.

لم تكن مويزيت تهتمّ إلاّ بنفسها، لذلك لم تلاحظ أنّ زوجها يُسافر أكثر من ذي قَبْل، ويُساهم في المنتديات -هو، صاحبُ الرّيع العاطل- ويضمّها أقلّ من ذي قَبْل. كانت تمقتهُ ما دامت تحسبُ أنّها تملكه.

رنّة هاتفٍ جاءتها بتكذيب. امرأةٌ طلبَت البَيْتَ بنبرةٍ خليعةٍ وكلماتٍ رقيقة، ثمّ أغلقت الخطّ حالما سمعت صوت مويزيت. طلبَت مويزيت الرّقم، وبعد نطقها «ألو»، سمعت صمتًا فزِعًا.

كادت تحطّم الجهاز. «هو لم يتّخذ له عشيقةً فحسب، قالت في نفسها، وإنّما حمقاء أيضًا لا تعرف حتّى كيف تتصنّع الخطأ!».

في الأيّام التّالية، تفحّصت هذا الزّوج الّذي لم تكن تُعيره من الاهتمام إلاّ قليلاً. كان قد نحَل، وغيّر عطره، وأسلوبَ هندامه، وصار يصفّر كامل النّهار. أذهلتها الحقيقة: لقد كان سعيدًا!

تأمّلت نفسها في المرآة: هي أيضًا تغيّرت. كانت قسماتها تتجعّد وغضون مرارةٍ تَسِمُ زاويتَي فمها، حاجباها تقاربا وهما في صراعٍ، وحدقَتاها الصّافيتان تصدّان النّور بدَل استقباله. وهي تجسُّ رقبتها، وصدرها ووركيها، لاحظت، من رقّة جلدها ونتوء عظامها، أنّ جسدها نَحُلَ، وأنّ لحمَها امتصّهُ صخبٌ داخليّ.

أمام تلك الكارثة، ما لبثت أن وجدت دورها: دور الضّحيّة. قضت الأسبوع في جمع أدلّةٍ عن خيانة كزافيي لها، محت تلك الّتي تقوده إلى التّنبّه لأخطائه، وطوّعت مفتّشًا سريًّا لمدّة شهرٍ، ثمّ أقبلت على أهلها، معزّزةً بالملفّ، دامعة العينين، لِتُعلنَ عن مصابها كامرأةٍ مهانةٍ.

كان ردّ الأبوين بربران مثلما توقّعت: إذ أعلنا موافقتهما حالما نطقت بكلمة «طلاق».

من الغد، أعلمت كزافيي بما تعلم. لم تكن واثقةً في البداية إذْ تساءلت عمّا إذا كان يشكّ في خياناتها، ثمّ صفا لها الجوّ لمّا تأكّدت أنّه يجهلها، فاشترطت الطّلاق. «سيكلّفك ذلك غاليًا يا عزيزي الأبله!».

تسلّمَ المحامون الملفّ وتحوّل الطّلاق إلى حربٍ تجاريّة.

أثناء المفاوضات، أبدت ليلي رغبتها -عن طريق والديها- في الإعراب عن تعاطفها مع أختها. وبعد أن صارت مويزيت من جديد مركز العالم، ملكة الأحداث، قبِلت بذلك وعادت الأختان تتبادلان المكالمات الهاتفيّة.

- أنا آسفة من أجلك، قالت ليلي، ومستاءةٌ كثيرًا من كزافيي.

- ما هو إلاّ رجل.

- لا تضعي الرّجال كلّهم في السّلّة نفسها.

- هم محكومون بقضيبهم.

- مسكينة أنتِ يا مويزيت، يكبّدك هذا، أنتِ الّتي تحبّه كثيرًا.

كتمَت مويزيت ضحكةً: من أين تستمدّ أختها فكرةً كهذه؟ أي نعم، منها هي: فما دامت تحبّ بول، فقد ظنّت أنّها تعشقُ كزافيي. حقًّا، ليلي لا تفهم شيئًا، إنّها تَنْقُلُ ما بها.

- حافظي على ثقتك في نفسك، أردفت ليلي. أنتِ محلّ إعجابٍ وإغراءٍ. وإذا تركك هذا فسوف ينظرُ إليكِ رجالٌ آخرون.

«هراء!» قدّرت مويزيت وهي تتسلّى بهذا الحديث.

- الآن، سأطرحُ عليك سؤالاً حرجًا.

- نعم؟

- هل ستغفرينَ له؟

أحسّت مويزيت بخواءٍ داخلها. فهي لم تفكّر في هذا قطّ. وخيّم الصّمت. فنبّهها صوتُ ليلي ذو النّفَس الضيّق:

- ألو؟ ألو؟

تأنّت مويزيت.

- ممم؟

- آه... سمعتني؟

- سَمِعْتُكِ.

- مويزيت، هل بوسعكِ أن تغفري له... نزوتَه. إن لم يُعِد الكرّة...

- لقد خانني.

- صحيح، ولكن...

- كذبَ عليّ.

- صحيح، ولكنْ...

- داسَ على وعودنا.

- صحيح، ولكن...

- تذكّري ما أقسمنا عليه في الكنيسة، جنبًا إلى جنب: الوفاء.

- الخطأ طبيعةٌ بشريّةٌ، مويزيت.

- بشريّة وليست زوجيّة!

- إن كنتِ تحبّينه مويزيت، إن كنتِ تحبّينه... يمكنكِ أن تغفري له.

ضربت مويزيت الأرض بقدمَيها بينما كانت أصابعها تتصلّب على الهاتف حدّ الاصفرار. «ها قد عُدنا. هي تَشرح لي أنّي عديمة القلب...» وأغلقت الخطّ.

راكم الطّلاق الخيبات. اكتشفت مويزيت في البداية أنّ زوجها يُوشك على الإفلاس - حتّى القصر الرّيفيّ مرهون. ثمّ إنّ السّائق/ العشيق الّذي طردته -كعشيقٍ وكسائقٍ- انتقمَ منها بأن وشى بها إلى كزافيي. وبما أنّها تقطعُ علاقتَها بالرّجال بالعنف نفسه الّذي تُبديه حينما كانت تعمل في خان «سمك التروتة»، وبما أنّ الرّخاء قد سلّحها بالتّعالي، فإنّها خشيت أن يُطلق فضحُ السّرِّ ذاك فضحَ أسرارٍ أخرى -وهو ما حدث. لفيفٌ من العشّاق شهدوا. بعد أن كشفَها هو وأذلّها أصهارها، الّذين كانوا يكنّون للدّخيلةِ ضغينةً عقب تطوّراتٍ مُذلّة، فقدَت زوجَها، أمتعتَها، نمطَ عيشها؛ ولمّا كانت بلا طفلٍ يُعهدُ لها بتربيته، لم تحصل سوى على نفقةٍ بائسةٍ، وقتيّةٍ إلى حدٍّ قصير.

وبدَلَ أن تعترف بذنبها، اعتبرت نفسها ضحيّةً، وعادت لتعيشَ في بيت أهلها في «سان سورلان» وهي تشكو حالها كأشدّ ما تكون الشّكوى. هناك، رضيَت بملاقاة ليلي الّتي كانت تتألّم صراحةً لما حلّ بأختها لأنّها تجهل -وكذا العائلة- عمليّات الزّنى الّتي كانت سببًا في خسارةِ مويزيت زواجَها وطلاقَها.

بحثَت مويزيت في خمولٍ عن عملٍ ولكنّها جعلت تُقامر بهمّة. رفضَت ألعابَ التّكهنات -رهان سباق الخيول، والرّهانات الرّياضيّة- الّتي تتطلّب معلومات أو ألعاب الورق الّتي تشترطُ استراتيجيا، واختارت أن تُواجه الصّدفة. آثرت المجهولَ، اللّغز، الطارئَ على فِرَقِ الكُرة، والخيول، والمنافسين. ولمّا كانت تملكُ رصيدًا محدودًا، لم تجتز عتبة الكازينوهات، ولكنّها اعتادت ارتياد محلاّت الجرائد والتّبغ حيث تشتري بطاقات اللوتو والبطاقات المعدّة

للكشط. وهاهي تلتمسُ من جديدٍ الحظّ الّذي تخلّى عنها، وهي تشرَه لذلك الانتظار الّذي يضاعف اللّذّة.

قُرْبَ ليون، كان بول وليلي قد شيّدا فيلا عصريّة مليئة بنوافذ من زجاجٍ تطلّ على أشجار حديقتهما الواسعة. كانت ليلي تعملُ قليلًا، وكان بول يعملُ كثيرًا. ورغم السّنّ -كانت سنّ الأربعين تقترب-، كانا يُشبهان طالبَيْن عاشقَيْن، فأثناء جولاتهما في المدينة أو في الرّيف، كان اللَّقْلَق الطّويل ذو الهندام المهمَل يعشقُ أن يضمّ إليه اليمامة ليلي، وينحني لينقرَ قُبَلًا على جبينها. هذان كانا يضحكان لمجرّد أن يرى أحدهما الآخر.

كانت مويزيت تغضّ النّظر عن ثنائيّ أختها. كانت في الواقع ترى أنّ بول على قَدْرٍ من الكرنفاليّة يجعلها لا تتعبُ من احتقاره. فكلّما دقّقت النّظر فيه، تساءلت كيف يُمكن أن نَميل إلى هذه الجثّة الضيّقة الّتي لا تنتهي: خير أن ننام مع جراب غولف. لسلام روحها، لم يكن لها أيّ غيرةٍ كامنة. كذلك أكّدت لصديقةٍ وهي تُريها بول: «بين هذا ولا شيء، أميلُ إلى اللاّشيء».

اضطرّ بول إلى أن يُقيم في واشنطن لمدّة شهرٍ. وكانت الصّفقة الّتي قادته إلى هناك تتباطأ فطال به المقام. اشتاقت إليه ليلي فسافرت لبضعة أيّامٍ إلى عاصمة الولايات المتّحدة، ولكنّها عادت مستاءة.

في يوم الأحد ذاك، فتحَت قلبَها لأختها بعد أن التحقت بها إلى «سان سورلان»:

- أحسستُ أنّ وجودي يُضايقه.

- لقد أفرَطَ في بذل الجهد، تمتمت مويزيت، ولم يكن يهمّها أمر بول.

- ولكن، على الأقلّ...

ألحّت ليلي في قلق:

- ألأنّنا حرمنا من بعضنا بعضًا لمدّة شهرين، لم أجد بول الّذي أعرفه.

فجأةً، لمعت عينا مويزيت، وقد لمحت طريدةً.

- هل غيّر عِطرَه؟

- ماذا؟ كلاّ... لا أدري... أنا... لمَ تقولين هذا؟

قالت مويزيت في مكرٍ:

- ما دُمْتِ تُعلمينني بأنّك لم تشعري بأحاسيسك المعتادة، أفلا يكون قد غيّر عِطره...؟ قد يكون هذا كافيًا لإرباكك، أليس كذلك.

حكّت ليلي مرفقها.

- أنتِ على حقّ. نعم. لقد غيّر عِطره...

وضحكت.

- شكرًا لكِ يا مويزيت. لم يكن الأمر أكثر من هذا: لقد غيّر عِطره! أوه، أنتِ تَشدّين أزري.

كسَرت مويزيت تحَمّسها بأن زمّت شفتَيْها:

- تتتت. هذا أمرٌ لا يطمئنني. عندما يغيّر رجلٌ عِطره...

- نعم؟

- عندما يغيّر رجلٌ عطره... في العادة...

- ماذا؟

- ... يُغيّر المرأة.

حَمْلَقَت ليلي. هزّت مويزيت رأسها عدّة مرّاتٍ وقالت بصوتٍ محبطٍ:

- كزافيي غيّر عطره في فترة عشيقته.

قوّمت ليلي جذعها في اضطراب.

- كلاّ، هو لا! إلاّ بول! إلاّ حبيبي بول!

رفعَت مويزيت عينيها، ثمّ تظاهرت بالعدول عن رأيها:

- إلاّ بول. إلاّ حبيبك بول. معذرة.

قهقهت ليلي، كي تستعيدَ بشاشتها، ثمّ لوّحت في عصبيّةٍ لتعلّل انسحابها. وأرسلت مويزيت زفرة لذّة: لقد غَرَسَت الشكّ في ليلي.

بعد أسبوعين، سافرت ليلي إلى واشنطن حيث عزمَت على إجراء نقاشٍ حقيقيّ مع بول. اعترف أنّه خضع لفتنةِ محاميةٍ نيويوركيّة، حديثة الطّلاق، ولم يتردّد خلال سهرةٍ مفعمةٍ بالكحول في أن يُبادرها و... أقسم أنّها رغبةٌ عابرةٌ، خطأ، يتأسّف على حدوثه، ولن يعيدَ الكرّة أبدًا...

عادت ليلي إلى فرنسا قبله بأسبوع. وزارتها مويزيت في ليون وهي منجذبةٌ إلى رائحة الدم.

عندما فتحَت لها ليلي الباب، كان وجهها القاسي، وجفونها المحمرّة، وجبينها المغتاظ، وتنفّسها المليمتريّ تروي ما جرى أفضل من الكلمات.

- لا تقولي شيئًا. فهمت.

أومأت ليلي برأسها، فانفجرت مويزيت:

- آه، القَذِر! كلّهم بشعون[1]!

بلغتا الصّالون. ضمّت مويزيت أختَها بين ذراعيها في شفقةٍ ذات مخالب وغمغمت «عزيزتي المسكينة». في جوف الكنبة، أجهشت ليلي بالبكاء، وأخلصت مويزيت في دور المواسية، وتلذّذت بكلّ ثانية من تلك اللّحظة كأنّها كانت تلتذّ بشهوةٍ جنسيّة.

- عزيزتي ليلي، أردت أن أدلّك على محامٍ جيّدٍ، ولكنّي لن أقدّم لكِ هديّة إن أنا أوصيتكِ بمحاميّ، إنّه أبله. ولكن ثمّة من نصحني بالأستاذ بلازيي. إن شئتِ، خاطبتُ صديقتي كلوتيلد...

أوقفتها ليلي، مسحت خدّيها وغمغمت:

- لا تكلّفي نفسك هذه المشقّة.

- آه! لديكِ من يَلْزَم.

- ليس لي أيّ شيء. كلاّ. لا أنفصل.

- أنتِ...؟

(1) استعمل الكاتب عبارة chameaux، جِمال، وهي شتيمة لدى الفرنسيين، تعني شخصا خبيثا سيئ المعشر.

- لن أطلّق.

- ماذا؟

- أغفرُ لبول. أوه، قد أكونُ مخطئةً، ولكنّي أغفرُ له.

اندفعت مويزيت في الغرفة. هي الّتي كانت مسرورةً بأنّ أختها تتألّم أخيرًا -مثلها هي-، بأنّ أختها ستقفُ أخيرًا أمام المشاكل المادّية -مثلها هي-، وها إنّ السّكّر يَسحب من فمها. انخرطت في محاجّةٍ عنيفةٍ، تتقارع فيها الكرامة، والنّزاهة، والشّرف، واحترام الالتزامات، والزّمن الّذي يُحابي الرّجال، إلخ. كانت تحثّ أختها على هَجْرِ بول نهائيًّا.

اكتفت ليلي بأن قالت:

- إن كنتُ أحبّه، أغفر له.

- إن تغفري له، فأنتِ لا تُحبّين نفسك، لا تحترمين نفسك.

- ولكن هذا هو معنى أن نحبّ. أن يكون الآخر سعيدًا. أن نقدّم الآخر على أنفسنا.

- طلّقي!

- كلاّ. لن أرتكبَ خطأك.

غادرت مويزيت البيت دون التفات.

***

كان محامي ليلي يحلّق في مجالات البلاغة. وهو يفخّم صوته بقدر ما يفخّم جُمَله، كان يتلاعبُ بالفترات، يغزلُ الاستعارات، يربطُ

الغلوّ بالمجاز المرسَل، يجرؤ على استدرار الشّفقة، والتّأنيب، والهول، كان تراجيديًّا وفعّالًا كأنّ حياة موكّلته في خطر. بَيْدَ أنّ المحكمة كانت تعرف أنّ ليلي بربران ما كان يحقّ أن تتّهم. أمّا قلّة عدد الحاضرين في القاعة -ستّة معاطفِ مشمَّعةٍ نائمة-، فلم يكن يستدعي كلّ تلك المهارة. رغم ذلك، كان الأستاذ موربيي دي جونكيِيْ، بهلوان القول، جمنازيّ الحِجَاج يَعرض، على سبيل العادة أو رغبة في الاطمئنان، مهرجانًا من كفاءاته:

- أمامكم لا تقفُ متّهَمةٌ، بل مُهانةٌ! أجل، أؤكّد ذلك: مُهانةٌ. مهانةٌ بجنون فرضيّاتٍ وشكوكٍ هاذيةٍ. هل رأى أحدٌ ليلي بربران وهي تُوقع أختها في البئر؟ ولا شاهد. هي الّتي فتّشت عنها، بعد أن يئست من عَوْدتها، في كلّ مكانٍ طوال ساعاتٍ قبل أن تَلْمَحَ جثّتها. هل قدّم أحدٌ سببًا اقترفت من أجله هذه الجريمة؟ المال؟ هي تملك ثروةً صغيرةً تتقاسمها مع أختها منذ عشرات السّنين، تسمح لها بأن تعيش عيشةً لائقةً ولن تَرِثَ شيئًا. الغَيْرَة؟ زوجاهما ماتا من زمنٍ طويل. المزاج؟ ليلي بربران تبدو امرأةً لطيفةً تؤْثِر غيرَها منذ ما يُقارب نصف قرن. الضّغينة؟ ليلي بربران أظهرَت باستمرارٍ أمام النّاس وأمام أهلها حبًّا شديدًا لأختها. إذن، علام يقوم الشكّ؟ ماذا؟ حجّةٌ أوهى من جَنَاح ذُبابة: مويزيت كانت تعرفُ عدم أمان تلك الحافّة منذ مولِدها وما كانت إذن لتقع. حقًّا؟ يبدو الاتّهام ضعيفًا بشكلٍ مضحكٍ، ضعيفًا بشكلٍ شائنٍ، ضعيفًا بشكلٍ لئيم. في الثّمانين من العمر، ولستم في حاجة إلى من يُعلّمكم هذا، يرقّ الجسم... أي نعم، لم يَعُد يتمتّع بحركاته الانعكاسيّة الّتي صنعت شبابه، لم يَعُد يملكُ

العضلات الّتي شكّلت قوّته، لم يَعُد يتسلّقُ المرتفعات الّتي طالما ارتقاها، يتعثّر في درجة السّلّم الّتي كان يتخطّاها، يسقطُ حيث لم يكن يسقطُ سابقًا. انتبهوا، سأقدّم لكم سَبْقًا صِحفيًّا: يصادفُ أيضًا أن يُتَوفّى، وهو الّذي لم يَمُتْ من قَبْلُ بتاتًا!

تلقّت المحكمة المزحة في غمغمة انشراح.

مويزيت بربران لم تتحكّم في توازنِها. هذا أمرٌ بسيط، ساذجٌ، حزين: ولا شيء غيره. ليلي بربران، اليوم، بعد أن تلقّت صدمة اكتشاف جثّة أختها، تبكي هذه الأخت الّتي أحبّتها منذ اليوم الأوّل في بطن أمّيهما. محاكمتُنا تُهينها، محاكمتُنا تخدش الإنسانيّة، محاكمتُنا تُذلُّ العدالة. أشعرُ بالخزي، سادتي، بالخزي. طوال أربعين سنة من الحياة القضائيّة، لم أشعر بمثل هذا الخزي. أيّ خزي؟ ليس بسبب الدّفاع عن ليلي بربران، كلاّ، هذا، هو شرفي. أشعرُ بالخزي لأنّي مضطرّ إلى الدّفاع عنها، مرغمٌ بشكوكٍ حقيرة. لذا، أناشدكم، أقرّوا بالبراءة، أصدروا قراركم بألاّ وجه لإقامة دعوى وخلّصوني من إحساسي بالخزي.

ضرب صدرَه بكيفيّةٍ ذكوريّة حتّى إنّ صدى الضربة تردّد بشكلٍ واسعٍ. ولو أنّ أسدًا لَبِسَ ثوب المحامين الأسوَد وهو يضربُ صدرَه، لكان أشبه بالأستاذ مربيي دو جونكيي.

***

التّاريخ أيّد ليلي. فقد عاد إليها بول عاشقًا ومَدينًا، وازداد عُشُّهما متانةً بهذا الوفاء الّذي صمد أمام المحن.

عاشا معًا حتّى وفاة بول. في تلك الأثناء، كانت مويزيت قد عدلت عن نيّة الإمساك برفيق وأصرّت على وضع كلّ ميولها الغراميّة في اللّعب. بالحذر اليقظ الّذي كان يميّزها، لم تكن تُوقع نفسَها في خطرٍ ماليّ، إذ حدّت من مصاريفها في اليانصيب. كلّ أسبوع، كانت تُقامر، والقلب يخفق طوال السّاعات الّتي تسبقُ السّحب، فتكون على شفا الانفجار قبله، وخائبةً بشكلٍ فظيع بعده. ومن الغد، تنهض في حيويّةٍ ونشاطٍ: المرّة القادمة ستكون هي الصّائبة. حتّى وإن كانت لا تربحُ إلاّ نادرًا، فإنّها لم تتخلّ أبدًا عن أمل الفوز بالجائزة الكبرى.

على أيّ حال، فكّرت، لم يكن ثمّة حظوظ وافرةٌ كي تكون لي أختٌ توأم -حظّ واحد من 250- وحظيتُ بأختٍ توأم. إذن، لي حظوظ كي أكسب في اليانصيب -حظٌّ من 068 840 19-، خصوصًا أنّي أقامر كثيرًا. بطريقةٍ شعائريّة، كانت تحافظ على كلّ تذكرة «لوتو» في كيسٍ، وتعودُ دومًا إلى أرشيفها لتعرف ما إذا كانت، في وقتٍ سابقٍ، قد ملكت تركيبة الأسبوع الرّابحة. وكان ذلك النّشاط يشغلها بشكلٍ عنيفٍ على الرّغم من عدم جَدْواه وإملاله.

عندما شارفت على السّتّين، أُعلمت ليلي أنّ زوجها أصيبَ بنوبةٍ قلبيّةٍ في ملعب تنس، فانهار. نُقل إلى المستشفى، وكان أمل نجاته ضعيفًا، وخُشي أن تحلق بزوجها إلى القبر.

ما أكثر ما كانت جنازة بول دوني مخالفةً للمألوف! كان موالي[1]

(1) استعمل الكاتب عبارة ban وarrière-ban وهي في الأصل دعوة إلى الحرب كان يوجهها السيد الإقطاعي لمن يُقطعهم أرضا لقاء خدمات للخروج إلى الحرب. وتعني هنا فئة من الرجال تقوم على أسس الموقع الاجتماعي أو السن.

الصّناعة والماليّة والتّجارة اللّيونيّون ورديفهم يتزاحمون لحضورها لكثرة الملفّات والقضايا الّتي دافع عنها بول وكسبها. خمسمائة شخص يحضرون المأتم، باستثناء أرملته المؤنببة[1] في قسم الإنعاش، بينما كانت صِنْوتها التّامّة واقفةً أمام التّابوت. بمرور الوقت، مع التّعب والتّجاعيد، التقى المظهر الجسديّ للتّوأم، واستعاد التوحّد المثاليّ لمرحلة الطفولة، وكان لا بدّ من حصافة شركاء بول الجادّة لردّ الحاضرين عن تقديم تعازيهم لمويزيت.

كانت مويزيت وقتَها تعيشُ وحيدةً في بيت أبَويْها الكبير -وكانا توفّيا قبل عشر سنوات-، وكانت تجدُ صعوبةً في العناية به لأنّ راتبها الضّعيف كموظّفةٍ في البلديّة -وكانت مصاريف القمار تلتهمه- لا يكاد يكفي حاجاتها. أذهلها أن ترى أختَها تفقدُ كلّ شيء دفعةً واحدة -زوجها وصحّتها-، لم تجد بدًّا من الذّهاب إلى المستشفى لتسهر بجانب أختها. عند رأس سريرها، وأمام ذلك الجسد الصّموت الموضوع في غيبوبةٍ اصطناعيّةٍ، كانت تشعرُ أنّها حيّةٌ، متينةٌ، محظوظة. كان ضعف أختها يرضيها تمام الرضى.

بقيَتْ ليلي مدّةً طويلةً بين الحياة والموت، ثمّ استعادت رشدَها، ولمحت أختَها تُعالجها، فبادرت بشكرها بحرارةٍ أوّل ما استطاعت النّطق، ولما تَعافت، اقترحَت عليها أن تعيشَ بقربها في بيت الطفولة عند مغادرتها المستشفى.

ابتهجت مويزيت لهذه الإمكانيّة. أخيرًا، لن تحملَ للمال همًّا!

---

(1) التنبيب هو إدخال أنبوب في قصبة الرئتين أو الحنجرة لتأمين عملية التنفس.

أخيرًا، ستقاسمُ شخصًا آخر المهمّات الشاقّة! أخيرًا، لن تهتزّ رعبًا كلّما ندّ صوت قرقعةٍ بين الجدران. أخيرًا، لن تتكل على عمولة المقامرة وحدها: سوف تقامر للمتعة الخالصة، لا للمال. سيّما أنّ الجيران، عندما نقلت إليهم الخبر، هنّؤوها كلّهم: «يا له من تفانٍ رائع، يا مويزيت! تُساعدين أختك على استعادة عافيتها! تعتنين بنَقِهة! تمنعينها من الموت وحيدة! تُنقذينها من الاكتئاب! كم هي محظوظة، هذه الليلي! أيّ سعادةٍ أن يولد المرء مع توأم!».

استخلصت مويزيت من هذا الإطراء أنّها استولت في عيون النّاس على الدور الأجمل.

أقامت الأختان. باعت ليلي الفيلاّ العصرية الّتي تُذكّرها ببول، وأعادت ترتيب مستنداتها الماليّة وضمنت لها ولأختها الرّفاهيّة.

بدا أنّ زمن المحبّة المثاليّة قد بدأ.

للأسف، عادت القرية، للأسباب القديمة نفسها، إلى الحديث عن «التوأم بربران»، «ليلي» و«الأخرى». في لمح البصر، استعادت مويزيت عاداتها المستهجنة، ثبتت الجزئيّات الّتي تُقيم الدّليل على اهتمام النّاس بليلي أكثر من اهتمامهم بها، أحْصَت الكلمات الّتي تُدنِّيها. كاقتصاصٍ، وبمراسٍ حقير، جهدت في تعفين حياة ليلي إذ كانت تُبالغ في تمليحِ أطباقها، تخصّها بالخبز البائت، تتناسى أيّ الأطعمة تُثير الحساسيّة لدى ليلي، تتجنّبُ تلك الّتي تحبّها، تضيّع بريدَها، تتغاضى عن تنبيهها إلى المكالمات الهاتفيّة الّتي تلقّتها، تُكسّر تحفها، تحتفظ بالهدايا الّتي تجيئها، تُخطئ البَرْمَجَة حين تَغْسِلُ ثيابَها حتّى تَضيقَ أو تتغيّر ألوانها، تُسيء نشرَها على مَنشر الحديقة عند

هبوب الرّيح... مثل بخيلٍ يَنشد ألف فرصةٍ للمتعة بإنفاقٍ أقلّ، كانت لا تقضي يومًا طيّبًا إلاّ بتكثيف الخِدَع القَذِرة والبذاءات.

كانت ليلي مترفّعةً، تهزّ كتفَيها وتصفَح.

وكلّما صفحَت، ازدادت مويزيت سُعَارًا. «ألا تكفّ يومًا عن الظهور بمظهر المترفّع؟ ألا تتوقّف عن ازدرائي بحِلمها؟ أجل، أجل، فهمنا أنّها تحبّني! ولكنّي سوف أنزع عنها رغبة الهيمنة عليّ. أربع وثمانون سنة على هذه الحال... أنا لم أطلب قطّ أن يكون لي أختٌ. توأمٌ بصفةٍ أدقّ. لقد وقع الاعتداء عليّ عند الولادة. بل قبل ولادتي. اثنتان، معناه أنّ واحدةً زائدةً عن الحاجة. وهي تختالُ بانتظامٍ أمامي، بشكلٍ أكبر دومًا. فهي أكثر حنانًا، أكثر ثرثرةً، أكثر ذكاءً، أكثر موهبةً، أكثر دومًا! الشّيء الوحيد الّذي لم تُفلح فيه هو أن تكون أجمل: نحن سيّان. اثنتان، يعني أنّ واحدة زائدة عن الحاجة. سوف أدفعها إلى حدودها القصوى. سأضيّق عليها حتّى تكرهني. سوف تعرفُ ماذا يعنى ذلك!».

***

انتهت المحاكمة. غادرت ليلي بربران المحكمة مبرّأةً.

لم يهدأ غضبُ فابيان جربيي. شيء مّا فاته، وفات القاضي أيضًا، يستحيلُ أن تكون مويزيت تعثّرت قرب البئر، وهي الّتي تُحاذيه منذ الطفولة، هي الحذِرة، الذُّهانيّة، الّتي ترتابُ من كلّ شيء ومن كلّ فرد. الثّابت أنّها لم تعثَرَ وحدها، صدفةً: إمّا أن تكون ليلي هي الّتي دفعتها، أو أنّ ليلي قالت شيئًا أربكَها.

عند عودته إلى «سان سورلان»، شعّ في ذهنه خاطر. طبعًا! هي ذي السّبيل الّتي ينبغي الصّعود إليها: معرفةُ فعل مويزيت الّذي أثار عنفَ ليلي. «يا لغبائكَ! لماذا لم يَخْطُر هذا ببالِكَ من قَبْل؟ هنا يَكمن الحلّ. جاوزت مويزيت حدًّا مّا فعاقبتها ليلي».

كلّ يوم كان يفكّر في ما هو هامّ لدى ليلي. المال؟ لقد أعوزَها دون أن تشتكي، وكانت توزّع منه منذ ظفرت به. البيت؟ بإهماله، تهجّمت مويزيت على الطفولة، على الوالدين الرّاحلين... بول دوني! هي ذي الذكرى الّتي لا ينبغي مسّها. بول! لا شكّ أنّ مويزيت ثَلَبَته، مرّغَت ذِكْرَه في الوحل، ادّعت أنّ...

جلَس مقطوع الأنفاس، ونَضَحَ عرقًا من شدّة التّأثّر. بكلّ تأكيد! مويزيت فعلَت مع بول ما كانت فعلَته معه هو: أخذت مكان أختها وضاجعت بول. ولم تكتفِ بذلك بل صارحتها به.

عندما مسح جبينه بمنديلٍ كبيرٍ ذي مربّعات، لم يكن يدري هل يترنّح فرحًا أو دَهْشَةً أو تقزّزًا.

ليلي! قبل سبعين سنة خلَت، امتقع وجهها حين أعلمَها، على سرير مراهقته الضيّق، بمدينة ليون، أنّ مويزيت خانتها معه، ثمّ عادت إلى البيت لتقتلَ نفسها. هذه المرّة، بعد أن تلقّت الصّدمة، لم تقتل نفسَها بل قتلَت أختَها. تلك ميزة النُّضج: نسلّط العقوبة على الجناة لا على أنفسنا.

مدّ رجلَيه وخفَض تنفّسه.

في الواقع، هو لا يلومها. من حقّها أن تنتقم. ثمّ إنّها لم تثأر

لنفسها فحسب، بل ثأرت لبول، وثأرت له هو أيضًا.

يا لها من امرأةٍ شهمةٍ! لحسن الحظّ أن قضيّتها حُفظت، وقد تظلّ الجريمة محميّةً؛ وحده فابيان يعرف اليوم ذلك، ولكنّه لن يفشيه لأنّه يؤيّده؛ بل يحيّيه.

طوال أسبوع، ظلّ قابعًا في دكّانه، ولم يغادره إلاّ عندما نزلت ليلي بربران الشّارع. أحسّ في أعماقه حاجة إلى أن يندفع، ليقول لها إنّه فهم كلّ شيء، وإنّه يبرّر فعلتها وسيظلّ شريكها حتّى نهاية الأزمنة. ولكن الحياء منعه. ماذا سيظنّ القرويّون لو اقترب منها؟ الجميع قدروا أنّه سلك سلوك عدوٍّ، بصفة خسيسةٍ.

أمعن في التّفكير.

ينبغي أن يقول كلّ شيء لليلي، أن يتصالحَ معها، ما دامت موزيت، المؤذية قد رحلت، ما يجعل الإقرار بجريمتها يخفّف حِمل ذنبها.

عاودته ذكرى قديمة. عندما كان يتسلّق سقف المَغسِل، ويقطع عشرة أمتار على عارضة كي يبلغ الجدار الّذي يغلق حديقة بربران؛ هناك، وبفضل اللّبلاب، يستطيع أن ينفَذَ إلى الحديقة وينتظر ليلي خفيةً كي يحدّثها.

يوم الأحد، بعد أن جمعت النواقيسُ المؤمنين في الكنيسة، اغتنم الصّمت المخيّم في القرية وقت القدّاس ونفّذ خطّته.

أبانت له العمليّة كيف أنّ البدن يَهِنُ على مرّ السنين لأنّ المسافة الّتي كان يقطعها بسهولة في سنّ الثّامنة عشرة قطعها اليومَ بجهد مضنٍ وتوقّفٍ متكرّرٍ.

بَيْدَ أنّه بلغ الجدار، ونزل منه مستعينًا بأغصان اللّبلاب والكرمة البكر، ثمّ تسمّر في عمق الحديقة.

«سوف تخاف إن دخلتُ البيتَ. أخيَرُ أن أنتظر هنا، بشكلٍ مرئيّ».

ظلّ يُراوح مكانه بِغَيْرِ غاية. قربَ قطع الحطب، غير بعيدٍ عن البئر المشؤومة، أقفاص أرانب وقنّ دجاجٍ تشهد على أنّ في هذا المكان وقعت تربية الحيوانات في ما مضى للاستهلاك اليوميّ.

بعد ساعةٍ، وكان قد ملّ الوقوف، وقف تحت ظلّ سقفٍ خشبيٍّ قصير كان يحمي الأقفاص وجلس على التّبن الجافّ.

أكياسٌ تشغلُ مترين أو ثلاثة أمتارٍ مكعّبة، ليست من الخيش كما نتخيّل في مثل هذا المكان البالي، بل من البلاستيك. ولما كان منقّبًا بطبعه، فقد دفع التُّرْس، فتح الباب المشبّك وتناول أحدها.

- ما هـ....

بداخله، مِئَاتُ بطاقات يانصيب مُتَجاورة. يبدو من تغيّر لونها أنّها طُبعت قبل عشرات السّنين.

«غريب... لقد أنقذت مجموعة مويزيت. ظننتُ أنّها تخلّصت من أمتعتها وثيابها...» تراءت له عربة رفاق إماوس، تلك الجمعيّة الخيريّة المحليّة، وهي تحمل حقائب من الفساتين والمعاطف واللمبات والتّحف.

في بضع ثوانٍ، تثبّت من محتوى الأكياس الأخرى: الشيء نفسه. حياةٌ كاملةٌ من القمار مودعةٌ هنا، في قفص الأرانب، بعمق الحديقة.

قطّب حاجبيه، احتفظ بكيسٍ في يده، أحسّ بالعطش فَجَرَّ رجلَيه حتّى البئرِ ليرتوي.

وبينما كان يسحبُ دلو الماء البارد من الأعماق، عاودته صورة: مسار ليلي. كانت تذهبُ كلّ أربعاء، إلى مونتاليو، حيث قبر مويزيت، ثمّ تمرّ إلى «الرّجال المرحين»[1]، الحانة الّتي تحاذي المقبرة. هذه الجزئيّة أثارت فضول فابيان الّذي لم يسبق له البتّة أن رأى ليلي تدخلُ مقهى، ولكنّه فسّر تلك الاستراحة بتعبِ السّفر. بَيْدَ أنّ الحانة لم تكن تبيعُ المشروبات والتبغ فقط، بل كانت أيضًا تبيع أوراق اليانصيب.

وهو جالسٌ على الحافّة الحجرية، فتّش في الكيس بحركةٍ سريعةٍ عن بطاقة لوتو ذات ألوان واضحة، غير بالية. عثر على واحدةٍ، وضع نظّارتَيه وتفحّصها. فانفلتت منه صيحة: القُصاصة يرجع عهدها إلى أسبوعَين.

في تلك اللّحظة جاءه صوت:

- ماذا تفعلُ هنا؟

ارتبكَ فابيان وهو يكتشفُ ليلي، فقال في تلعثمٍ:

- ينبغي أن أحدّثَك بأمر.

- ألم تُسمِّم حياتي بما فيه الكفاية؟

- معذرة يا ليلي، لم أكن قد فهمت.

- فهمتَ ماذا؟

---

(1) Les Bons Vivants.

تصلّبت.

كان فابيان يستعدُّ لعرض ما كان يُقلّبه منذ أيّام، حينما لاحظ بطاقة اللوتو الحديثة الّتي كان يُمسكها بين السّبّابة والإبهام... أدركَ فجأةً إلى من يتوجّه.

- مويز...؟ غمغم وهو يرفعُ عينيه.

لم يكد يجدُ متّسعًا من الوقت كي يرى حطبة تنهال على جمجمته، حتّى ترنّح جسمه وتحطّم على مسافة عشرة أمتار دنيا، في عمق البئر.

الآنسة باترفلاي

كانت الآونة خطيرة. وكان عدٌّ تنازليٌّ حاسمٌ قد بدأ. وإذا كان معظم الرّجال العشرة يجهلون أيّ خطرٍ يحدق، فهُمْ يدركون جميعًا أنّه لا يمكن توجيه دعوةٍ عند منتصف اللّيل إلى كبار المسؤولين في البنك دون أن تكون ثمّة كارثةٌ تتهدّده. على عجل، تركوا ما كانوا فيه، هذا ترك حفلاً، وذاك عشاءً، وآخر سهرةً عائليّةً أو فراشًا، وهبّ مسرعًا إلى اجتماع الأزمة هذا.

كان وليم غولدن يتصدّر المجلس، عابسًا، في طرف الطاولة. كعادته، كان منزويًا في الظلمة، مخفيّ الملامح، جسيمًا، مهيبًا، بينما كان أعضاء مجلس الإدارة يتلقّون على جباههم ضوء متّهَمين ترسله لمباتٌ في السّقف. وكانت القاعة الموصدة بأبوابٍ مصفَّحةٍ، الواقعة في المركز الحسابيّ لبرج غولدن، الخالية من النوافذ ستبدو مثل ملجإ محصّنٍ لو لم ترفعها التّلبيسات الخشبيّة، والزخارف المذهّبة، واللّوحات الانطباعيّة إلى مقام صالونٍ باذخٍ.

على الأكاجو الّذي حوّله البرنيق إلى مرآة، عُرضت على الضيوف صينيّةٌ من الفضّة معبّأة بكؤوسٍ منقوشة، ووفرة من القوارير -بوربون، بورتو، مارتيني، كونياك-. لم تمتدّ إليها يد. ولم يُجازف أحدهم بالشّرب وإن كانت المَعِدُ تنعقد والأفواه تجفّ. كانت لياقةٌ ممزوجةٌ بقلقٍ تُجمّد كلّ واحد.

- كم ساعة أمامنا؟ سأل ستانوفسكي، مدير الاستثمارات.

مالت الرّؤوس نحو المكان المعتم الّذي يجلس فيه وليم غولدن، صاحب البنك. لم ينبس. رغم حالة الطوارئ، كان يحرصُ على أن يكون سيّد الوقت.

كان وليم غولدن يُسيطر على اللّجنة في صمت. والرّجال يلمسون غضبه دون أن يروه أو يسمعوه.

تكلّم بول أرنو، المدير العام، بدلاً عنه:

- سيحلّون هنا في السّاعة السّادسة.

ازداد التّوتّر. واصل بول أرنو:

- مكالمةٌ هاتفيّةٌ خصوصيّةٌ -ينبغي أن تبقى سرًّا- أعلمت السيّد غولدن أنّ العدالة ستفتح تحقيقًا وأنّ الفرقة ستتدخّل عند الفجر.

- مكالمةٌ من الإيليزي؟ سأل المدير التّجاريّ.

من الثّقب الأسود انبعث غثيانٌ ينضحُ منه الاحتقار. بطبيعة الحال، التّحذير صادرٌ من القصر الرّئاسيّ، أو من الرّئيس... من يحسبون وليم غولدن؟ هل ينسون أنّ له علاقات مع كلّ من لهم وزن؟ كان له في كلّ طابقٍ أصدقاء، مدينون في الغالب، يشكرونه على خدماته، وقت الحاجة...

نتأت شرارة. أشعل وليم غولدن سيجارًا فأبصروا، تحت احمرار عود الثّقاب، ملامحه الصّافية، النّبيلة، ومن عجبٍ أنْ لم يَبدُ عليه تأثّر. في كلّ ظرفٍ، بما في ذلك هذه اللّيلة، كان يملكُ السّيطرة على

نفسه. جذب الدخان كما يشرب ماء الحياة، حبسه بتلذّذٍ في رئتيه، ثمّ أطلقه بلطفٍ من تكويرة فمه؛ تعالت النفاثة الملتفّة، بطيئةً، متكاسلةً، رخوةً، كأنّها تأسف لفراقه.

- لنلخّص القضيّة، استهلّ حديثه بصوتٍ نحاسيّ الرّنين. قبل ثلاث سنوات، في موازاة أنشطته المعتادة، أوجد ابني داخل البنك صندوق استمثارٍ، فيغر[1] - صندوق استثمار غولدن لمخاطر الائتمان. عندما اتّصل بالشّركات الّتي تتعامل معنا أو كبار الخواص الّذين نُدير حساباتهم، أقنع بعضًا منهم بأنْ يُودعوا لديه مبالغ ووعدَهم بِرَيْعٍ بـ 15 %. رغم تقلّبات السّوق، ورغم الجمود الّذي يُصيب الاقتصاد الحاليّ، كان عند وعده. وحرفاؤه تلقّوا فوائدهم راضين؛ إثرَها، دفع معظمهم مبالغ أكثر قيمةً واستنفروا أصحابهم. وعندئذٍ عرف الفيغر نموًّا مطّردًا وسريعًا. وهو يتصرّف اليوم في ثلاثة مليارات.

وضع سيجاره على منفضةٍ من الحجر الكهربائيّ الأسود.

- رُفعت شكوى ضدّ الفيغر تُدين عمليّة تحيّلٍ فما من يورو رُصد فيه للاستثمار وجدَ غايته. وهي تزعم أنّ المال طوته حساباتٌ «أوف شور»[2] في جوفها. وتدّعي أنّ الّذين اشترطوا عودة سُيولتهم - رأس مال أو فوائد - دفعها المنخرطون الجدد في الصّندوق. باختصارٍ، الدعوى تُلوّح بشبح التّحيّل، وهذا

(1) FIGR: Fonds d'investissement Golden risque.

(2) Offshore Company: شركة تم تأسيسها أو تسجيلها في مركز مالي خارج حدود الوطن أو في ملاذ ضريبي.

أمرٌ عاديّ على أيّ حال، منظومة بونزي، التّضليل الّذي رمى مؤخّرًا ببرنارد مادوف في السّجن لمدّة مائة وخمسين عامًا[1].

تناول سيجاره من جديد، تأمّل طرفه الّذي كان يحترق، برتقاليًّا، مثل قلب مَسبَك.

- سؤالٌ أوّل مُلحٌّ: هل للتّهمة أساسٌ من الصّحّة؟

عبرَت المجلس رجفة. ندّت عباراتُ «عار»، «فضيحة»، «أمر مدبَّر»، «منافسة»، «دسيسة»، «مؤامرة».

وضع وليم غولدن سبّابته على المائدة.

- أوقفكم في الحال، سادتي. لا فائدة من إضاعة جهدكم في مواقف استنكار: التّهمة ثابتة.

أشارَ إلى ملفٍّ أخضر على يساره.

- خلال بضع ساعاتٍ، اكتشفتُ أنا وبول، أنّ الإنكار ليس الرّدّ المناسب. ما إن ندخل خفايا الإيداعات، مدفوعين بهذا الشكّ، حتّى نكتشف علميّات مريبة. لم نجد متّسعًا من الوقت للتّقصّي، بل لمعاينة المسارب. بكلّ أسفٍ، لا شكّ في أنّ ابني بَنَى منظومة احتيال.

- لماذا لم يحضر هنا؟ صاح ستانوفسكي، مدير الاستثمارات.

غاص وليم غولدن في أريكته ولم يمنع نفسه من التّبسّم.

---

(1) Bernard Madoff رجل أعمالٍ أمريكي، مؤسّس ومدير شركة من أكبر شركات الاستثمار في وول ستريت، قام بأكبر عمليّة تحيّل في التاريخ أدّت إلى أزمة ماليّة عالميّة عام 2008، باستعمال منظومة الاقتراض بونزي، نسبة إلى الإيطالي كارلو بونزي (1882-1949) وكان قد ضُبط هو أيضًا متحيّلاً في عشرينات القرن الماضي.

- سؤالٌ جيّد.

سحب بعض أنفاسٍ من سيجاره، دون أن يكون مهيّأً لإضافة.

سأل ستانوفسكي بنفاد صبر:

- أسمح لنفسي بالإلحاح، سيّدي غولدن، وإعادة سؤالي: لماذا لم يحضر ابنك هنا؟

- كنتُ أريدُ أن أعرف من سيلقي عليّ هذا السّؤال.

- عفوًا.

مال وليم غولدن بجذعه إلى الأمام، وكتفاه العريضتان تؤطّران رأسه المحبّ للصّراع.

- كنتُ أريدُ أن أعرف من يتكلّم الأوّل، ويذكر ابني بصفته المسؤول الوحيد. شكرًا لأنّك فضحتَ نفسك يا ستانوفسكي.

- ماذا؟ أبدًا. أنا...

بسط وليم غولدن يده على الطاولة وفرض السّكون.

- الفيغر لا يمكن أن يشتغل دون متواطئين، شركاء في هذه الخدعة، يتكتّمون عليها وينتفعون منها.

تقلّصت زاوية فمه اشمئزازًا. وقاس الحاضرين الواحد تلو الآخر.

- حسب تحليلي، ثلاثة مستويات كافية. إن لم يكن ابني يعلمُ المسألة، فلا شكّ أنّك سوف تشرحها له يا ستانوفسكي. تخفّي المسألة عنّي وعن بول يستوجبُ خائنَين في مجمعنا... دوبون موريلّي... وبلوشار.

ووجّه نحوهما إصبعه.

- أليس كذلك أيّها السيّدان؟

حنى الرجلان رأسيهما.

- شكرًا على عدم الإنكار، فالوقتُ ضيّق.

التفتَ وليم إلى الأعضاء الآخرين.

- هو ذا سادتي. يوجد هنا سبعة أشخاص شرفاء وثلاثة داعرين بياقةٍ بيضاء.

تجمّد ستانوفكسي من وقع الشّتيمة.

- ابنكَ تخلّف عن الاجتماع!

- نعم، تخلّف عن الاجتماع.

- هو مصدرُ كلّ شيء.

- مصدر كلّ شيء. لا تعلن هذا عاليًا، لأنّك لو تركب رأسك فسوف أتخيّل أنّك استغللتَه.

تصلّب ستانوفسكي. حدجه الآخرون. خفض جفونه، عاجزًا عن تحمّل النظرة غير المسبوقة الّتي تنحطّ عليه؛ وكثعبانٍ يلسعُ في اللّحظة الّتي نخالهُ فيها ميتًا، هتف والحنق على شفتيه:

- لماذا تجتمع بنا؟ هل تنوب الشّرطة؟ العدالة؟ هل توزّع الأحكام، أيضًا؟

كان إعجاب وليم غولدن بمقاومة ستانوفسكي، وشجاعته، وعدوانيّته؛ هُوَ مَا دفعه قبل عدّة سنواتٍ خلَت إلى التّعاقد معه.

- جمعتكم للعمل على السّؤال الّذي يستبدّ بي: ما العمل؟

مدّ جسده الفارع الّذي لا يزال مشيقًا، استعاد الملفّ الأخضر وراز الرّجال العشرة.

- ما العمل؟ لن ننتظر، مثل محكومٍ عليهم بالإعدام، اقتحام الفرقة، لتفتّش، وتأخذ معها الحواسيب والأرشيف. لا بدّ أن نتحرّك، أن نقاوم، نتدخّل بأفضل ما يمكن في سير الأمور.

كان ذا هيبةٍ صارمة، يتحدّث بحماسٍ دون أن يحمى. دنا من بابٍ في عمق القاعة، يفتح على مكتبه. توقّف عند العتبة.

- أمنحكم ساعةً للتفكير. سوف يجيئونكم بالماء والسندوتشات. أمّا أنا فسأركّز، ثمّ ألتحق بكم.

دفع مصراع الباب، وقد لفّه ندم:

- أرجو المعذرة سادتي. أترك هنا أشخاصًا نزهاء برفقة نصّابين. وفوق هذا، أطلبُ منكم التّعاون. هذا يسيء إلى أمانتكم، أقرُّ بذلك، ولكنّ الشّرف لا ينفردُ بامتلاك البصيرة. إلى لقاءٍ قريب.

أغلق الباب المنجّد بعناية، لأنّه لا يرغبُ في سماع ردود الأفعال الّتي سوف تندّ، ثمّ جلس على أريكته ذات الجلد الأحمر الرمّانيّ.

من صدرته، أخرج ساعة جيب، فتح عمقها، وتأمّل الصّورة الّتي تزيّن داخلها. تنهّد وهو يتفحّص الوجه.

- وأنتِ، ماذا كنت ستفعلين؟ كان البورتري يبتسم.

***

كان يطلَق عليهم «النّسور» وهم على قناعةٍ بذلك.

شبّانٌ، معتدّون بأنفسهم، مندفعون، مغرورون، كانوا يشكّلون جماعةً تولّى وليم غولدن رئاستها بعفويّة. جنبًا إلى جنب، كان الفتية السّتّة يكتشفون الحياة بشراهةٍ، وهم شغوفون وضجرون في الوقت نفسه.

- تقبلُ التحدّي أم لا؟

- أقْبَل!

عاري الصّدر، قطع وليم غولدن جسير الخشب المترنّح بأقصى سرعةٍ، دافعًا رجلَيه بقوّةٍ وارتمى في الفراغ، ويده على أنفه. صفعت صفحة البحيرة جسده، وابتلعه البرد؛ مدوّخًا، انتفض في الماء ليطفو على عجلٍ، أخرج رأسه من الماء، تنفّس، ثمّ سُرّ بأنّه أفلح، فحوّل صيحة ألم إلى صرخة نصر:

- واه!

ولكي يُغالب الرّعدة، سبح بسرعةٍ نحو الضفّة، محاولًا أن يسخّن بدنه بكُرَول[1] منتظمٍ، معرّضًا نفسه لاختناقٍ محتمل... إذْ لا ينبغي خاصّةً إظهار أدنى علامةٍ من علامات الضّعف. يتفاخر، يتحمّل. كانت حركاته موجهّةً إلى الجماعة الّتي يُثير إعجابها، والّتي

(1) Crawl: سباحة سريعة يكون فيها الرأس مخفوضا في الماء، مع تحريك اليدين والساقين بالتناوب.

يحرص على أن يبقى زعيمها. خرج من الماء مفرط الحيويّة حتّى لا يُرى أنّه يرتعد، وصرخ وهو يعصر أسفل سرواله الدّاخلي:

- رائع!

- أليس الماء باردًا جدًّا؟

- كلاّ. والآن، حان دوركم يا رفاق!

ترامق الفتية في حرج وتردّدٍ وارتباك. ابتهج وليم لصرف انتباههم، لأنّ ثناياه كانت تصطكّ بعضها ببعض. كانت بحيرة الجبل تحافظ على درجة حرارةٍ جليديّةٍ في الصّيف، خصوصًا إذا ما ارتمى فيها المرء بعد نهار مشمس. كان وليم في الواقع يخشى الإغماء البرديّ عند انطلاقه؛ بل إنّه، خلال الوقت القصير الّذي قضّاه معلّقًا في الفضاء، استعدّ للموت؛ بَيْدَ أنّ شيئًا أقوى من العقل دفعه، حبّ السّيطرة، السّيطرة على نفسه، والسّيطرة على الجماعة، والسّيطرة على العالم. كان نسر النّسور.

عند كلّ رهانٍ، كان وليم يخدم المجموعة ويستخدمها أيضًا. كان يعرّض نفسه طوعًا للخطر منجذبًا إلى ما هو استثنائيّ؛ نشوان بجسده الفتيّ، والقوّة الّتي يحويها، كان يجرّبه في التّزحلق على الجليد، في ركوب الدرّاجة، في السيّارة -ولو من دون رخصة سياقة طبعًا- ويجمّع تشكيلةً من الرّهانات الشاذّة. عند سماع عبارة «تَقْبَل التحدّي»، تملؤه شحنةٌ من الأدرينالين فرحًا تضاعفه متعةٌ كبيرةٌ مرتقبةٌ.

بدأ رفاقه يضعون القمصان والسراويل على حافّة البحيرة. لم يُبدوا ما أبدى من إقدام. وهذا طبيعيٌّ لأنّهم لا يملكون هوَسه.

كان وليم مدعوًّا إلى إثباتِ جدارته أكثر منهم، لأنّهُ كانَ أقلّهم شأنًا. هؤلاء الفتية الخمسة ذوو السّبْعَ عشْرَة سنة ينحدرون من عائلاتٍ موسرة جدًّا، مليونيري معهد لويس الأكبر. في باريس، يُدير آباؤهم شركاتٍ مشهورة، بينما كان والد وليم يدرّس الاقتصاد في جامعة دوفين. صحيحٌ أنّ هذه المهنة لا تسيء إلى وليم، ولكنّ الرّاتب لا يمكّن العائلة إلاّ من نمط عيشٍ متواضع، يجعله خارج حلقة النّسور. وما قُبل فيها وليم إلاّ لأنّ عمّه، صامويل غولدن، الّذي أثرى بعمليّاتٍ في البورصة، أسّس منذ وقتٍ قريبٍ بنكه الخاصّ؛ وقد أسهبت وسائل الإعلام في الحديث عنه بهذه المناسبة حتّى انعكس ذلك على ابن أخيه وليم وجعل الورثة يتودّدون إليه.

- تقبلون التّحدّي أم لا؟ هتف وليم.

- نَقبل! أجابَ الفتية الخمسة في خفوتٍ.

لم يتحرّك منهم أحد. كانوا متردّدين.

كان وليم يلتذّ بتفوّقه، فوجدها فرصةً كي يعزّز ذلك التّفوّق فقال:

- حذار، أنتم تعرفون المبدأ: إن لم نقفز خلال ثلاثين ثانية، فلن نقفز أبدًا.

قبلوا وهم يراوحون مكانهم ولم يتقدّموا.

أطلق وليم صرخة:

- بَنزايْ![1]

---

(1) Banzai: كانت تقليديًا تستعمل لتقديم تمنّيات بطول العمر، ثمّ تحوّلت أثناء الحرب العالميّة الثانية إلى صيحة حربيّة يطلقها الطيّارون الكاميكاز في عمليّاتهم الانتحاريّة.

وفي غمرة صيحته، انطلق يعدو مرّةً أخرى على الألواح الخشبيّة. دون تفكيرٍ، اندفع الفتية يجارونه، وجروا خلفه وهم يزعقون ليجدوا أنفسهم في عمق البحيرة.

وما كادوا يطفون على السّطح حتّى ضحكوا مبتهجين، وأرسلوا ابتسامات انتصار، معترفين لوليم بالجميل: فهو الّذي قادهم مرّةً أخرى إلى مغالبة أنفسهم. وليم يظلّ بحقٍّ زعيمهم.

تسابق الشّبّان بعدها على طول حافّة البحيرة لكي يجفّوا بسرعة، ثمّ لبسوا ثيابهم، وصعدوا نحو مسكنهم وسراويلهم الدّاخليّة المبلّلة في أيديهم.

كانوا يقضون شهر أغسطس ذاك في جبال الألب. وكان والد بول أرنو يملك «شالي» فاخرًا قرب كلوزي، ففتحه لابنه وأصدقائه. يا لها من فرصةٍ سانحة! إن كان ثمّة زوجان خادمان يتولّيان إدارة شؤون البيت -الزّوجة للمطبخ، والزّوج للصيانة-، فإنّ الشبّان، وقد تخلّصوا من الأولياء الّذين قد يحاسبونهم عمّا يفعلون، يشعرون شعورًا عارمًا بالحرّيّة. كانوا ينظّمون أيّامهم على هواهم، وبالأحرى لا ينظّمونها، بل ينساقون للرّغبة، وما يعنّ بالبال، والارتجال.

بينما كانوا يصعدون الثنيّة المحفوفة بحشائش مصفرّةٍ من أثر قيظ أغسطس، لمحوا في علوّه فتاةً تَردي، ومعها عنزةٌ وكلبٌ ذو شعر منفوش.

- ها هي السّاذَجة!

ضحكوا، فارتجف وليم.

منذ أسبوعين، كانت كنية السّاذجة تطلق على الفتاة الّتي يبدو طَيْفها عند القمّة، وهي خفيفةٌ، مرحةٌ، متوحّدةٌ مع الطّبيعة الّتي تفيض حيويّة. هل كانت جميلةً؟ مشعّةً لأوّل وهلةٍ. وعندما ندنو منها نكتشف جسدها المكتمل، المفعم بالحماسة وبشبقيّةٍ ناضجة، ذاك الجسد المهيّأ للاستعمال، بشرتها الملساء، المشدودة، تتبدّى تحت شعرها النّاريّ، ومن مسافةٍ أقرب تبدو تفاصيلها الفاتنة مثيرةً، نمشٌ على خدّيها، وزغبٌ بديعٌ على قفاها الأبيض.

للأسف، كانت الفتاة تشكو من تخلّفٍ ذهنيّ. يُقال إنّ انفتال الحبل السرّي حول رقبتها عند الولادة أحْدَثَ اختناقًا وأتلف جوانب من مخّها. فقد نطقت في سنٍّ متأخّرة. وسبّبت لها المدرسة صُداعًا لأنّ القراءة والكتابة والحساب لا تتناسب كثيرًا مع قدراتها.

– احفظوا ألسنتكم! الأب زِيان يتبعها.

كان طَيْفٌ مهتزٌّ يقفو المتوحّشةَ.

ساذجةٌ، واسمها في الواقع ماندين، كانت تعيش وحيدةً مع أبيها العجوز. كان الأب زِيان بارز العظام، نحيفًا، أشدّ هزالاً من فرع كرمة، ذا شَنَب قطٍّ غاضبٍ، وأقلّ نطقًا من حيواناته. كان جفولاً مرتابًا، أبيض الشّعر أسود النظرة، يعرج دون مبالاةٍ لعرَجه، كأنّ العرج طريقة مشي طبيعيّة. كانت ماندين تدور بغبطةٍ بين عنزتها وكلبها. وكلّما فكّرنا في خلل ذهنها، ألفَيْنَا في مقابل ذلك جسدها بارعًا، وساقيها طويلتين، وقامتها مرنةً، ومشيتها مطاطيّة. لا يُعادل فتنتها الجسديّة إلاّ نقصها الذّهنيّ.

- وليم، عيناك لا تفارقان السّاذجة. هل تعجبك؟

انتفض وليم، ثمّ قال لجيل الّذي كان يتهكّم عليه:

- أنتَ تمزح؟

- أوه، لو ترى وجهك!

- أنا أشفقُ عليها.

- وليم تحوّل إلى قدّيس، يا أصدقاء! إلهي، ما ستفعل قدسيّتُكم لهذه العذراء ذات العقل النّائم؟ تُجامعها كي تخلق صدمة؟

- جيل!

- يبدو أنّ الفكر يأتي إلى البنات بهذه الطريقة.

- كفّ عن حماقاتك.

- بجدّ: ضحٍّ. مُضاجعة السّاذجة قد يُسلّكُ سحاياها. ثمّ، تصوّر، إن جرت الأمور على ما يرام، أيّ تقدّمٍ سيحرزه العلم.

انقذف وليم نحو جيل، حصر رقبته بين ذراعيه وتظاهر بخنقه. تصنّع الآخر الاختناق وبدآ المصارعة.

ما لبث الرّفاق الأربعة أن اختاروا بطلهم وراحوا يشجّعونه. سخنت الرّؤوس، ونما الضّغط، إلى أن تماسكوا جميعًا، وتلاكموا، وتشبّث بعضهم ببعض، فوقعوا أرضًا وتدحرجوا في الأغيال. وفي بضع ثوانٍ، نسوا لماذا تعارضوا، فقط لمتعة التهارش، مثل جراء تُظهر أنيابها دون عضٍّ أبدًا.

عندما تعبوا، أعلنوا عن نهاية المعركة، واستعادوا أنفاسهم وهم

يتمرّغون على العشب، والرّؤوس باتّجاه السّماء.

كانت ماندين والأب زِيان والعنزة والكلب أسفل المنحدر يغوصون في ظلّ أشجار السّرو، وشعرُ ماندين الأصهب يوقد العتمة، وما عاد يُرى غير ذلك الاحمرار.

تأمّلها وليم إلى أن توارت.

في حقيقة الأمر، من حسن الحظّ أنّ ماندين كانت متخلّفةً ذهنيًّا! وإلاّ لأفقدت النّسور صوابهم. لو اضطرّ الفتية إلى التّصرّف كذكورٍ أمام جمالها، لتعذّبوا؛ ولو كانت طبيعيّةً لفرّقت بينهم. أجل، لقد نجوا من خطر. أمّا في تلك اللّحظة، فكانوا متّحدين، عاشقين مجموعتهم وتوافقهم، أوفياء لبعضهم بعضًا كوفائهم لخطيبة. اقتحم صداقتهم الذّكوريّة خوفٌ من النّساء، أولئك النّساء اللاّتي يتجسّسن عليهم، وعمّا قريب سيفرّقن بينهم، وسيعلنّ وداع طفولتهم النّهائيّ. كانت العطلة تتلوّن بألوان الخريف لتعلن عن مُهلةٍ أخيرةٍ. كانوا يتكاتفون، فعمّا قريبٍ لن يكون الجسد الّذي يُريدون لمسه هو الجسد العادي لصديق، بل الجسد المتينُ للمُغوية، المغامِرة، عروس البحر الّتي تُضلّ، المرأة المرهوبة والمرغوبة. كانت إعاقة ماندين تجعلهم في مأمنٍ، يسمح لهم بألاّ يولوها من الانتباه أكثر ممّا يخصّ به طفل. لم يكن يُحسب لها حساب. عاهتها تجعلها بنتًا أقلّ وتجعلهم أولادًا أقلّ.

لكي يتّقوا فتنتها، كانوا يلحّون على صعوباتها، وحماقاتها، وهفواتها، يحكونها في ما بينهم، ويعيدونها، ويبتدعونها أحيانًا، ولو أدّى ذلك إلى الاعتراض في حالة المبالغة المتكرّرة: «آسف، لا نعير إلاّ

الفقراء!» كان المراهقون يجهدون في الحطّ منها بما في سنّهم من قسوةٍ شديدة. فُضّل اسم ساذجة على ماندين، ثمّ آلت الأحكام الاجتماعيّة المسبقة إلى إقامة جدارٍ واقٍ: قرويّةٌ تمرح من الصّباح إلى المساء في المراعي الجبليّة ليست من طبقتهم الاجتماعيّة، الحضرية، المهذّبة، الموسرة فقط، بل تكاد لا تنتمي إلى الجنس البشريّ. تقضي وقتها قرب الحيوانات! لا رفيق لها سوى عنزة وكلب! تنام على القشّ! ترقد مع الدّجاج! تستيقظ مع الديكة! لكثرة ما عاشت مع الحيوانات أصابتها عدواها.

شبعوا من الشّمس، ضجروا من التّعب، فقرّروا في ذلك المساء أن يتناولوا العشاء على شرفة «الشالي».

اتّكأ وليم على الدرابزين وراح يتأمّل المنظر الطبيعيّ أسفله، القرية الهادئة وهي محصورة بين جدارين من الجبال، الحقول الصغيرة المحدودة بتلال من الحجر، غابات الأرزيات وهي تتلوّن بألوان الحبر.

عند غروب الشّمس، ظلّلت الكآبة الوادي. وكلّما تضاءل النّور، انبعثت روائح، كانت متمنّعة، وانتظرت الغروب كي تتنفّض: راتنج[1]، فُطر، أزهار تتنفّس... وكانت الرّطوبة، المحتجزة كامل النّهار، تثأر وتنقضّ على الفتية؛ كانوا يحسّون في عضلاتهم وعلى جلودهم برغبةٍ أخرى غير التّسابق، والتّباري، والتّراهن، والتّلاكم. تأثّروا بالطبيعة الّتي صارت أنثى تشدّهم إليها، كانوا يطلقون رغمًا

(1) Résine: مادة صمغيّة لزجة تفرزها بعض النباتات لا سيّما الصنوبر.

عنهم تنهّداتٍ مضنيةٍ، ويحلمون بالعذوبة، يُثيرهم نداءٌ لا يستطيعون تسميته بعد.

مدّ جيل كأسًا لوليم، ثمّ تلذّذ بكأسه حذوه.

- لم أكن أمزح: أنتَ تلتهمُ السّاذجة بعينيك.

- هراء.

- تُعجبك؟

- تُعجب الجميع إلى أن تفتح فمها. عندئذٍ...

- المرء لا يُضاجع مخًّا.

- ثمّة حدود... تتخيّلني، أنا، أُضاجع بنتًا لم تقرأ كتابًا قطّ، وتملك زادًا لغويًّا أقلّ من زاد كلب، وخير صديقةٍ لها عنزة؟ ماذا سيقول أحدُنا للآخر قبل ذلك؟ وعمّ سنتحدّث بَعْدَه؟ الرّحمة! أنا لا أغازل المعوقين. أمام معتوهةٍ، لا يستطيع عضوي حتّى أن ينتصب.

- ولا أنا، في هذا! أقرّ جيل.

غمّسا شفتيهما في الخمر المتينة الّتي لها طعم الكمأة، وهي متأتّيةٌ من كرم أسود. وللتّشبه بالكبار، ضغضغا السّائل ثمّ بصقاه.

في مسرب ينثني كيفما اتّفق، كان قطيع أبقار تخور بكلّ قوّتها عائدًا إلى الإسطبل. انطفأت السّماء. هتف جيل:

- تقبل التّحدّي؟

- عفوا؟

تقبلُ التّحدّي أم لا تقبل؟

- عمّ تتحدث؟

- مُضاجعة الساذجة.

- أوه، لقد جننت...

- تنخذل!

- اخرس!

التفتَ جيل، ورفع صوته ليُشرك المجموعة:

- يا رفاق، وليم خانته شجاعته! عرضتُ عليه رهانًا فتهرّب.

- أيّ رهان؟

- مُضاجعة السّاذجة!

انفجروا ضحكًا، ضحكًا حلقيًّا قويًّا، قويًّا جدًّا، مركّزًا، ملحًّا.

عندما رأى وليم أصدقاءه مكشّرين وهم يضربون أفخاذهم، اعترته موجة تقزّز. كان ضحكهم المبالغ فيه يعكس حرجهم، وعدم نضجهم، وضيقهم كأبكار يتشنّجون لأدنى حديثٍ جنسيّ؛ ألفاهم فجأةً أهلاً للرّثاء، أنذالاً، ولهذا السّبب، سمع نفسه يجيبُ بقوّة:

- أقبل!

خلال الأسبوع الموالي، ابتعد وليم عن المجموعة، فقد منحه النّسور الوقت ليُطارد فريسته. وبالرّغم من ندمه على قبول التّحدّي، كان يُبارك السّاعات الّتي يقضيها وحده، في أثر السّاذجة رسميًّا، ولكنّه في واقع الأمر كان مستلقيًا يتابع الغيوم، ويبحث عن شبهها بالأشياء

الأرضيّة، هنا عملاق يعزف على البوق، وهنا باقة لاوندة، وهناك كمثرى؛ وفي أحيانٍ أخرى، يخرج من جيبه كتابًا. منذ شهر يونيو، تعلّق بجيمس بوند، بطل يان فليمنغ، الجاسوس الأنيق الّذي يجمع خصالاً تتوزّع عادةً في أشخاص كثيرين، الإثارة، الذّكاء، الذّاكرة، برودة الدم، الظّرافة، الإغواء. جيمس بوند، الّذي يقع من البشريّة موقع السكّين السويسري من المدية، كان يسحر لبّه بثقته في نفسه، تلك الثقة الّتي يودّ هو تقليدها.

انتبهت ماندين أيضًا إلى وليم. تكرّمت عليه أوّل مرّةٍ ببسمة رائعةٍ، بسمةٍ سخيّةٍ بشكلٍ لا يصدّق منحت فيها نفسها بغير تحفّظ. ورغم تفاجئه، ردّها وليم عليها بغير عناء. هل احمرّت خجلاً؟ لا يجزم بذلك، غير أنّها عجّلت الخطى، داعية بفرقعة أصابعها العنزة والكلب إلى استباقها دون تأخير. ومنذ تلك اللّحظة، صارت تلك البسمة تطول شيئًا فشيئًا وصار هروبها يقلّ شيئًا فشيئًا.

طوّق وليم الثنيّات الّتي كانت تسلكها، وكانت لها صلة بمختلف الأعمال الّتي تؤدّيها. ولئن لم يلحظ من قبل غير متوحّشة ترتع بحريّةٍ في الحقول، فإنّه صار يَعلم أنّها تقضي نهارها في العمل ولا تنقطع عنه أبدًا.

لماذا لم يُبادرها بالكلام؟ أسبابٌ كثيرة كانت تكبحه. أوّلاً، كان يلتذّ بوحدته بعيدًا عن المجموعة بشكلٍ لا يجعله يتعجّل إنجاز مهمّته. ثانيًا، كان جسد ماندين المتين، السّليم، المتألّق يُبهره. وأخيرًا، كانت غريزة الصّيّاد توحي إليه أنّ الطريدة ينبغي أن تجيء بنفسها كي يَقبض عليها.

كان الصّيف مهيمنًا في ذلك اليوم. شمس الزّوال القائظة تُضني الجبال. ما عاد شيء يتحرّك. لا عصفور يزقزق، ولا حجر يتدحرج. كان الحرّ قائظًا بشكلٍ دفع وليم إلى اللّواذ بظلّ شجرة مورقة.

فرّت ماندين من ذلك الخمول المقعِد ونزلت العقيق الغربي مخفورةً بعنزتها وكلبها، فعثرت على وليم تحت السنديانة. كان يقرأ.

اندفعت نحوه. توقّع حدوث شيء مّا، فاضطرّ إلى تصنّع التّركيز ولم يرفع رأسه إلاّ آخر لحظة.

تعطلّ نفَسه.

لم تكن ماندين أكثر جمالاً من تلك المرّة. كانت تلتمع أمامه شهيّةً مثل ثمرةٍ. تنّورتها السّيّئة الحياكة، ومئزرها البالغ الشدّ جعلا جسدها أكثر إثارةً للرّغبة؛ جسدٌ يستمدّ فتنته من ذاته، لا من زخرفة ثياب. تملّى وليم بشرتها الرّمليّة، ثغرها اللّبابيّ، كتفيها اللّبنيتَين اللّتين تبدوان تحت الصدار.

أمالت رأسها جانبًا ثمّ انفجرت تضحك ضحكًا طبيعيًّا، مسكرًا، مبتهجًا بغير سخرية. كانت عناصر مبناها -الصدر، الوركان، الفخذان، الربلتان- تُربك وليم الّذي لم يتأمّل قطّ في امرأة لحيمة، فالموضة كانت تلزم فتيات وسطه على النّحافة. بدت له تلك الاستدارة غير لائقة، في غير محلّها، مزعجة، جذّابة.

- أنا ماندين.

- وليم.

أعجبها الاسم، فأعادته في خفوت عدّة مرّاتٍ، ولاكته وتذوّقته.

ثمّ جلست بقربه.

- من أين قدمت؟

- من باريس.

هزّت ماندين رأسها منبهرةً وهي تكرّر «باريس». لم يكن ليثير إعجابها أكثر لو قال «المريخ». ومن الوقت الّذي استغرقه انذهاله، قدّر أنّ عقلها كان يطحن بجهد.

انحنت وصوّبت نحوه بسمةً مدمّرةً، وهي ترشقه بعينيها البندقيتَيْن. ارتعد. في تلك البسمة تتبدّى ألف جملة: «تُعجبني»، «أريد أن أبقى بجانبك»، «أشتهيك»، «افعل ما بدا لك»، «ماذا تنتظر؟»...

سارع دم وليم دورته، ونفخ عروق رقبته؛ خشي أن ينفجر.

حينما ارتجف، لامست يده ركبة ماندين. تضاحكت. تباطأت اليد عندها. ضحكت. داعبت اليد تلك البشرة النّاعمة.

فجأةً، وبينما كانت يد الفتى تنحدر على فخذها، نطّت ماندين، تراجعت ثلاث خطوات ولبدت خلف الجذع جذلانة. فهم وليم اللّعبة. قام وبدأ يلاحقها.

تلت ذلك لعبة تخبئة، كانت ماندين خلالها تكاد تتركه يمسك بها، ثمّ تهرب، ثمّ تتباطأ. وكان وليم يُجاريها في لهوها فيبدو أكثر منها رعونةً؛ بل يُمعن في التّظاهر بالبلاهة فيسقط تباعًا ليولّد لديها تلك الضّحكة الحلقيّة الّتي تفتنه.

أيّ بلسمٍ في مخاتلة الكلام! في عدم التّغزّل بعباراتٍ استعملت مائة

مرّة! وداعًا لتلك المقدّمات المملّة! كان يعشق تلك الملاحقة الحيوانيّة، الهزليّة، الفكهة، الظريفة الّتي تقابل استعراضات زفاف تعرفها كلّ الأجناس. أخيرًا، شيءٌ من البساطة!

في اللّحظة الّتي قرّرت ذلك، أمسكَ وليم ماندين وتدحرجا متلاصقين وسط السرخس. عندما وجدا نفسيهما وجهًا لوجه، وضع وليم، برقّةٍ ولكن دون تردّدٍ، شفتَيه على شفتَيها.

عاش تلك القبلة كانشراحٍ، مثل وردةٍ تتفتّق تحت أشعّة الفجر.

نشوان، مباغتًا، استعاد تنفّسه فتمتمت في هيئة بَتُولٍ تتضرّع:

- هو أنتَ حبيبي إذن؟

- ينبغي أن نصدّق.

- انتظرتُكَ من زمان.

- أنا؟

- حبيبي.

أغضت جفونها، فأدرك وليم الرّسالة بين الكلمات: كانت عذراء.

كَبَحه وسواس. ألا يكون قد مضى بالرّهان بعيدًا؟ يهتك عرض بنتٍ مسكية ليتبجّح أمام رفاقه.

لاحظت تردّده.

- لا تخف، تمتمت وهي تقبّله مرّةً أخرى.

هذا المرّة، لم يَدْرِ أيّهما كان يُغالب الخوف.

تملّصت من ذراعيه وانسحبت على جنبها، وفي ربع ثانية قامت.

- غوست! بلانشيت!

لحق الكلب الأصفر والعنزة بسيّدتهما.

ابتسمت لوليم في خبث.

- إلى الغد.

ارتاح أنّها حملت عنه وزر علاقتهما.

- إلى الغد، ردّ.

وتوارت ماندين خلف الأشجار الكثيفة. اعترى وليم إحساس بأنّه يعيش عدّة حيوات. وبالأحرى أنّه يستخلص عدّة حكاياتٍ من وجوده.

روى للنّسور أنّه يتقدّم، وأنّه إن كان قد استولى على عقل السّاذجة، فإنّ جسدها سوف ينهار عمّا قريب. ولمّا خلا إلى نفسه، تردّد في تخيّر السّلوك الّذي ينبغي اتّباعه: أَيغْتنم حظّه بأنانيّةٍ أو يتخلّى عاجلًا عن هذا الرّهان الأخرق الّذي يعذّب بواسطته بريئةً تُسلّم نفسها للوَلَه. وعندما يكون أمام ماندين، يكفّ عن التّساؤل، فيقبّل يدَيْها الصّغيرتين، اللّتين تتميّزان بغمّازتين ورديّتين عند قاعدة الأصابع، ويداعب خصلاتها الصهباء عند منبت العنق، ويخضع لنوعٍ من التّنويم ويلبس دون اعتراض الدور الّذي تحدّده له: حبيبها الّذي قد تتنازل له، بعد فترة حياء.

كان أغسطس يمضي إلى نهايته. وظلّت الأنهار قائظةً وإن تقلّص منسوب مائها. قدّر الفتية أنّ العطلة توشك على النّهاية، فأحسّوا من ذلك نوعًا من الحنين المسبق.

أعلم وليم ماندين بأنّه لم يَبْقَ له سوى ثلاث أمسيات. ودون أن يتلاعب بها كما يتفاخر أمام رفاقه، كان يتركها تتصرّف على هواها.

بعد ساعة الزّوال الّتي قضّياها معًا، يدًا بيد، في التّجوّل على حافّة الجدول الشادي، غمغمت:

- هذا المساء، العاشرة، في هُري شِرباز.

امتقع لونه، دون أن يحدّد ما إذا كان عن فرحٍ أم عن تأسّفٍ: سيتمّ ذلك إذن...

عند عودته إلى «الشالي»، ولكي يقي موعده، تظاهر بآلامٍ في المعدة حتّى ينسحب إلى غرفته قبل نهاية السّهرة، ولحسن حظّه أنّ الغرفة تقع في الجناح المنعزل.

هناك، أغلق القفل، استحمّ، فتح النافذة ومضى تحت ستار اللّيل.

كانت النجوم قد لطفت الجوّ. ومن فرط تلهّفه، وقع عدّة مرّاتٍ في الوهاد والحفر الّتي لا يعرفها إلاّ نهارًا، واصطدم بجدرانٍ صغيرةٍ، وزلّ في صخورٍ، ولكنّه لم يخفّف سيره. رغم الظلام، كان يتبيّن كتلة الهري الواطئة والمتكوّمة. في الجوار، تحوّلت الغابة إلى سور مُحزن سَيّئ النيّة. متفجّرًا، متوقّد الوجنتين، بلغ الزريبة مجروحًا، وعلى لسانه طعم الدم، لأنّه لحس جروح ركبتيه ومعصميه كي يوقف النزف.

عندما اجتاز الباب الوطيء، احتضنته ذراعان، وقبّلته ماندين بحماسٍ لا يضاهى. ردّ عليها قُبلتها حدّ التّيه.

في عمق الغرفة الوحيدة، غير بعيدٍ عن الشياه، بُسط لحافٌ نظيفٌ

على حشيّة، في هيئة فراشٍ تُحيط به هالة من ضوء شمعةٍ مرتعشٍ.

جثا كلاهما وجهًا لوجه.

كانت نداوة المرتفعات لا تصل إلى المبنى إلاّ ملطَّفةً.

وبحركةٍ منها، أسدلت شعرها فاشتعل. ثمّ أومأت بنظرها إلى عشيقها المنبهر كي يخلع ثيابها.

حين عرّاها، اكتشفَ جسدَها المكتنز بشكلٍ مثاليّ، ثدييها الصّافيين، المتورّدين قليلاً، سرّتها العالية، ورِكيها اللّذين يستدعيان القُبل والمداعبات.

حين عرّته، اكتشفت بطنه المسطّح، عظامه المتينة البارزة، شعره المرسوم على صدره، عضوه الّذي يناديها بكلّ قواه.

تضاجعا.

عند الفجر، حين تكثّف النّدى في شكل دخان فوق الوادي، وجد وليم صعوبةً في ترك ماندين. ولكنّه لم يجد صعوبة عند هبوط اللّيل في استعمال الخطّة نفسها لكي يغنم معها ليلةً أخرى.

وبخلاف ما كان يتوقّع، أظهرت ماندين تحكّمًا تامًّا في اللّذّة الجسديّة الّتي كانت تتدرّب عليها. كلّ حركة، من أكثرها حياءً إلى أكثرها جرأةً، بدت لها مشروعةً. كان مفعمًا، ينظر بإعجاب إلى جرأتها الطبيعيّة ويشغف بجماعها. كانت تنتقل بغتةً من حالٍ إلى حال، من نومها العميق إلى صراخها «أنا جوعانة» ذاك الصّراخ الّذي يلقي بها عند قدميه. مفاجأةٌ، رغبةٌ، بهجةٌ، شبقٌ، تعبٌ... كانت تعيش كلّ ذلك بشراهةٍ، مثل طفلٍ تأخذه اللّحظة.

في آخر سبت، نظّم الفتية حفلًا، طافحًا بالشرب، قد يدفن بجلاءٍ عطلتهم العجيبة. لم يكن وليم يرغب في إضاعة آخر لحظة مع ماندين، فدبّر وسيلةً لتجنّب الشرب:

- اللّيلةَ أختم، يا أصدقائي!

- أوه!

ظلّ الفتية فاغرين أفواهَهم، واندهشوا كثيرًا خصوصًا أنّهم، في ما بينهم، قدّروا أنّ وليم خاب سعيه. استشعر وليم حاجة إلى التشدّق:

- هي تنتظرني في السّاعة العاشرة.

- أين؟

- لا حقّ لي في ذكره.

- في بيتها؟ ستنكح السّاذجة في فراشها، بينما الأب زِيان وراء الحاجز يعلّق على رهزاتك؟

- كلاّ، فالجهة لا تَعدم زرائب ولا إسطبلات... لم يفتكم ذلك؟

صفّر جيل إعجابًا.

- بصراحةٍ، يا صديقي، برافو! أنتَ، على الأقلّ، لست مفرطًا في التعفّف[1].

فكّر وليم في اللّحظات السّاحرة مع ماندين، ولولا ذلك لضرب هذا الأبله. بدل ذلك، قطّب بمكر.

---

(1) Bégueule: صفة تطلق عادة على المرأة الّتي تبالغ في التعفّف.

- الرّهان رهان! ينبغي أكثر من هذا لإيقافي.

في السّاعات التّالية، لاحظ وليم، من موقف النّسور، أنّه استعاد اعتبارًا ضاع دون أن يتفطّن، لشدّة تحليق أفكاره في مواضع أخرى. استخلص من ذلك احتقارًا، دون أن يستطيع تحديد ما إذا كان يحتقر الفتية... أم نفسه.

لا يهمّ! المهمّ فقط ليلته مع ماندين. هذه المرّة، لم يحتج إلى التظاهر بالمرض، أو تسلّق الشباك، مضى تحت نور المشاعل، مصحوبًا بتهاليل النسور، مدعّمًا بتعاليق: «قبّل لي السّاذجة!»، «قل لنا هل تستعيد النطق، بعدها مباشرة!»، «احذر الإصابة بالسفلس!»، «احتفظا لي بجرو!»...

صرّ أسنانه، هزّ كتفيه، وما كاد يختفي عن أنظارهم حتّى بلغ الزريبة جريًا.

تكشّفت تلك اللّيلة عن روعةٍ وتمزّق. بكت ماندين بقدر ما ضحكت. بلغا النشوة مرارًا، في سعادة، وفي يأس، وفي تفاقم. وعد بكلّ ما طلبت، بصدقٍ ولكي لا يثير حزنها في الآن نفسه. قبل الفجر، في لحظة استسلامها للنوم، غادرها.

في القطار الّذي عاد بهم إلى باريس، عامل النسورُ وليم كبطل. ولئن تعلّل بالتّعب كي لا يسهب في الإجابة عن فضولهم المجتاح، فقد رضي برسم ملحمة عن بطولاته، في سرديّةٍ تهدف إلى إطفاء عطشهم وحماية الحقيقة. كان يرى في عيونهم أنّه حقّق نصرًا مبينًا والحال أنّه محبط. بعد بضع ساعات، صار كلّ شيء يثير اشمئزازه، هذه العودة،

رهانه، تَباهيه، مواطأته ماندين، ردود أفعال أصحابه. ومن كثرة ما أعادها وسمع نفسه يعيدها، صدّق السرديّة الّتي ابتدعها، ثمّ أقسم ألاّ يفكّر ثانية في ماندين الحقيقيّة وأن يلقي كلّ ذكرياته إلى العدم.

كان عامٌ دراسيّ قد بدأ، مع نصيبه من المواد الجديدة، والصعوبات غير المعهودة. تفاءَل وليم بأنّه سوف يتوصّل إلى النسيان.

بعد وقتٍ قليلٍ من بداية الدروس، تلقّى رسالة. ظنّ من مظهر الظّرف أنّ في الأمر خطأ: ورق خبازيّ اللّون، حبرٌ فيروزي، أحرف سيئة التشكيل، قلوب وأزهار مرسومة في شكل إكليل على الأطراف، كأنّها رسالة طفلةٍ في الابتدائيّ. بَيْدَ أنّ اسمه وعنوانه كانا على الوجه.

كتبت له ماندين:

«وليم يا حَبيبي. اِشْ تقت لك. مَتا تعود؟ أُحِبُّك. ماندين».

رمى الورقة بعيدًا. يا للخزي! لم يكن يُريد فقط أن يتخلّص من تلك المرأة السطحيّة، الحمقاء الّتي لا تستطيع أن تكتب كلمةً واحدة دون خطإ، بل كان يُريد أيضًا أن يدحر وخز الحنان الّذي كان يشعر به.

على ضوء النّحو المختلّ، والخطّ المتعثّر، ولطخات الحبر الّتي تشوّه كلّ سطر، أيقن أنّ ماندين تتلخّص في السّاذجة. بعد رسالة كهذه، لا مجال لمواصلة الأوهام. السّاذجة لا تستحقّ لا حبّه ولا صداقته. ولا شيء. اعتبر نفسه مدنّسًا. ليس هو الّذي لوّثها، بل هي الّتي لوّثته.

«ماذا دهاني؟».

تذكّر الرهان وقرّر أنّ المغامرة ما كانت لتقع لولا ذلك التّحدّي. في بضع ثوانٍ، أعاد ترتيب ذكرياته الصّيفيّة، وصوّر نفسه كمتلاعبٍ منتصرٍ -جيمس بوند في مهمّة- واستطاع أن يمنح نفسه من جديدٍ إهاب البطل. كذلك خُلق الإنسان فالذّنب هو من شأن العواطف الهاربة، أمّا الشّعور الدّائم فيبقى الاعتزاز بالنفس.

وبما أنّه لم يجب، تلقّى رسالةً ثانية:

«يا حَبيبي. لَمْ تاتَلقّ ريسلَتي؟ أُحِسّو بألَمِنْ في بطني لِشدّتِ مَشتَقتُ إليك. أُحِبُّك. أنطذرك. تعالا بيسُرعَ. قُبُلاتِ. ماندين».

ألقى الرّسالة في سلّة المهمَلاَت.

واصلت الرّسائل تدفّقها، حاملةً الحبّ نفسه ورغباته الملحّة، فيقرؤها وليم ليعزّز رفضه التّراسل. كان يركّز على تعبير الفتاة السّقيم ليزداد احتقارًا لها، وانتهى إلى اعتبار السّاذجة كائنًا أدنى، على هامش الإنسانيّة، غير جديرٍ باللّياقة والاحترام، لا أهمّية له. حيوان، في خلاصة الأمر...

في نوفمبر، تغيّر لون الظرف. كان أبيض، زاهدًا في القلوب والأزهار المعتادة.

«عود. آنا حُبلا. ماندين».

قهقه وليم في البداية، ثمّ اخضرّ لونه. هل تقول الحقيقة؟

قضّى أسبوعًا يفكّر. يوم السّبت، اختلق ذريعةً ليبرّر لأهله غيابه، ركب القطار وقصد سافوْا.

أوصله التاكسي إلى القرية. أحسّ أنّه غريب، فتطلّع إلى التلال الّتي شهدت غزوته. بدا له كلّ شيءٍ مختلفًا. غطاء من الغيوم يضيّق على الوادي، والعشب قاتم، بعض الحقول لاحت جرداء، والأرض البنيّة النّديّة تذكّر بجسدٍ مجروح ينزف.

لم يكن لديه خطة. وبالأحرى، كان يعتزم الكثير. كلّ شيء رهين بما قد يكتشف.

اقترب من «شالي» آل تيبفناز وهو متخفٍّ بين الأشجار.

عندما صار على مقربة خمسين مترًا من البناية، لاحظ العجوز جالسًا أمام الواجهة. الأب زِيان، وقد أحرقت الشمس جلده، جافّ مثل هراوة، ينحت قطعة من الصّنوبر بمديته.

استلقى وليم على العشب وترقّب. بعد نصف ساعة، برزت ماندين في الأفق متّجهةً إلى «الشالي».

كاد وليم أن يغشى عليه: لقد تغيّرت، صارت أجمل وأسمن. قطّب جفونه ورأى ما كان يرفض تصديقه: بطن يبرز، مستديرًا، لطيفًا، داعبته يده. حولها العنزة والكلب يرتعان كعادتهما، مرحين، نشيطين، فأزعج حضورهما وليم الّذي لاحظ أنّهما وحدهما اللّذان ظلاّ وفيّين. هما صديقا ماندين الحقيقيّان.

دون تفكيرٍ، قام ولوّح نحوها بيديه. تسمّرت. ثمّ أضاء وجهها ابتسامٌ مشرقٌ، سعيدٌ حدّ الوله.

في تلك اللّحظة، أشار إليها وليم بضرورة تجنّب الأب زِيان. ومن عجبٍ أن فهمت قصده في الحين، وما لبثت أن غيّرت مسارها،

فاتّجهت إلى الزريبة.

عندما التقيا تحت سقف الحجر الرّماديّ الأملس، لم يتمّ اللّقاء كما تمنّاه وليم. ارتمت عليه ماندين، وخدّاها مغموران بالدّمع -دموع نشوةٍ عارمةٍ-، وقبّلته. وبعكس ما تمنّى، لم تحقد عليه. كلّ ضغينة، كلّ حرمان، كلّ تهمة، كلّ عتاب مشروع ذاب: حبيبها عاد إليها، وهي تعشقه، لم يعد لعذابها وجودٌ، لقد تحوّل إلى تلهّف.

كان وليم يواجه كلبًا شديد التّعلّق. كلّما حاول دفعها، ألحّت، فتعيد إليه سخونتها، نفَسها، رائحتها، بشرتها اللّبنيّة، شعرها الأشقر الأصهب ذكرى لياليهما. واصل التّخبّط ولم يعد يدري أكان ذلك للمسها أم لإبقائها على مسافة منه.

تمدّدا على القشّ، هدآ قليلاً، ثمّ ابتهجا إلى أبعد حدٍّ، يدًا في يد، أمام خيوط عناكب عملاقة بين العوارض.

- انظر! قالت في كبرياء.

عرّت بطنها، وأمسكت يد وليم ووضعتها عليه.

- تحسّ؟

وافق وليم على ترك كفّه على السرّة الساخنة ثمّ سحبها بوجه صارم.

- ينبغي أن نتصارح، ماندين.

- نعم.

- لا أريدُ طفلاً.

- أنت...

- لا أريدُ طفلاً.

هزّت رأسها بالنفي.

- الرّجل والمرأة يُنجبان أطفالاً. تلك هي الطبيعة.

- يحصل هذا إذا قرّر الرّجل والمرأة أن يتزوّجا.

- تزوّجني! هتفت ضاحكةً، في غاية الفرح.

- اسمعيني إلى الآخر. ينبغي على الرّجل والمرأة أن يتزوّجا ويؤسّسا عائلةً. أحبّك كثيرًا ولكنّي لن أتزوّجك.

فرغ وجه ماندين من دمه وصار رماديًّا. كانت تركّز نظرها فيه دون أن تتأكّد أنّها فهمت.

أضفى شيئًا من اللّطف على صوته ليخفّف قسوة كلماته:

- لا أتزوّجك لأنّي أقيم في باريس. لا أتزوّجك لأنّي صغير السنّ. لا أتزوّجك لأنّي أتابع دراسات ستطول. لا أتزوّجك لأنّك، حتّى وإن كنت معجبًا بك، لا تنتمين إلى نوع المرأة الّتي ينبغي أن أتزوّجها.

بخلاف فتاةٍ أخرى، لم تردّ ماندين. صحيح أنّه كان بوسعها أن تقيم الحجّة، وتؤكّد له أنّها يمكن أن تعيش في باريس، وأنّ المرء لا يمكن أن يكون دون السنّ لكي يحبّ، وأنّها ستنتظر نهاية دراساته. بَيْدَ أنّها، بغريزتها الّتي لا تثق في الكلمات، رأت في وليم حصن بغضاء يحمي قلبًا ميّتًا. بَدَلَ أن تسمع الجُمل، كانت تركّز جهدها على ذلك الحدس، حدس يثقلها، ويجمّدها ويضنيها.

أخرج وليم من جيبه ظرفًا مليئًا بالأوراق النّقديّة.

- خُذي، جئتكِ بمالي.

- لماذا؟

- لأدفع نصيبي.

- ؟؟؟

- أعرف أنّ هذا حصل بسببي. هذا المال سوف يُساعدك على الإجهاض.

مثل دابةٍ تُنحر، أطلقت ماندين صرخةً وانهارت على القشّ.

ساءت وليم شدّتُها فحاول مواساتها:

- ماندين... ماندين... ما هكذا.

حاول أن يداعب ذراعها، كتفها، وجنتها. وكلّما زاد لطفًا، زادته دفعًا، وهي لا تحتمل عنايته ولا لمسه.

طوال ساعةٍ، جهد في إقناعها. إلاّ أنّ الكلمات لا تؤثّر في ماندين، كانت تلتزم بما تحسّ. وما كانت تحسّه يُحزنها بشكلٍ قطعيّ.

نفد صبر وليم في النّهاية، فنهض وتنحّى جانبًا، وضع الظرف بشكلٍ بارزٍ أمام فرشة التّبن، تأمّل الفتاة الباكية، تراجع، ترنّح في العتبة. صفعته ريح نوفمبر الباردة فنزل المنحدر دون التفاتٍ، لِكَيْ يلحق بالقطار الّذي سيعيده إلى باريس.

***

كان الرّجال يصرخون، يزعقون، يقسمون، يتسابّون، يغادرون القاعة في صخب، يعودون إليها في كره، يُدينون، ينذعرون، يهربون،

ينزلون، يصعدون، يواصلون النّقاش، مدفوعين بقوّة اليأس. كان الذّعر قد بلغ من جلودهم أدنى مساحة، ففقدوا تحفّظ الإطارات الكبرى. ومثل بحّارةٍ في خطر، كبّحارة تيتانيك الّذين رأوا جبل جليدٍ يمزّق سفينتهم، كانوا يُدركون أنّ للمستقبل ملامح الكارثة. بعد قليلٍ، في السّاعة القانونيّة، أي السّادسة، سوف ينبثقُ مفتّشو الفرقة الماليّة من الفجر الطريّ، ويزعقون عند أبواب برج غولدن، ويمشّطون المكاتب والملفّات والحواسيب، ويستنطقون الموظّفين والمستخدمين، ويحملون معهم الوثائق الضّروريّة لفتح محضر، ثمّ للتّحقيق، ثمّ للاتّهام. ثمّ يعقبها العسف الإعلاميّ بغير دليلٍ، وإفلاس شركة غولدن، وأحكامٌ مختلفةٌ ضدّ مسؤوليها. كان الأشخاص العشرة الحاضرون يعيشون آخر لحظاتهم في هذه القاعة. الفضيحة الّتي ستندلعُ ستشوّههم بدرجاتٍ متنوّعة: الجناةُ سيودعون في السّجن، آخرون سيعاقبون بخطايا، وكلّهم سيحملون لوثة الشّكّ، حتّى الأبرياء. لا أحد منهم سيحظى بالثّقة.

كان ستانوفكسي ينقرُ الأرقام على هاتفٍ بيده ويعيدُ متتالية أرقام.

- ألو؟ ألو؟

ألقى بجوّاله على الطاولة.

- اللّعنة! هذا الأبله الصّغير لا يردّ!

اقترب منه المدير التّجاريّ.

- تحاولُ الاتّصال بغولدن جونيور؟

- جرّبت كلّ أرقامه.

- كيف تريده أن يردّ؟ المكالماتُ لا تمرّ في الطّائرات.

- ماذا؟

جلس المدير التّجاريّ قبالة ستانوفسكي، وقال بفظاظة:

- لماذا لم يحضر حسب رأيك؟ ما إن علم أبوه بالتّفتيش حتّى دفعه إلى طائرةٍ باتّجاه الخارج. غولدن جونيور في هذه اللّحظة يحلّق نحو أرضٍ لا يمكن أن يُدركَ فيها.

- اللّعنة!

نهض بول أرنو، السّاعد الأيمن لوليم غولدن، وكان قد سمع هذا الحديث باشمئزازٍ. اتّجه نحو عمق القاعة وطرق باب غرفه، صديقه على الدّوام.

- ادخل.

كان وليم غولدن يعلمُ أنّ رجلاً واحد سيتجرّأ على إزعاجه في ليلةٍ كهذه، فلم يرفع رأسه ليتأكّد من القادم، وأشار إلى أريكة.

ظلاّ دقيقةً صامتَيْن. ثمّ استرشد وليم:

- في الجوار، ثمّة حُلول؟

- ردود الأفعال تفوق التّأمّل.

- وماذا أيضًا؟

- إنّ كثرة الأفكار تحُول دون بروز فكرةٍ جيّدة.

لمس بول أرنو ساعد صديقه.

- لماذا لم يشاركنا ابنك الجلسة؟

ارتجف وليم غولدن. ألحّ بول أرنو:

- يمكن أن أطرح عليك هذا السّؤال، لن تشك فيّ؟

ازدرد وليم غولدن ريقه ونظر، متأمّلا، إلى السّقف ذي التجاويف الزّخرفيّة.

- ليس على علم بما أعلم. يجهل أنّ عمليّة تفتيشٍ تلوح في الأفق.

- عفوًا؟

- هو نائم.

تلعثم بول أرنو في ذهول:

- ماذا؟ لم تُعلمه أنّ ابتزازاته اكتُشفت؟ لم تُطالبه بأن يشرح الأمر؟

- هو نائم.

سحب بول أرنو يده، كأنّه أحسّ احتراقًا.

- أرجوك يا وليم، قل لي إن الحبّ لم يُعْمِك.

- أعماني؟ ولا ثانية. لقد نسج عملاً نذلاً وكذب علينا طيلة ثلاث سنوات. ابني خان ثقتي، هذا لا شكّ فيه. هل أستغرب ذلك؟ هذا النّوع من الجرم هو من طبيعة الأمور. الأبناء يقتلون آباءهم منذ آلاف السّنين.

- اعذر جهلي، لم أربِّ سوى بناتٍ، ردّ بول أرنو بمرارةٍ.

- الدّلائل الّتي لديّ تؤكّد جناية ابني. بَيْدَ أنّه تصرّف مع

شركاء. ثلاثة، وربّما أكثر... بصراحةٍ، أتساءل عمّا إذا كان ستانوفسكي قد مهّد لعمليّة التّزوير. ألا ترى أنّ...

- ما الأهمّية في ذلك؟ ابنك يمثّل مفتاح عمليّة التّحيّل. اعتباره لديك، ولديّ، ولدى المساهمين، ولدى الحرفاء، أتاح له بعث الفيغر، ثمّ تشغيله. لا يهمّني أن أعرف من يحرّك الدّمى، هو أو ستانوفسكي. كلّ شيءٍ كان مرهونًا بابنك.

- لنفرض أنّه هو الّذي دبّر عمليّة الغشّ -وهذا ما أعتقده-، فهل هو مذنبٌ مع ذلك؟ هل الجاني هو الجاني دائمًا؟ «جانٍ» يتضّح أحيانًا أنّه مُسخّر. «جانٍ» غالبًا ما يكتسي ثوب ضحيّة.

- عفوًا؟

- ابني أشرفَ على عمليّة تحيّلٍ؟ لنفترض ذلك! ولكن من هو مسبّب طبيعته المحتالة؟ أنا ربّما...

- لا أسمح لك بأن تفكّر هكذا. أنتَ صعدت درجات المجتمع باحترام القوانين.

- قانونيًّا. ولكن أخلاقيًّا؟

- قانونيًّا! لا شيء عداه له أهمّية. ليس ثمّة سوى قانونٍ واحد وعدّة أخلاقيّات. لا تبحث لابنك عن ذرائع، قراراتنا تصدر عنّا. النّاس جميعًا تطرأ عليهم ظروف، وكلّ واحدٍ يختار. ابنك خيّر الخيار الخاطئ.

- صواب.

- أتتركهُ ينام؟

- ماذا سيغيّر في الأمر لو أوقفه؟

لم يمنع بول أرنو نفسه من التبرّم:

- ليَفكّ ما فعل!

- فات الأوان.

نهض بول أرنو موتورًا.

- فات الأوان؟ إن كان الصنج قد طرق، فلنعد إلى بيوتنا، سيأخذنا البوليس من أفرشتنا. الّذين سيموتون يحيّونك[1].

تنهّد وليم غولدن من شدّة التّعب، وبإشارة من إصبعه، حثّ بول أرنو على الجلوس.

- لنتحدّث عن المال. هل راجعتَ الحسابات مع المدير الماليّ؟

- نعم، للأسف.

- ما هي قيمة المبلغ؟

- هم يتحدّثون عن ثلاثة مليارات. في الحقيقة هي أربعة.

أثار الرّقم انفجارًا من الصّمت. لم يتخيّل وليم غولدن أنّ ديون الصّندوق يمكن أن تصل إلى هذه الدرجة.

بعد دقيقتين، أردف بول أرنو قائلاً:

- فوق الأربعة بقليل.

- أوه، كفى. في هذا المستوى، الملايين تصبح سفاسف.

(1) باللاتينية في الأصل، وكان المقاتلون الرومان ينطقون بها أمام الإمبراطور قبل الذهاب إلى جبهة قتال Morituri te salutant.

تكثّف الصّمت. نهض وليم غولدن، وفتح بابًا كشف له عن مجموعة قوارير، في لون القار، أو العنبر، أو الزّبرجد، مضاءة بالرّفوف. تصفّح البطاقات في تخاذل:

- من عادتي القَوْل إنّ قدحًا من الويسكي يُناسب كلّ وضعيّة، ولكن أخشى أن تكون عاداتي غبيّة. لا أدري أيّها...

- اخترِ الأرفع. الآن وهنا. غدًا، لن تقدر.

وافقه وليم غولدن بهزّةٍ من رأسه، تناول قارورةً عمرها ثلاثون عامًا، ملأ القدحَيْن بسائلٍ تفوق كلّ قطرةٍ منه سعر الذّهب وعاد للجلوس جنب بول أرنو.

شربا بعبوس. شرب وليم جرعةً، زمّ فمه استمتاعًا ثمّ تلمّظ وعاد يقول بصوتٍ حاسم:

- قُدرتنا على السّداد؟

- قُدرة البنك؟ ربع المبلغ.

- وأنا؟ أنا بصفتي الخاصّة؟

- دون ذلك. حتّى وإن بعتَ جملةَ أملاكك.

- لن نُواجه؟

- كلاّ.

- هو الإفلاس إذن؟

- هو الإفلاس.

هزّا رأسَيْهما. عَمَلُ حياةٍ كاملةٍ -إنجازهما- تحطّم. ما من تعليقٍ

كان يقدر أن يرتفع إلى مستوى رَوْعِها.

تكفّل الصّمت بالنّدم، والتأسّف والضّيق في ما يخصّ المستقبل. كانت الأفكار تتدافع بداخلها، مستعجلةً، عديدةً، ناقصةً، مطرودةً دومًا بأفكارٍ جديدةٍ.

مثل عابدٍ يستغرقُ وقتًا في فركِ حبّاتِ مسبحتهِ، أحكم وليم غولدن يدهُ لا شعوريًّا على ساعته وفتح جوفها لينظر إلى الصّورة.

استغرب بول أرنو:

- ماذا...

- لا شيء، ردّ وليم بجفاءٍ وهو يغلق السّدّادة.

ولكي يتكلّف هيئةً طبيعيّة، تطلّع إلى مينا السّاعة، ثمّ أشار إلى الباب المفضي إلى قاعة المحاضرات.

- ساعة وهم يتناقشون، هناك في الخلف... تعال لنسمع نتيجة تفكيرهم.

هزّ بول أرنو كتفيه محترزًا. لم يكن ينتظر أيّ حلٍّ من رجال الجوار. بل إنّه ما عاد ينتظر أيّ شيء. وهو يحرّك رأسه، غمغم، وشفتاه متدليّتان:

- ماذا نفعل هنا؟ هل من المفيد أن ننظّم اجتماع أزمةٍ على متن تيتانيك بعد أن فرى جبلُ جليدٍ هيكلَها؟ لن نتّقي غرقًا محتومًا. لن ننقذ أيّ شيء.

قال وليم غولدن في لهجة عتاب وهو يتأمّل السّائل الذّهبيّ في

قدحه:

- ماذا يمكن أن ننقذ؟ المال؟

- لا.

- الشّرف؟

- ولا الشّرف أيضًا. قُضي الأمر[1].

انسحبَ بول أرنو.

بقي وليم وحيدًا فكرّر مرارًا:

- لا المال ولا الشّرف.

عاد إلى ساعته، فأخرج الصّورة، وألحّ بصوتٍ مختلج:

- ماذا كنتِ ستفعلين؟

***

في شهر أبريل، كان وليم قد بدأ المراجعات استعدادًا للباكالوريا، حين جاءته رسالةٌ من ماندين.

ارتعدَت أصابعه وهو يمسكها.

لم يكن قد تلقّى منها أخبارًا منذ لقائهما في نوفمبر، وهو صمتٌ طمأنه بقدر ما أقلقه. اطمأنّ، لأنّ ذلك يعني أنّ ماندين أذعَنَت. وقلق، لأنّه لم يكن يعرفها معرفةً جيّدةً ليتوقّع ردود أفعالها، ولنرجسيّتة لم يكن يتخيّل أن تكفّ عن محبّته بسرعةٍ.

(1) باللاتينية في الأصل Alea jacta est وكان أوّل من قالها يوليوس قيصر، يوم قرر عبور نهر روبيكوني الّذي كان يفصل بين إيطاليا وبلاد الغول.

في مرّاتٍ كثيرةٍ، فكّر أن يُراسلها، ولكنّ الحذر منعه. فقد توقظ الرّسالة شعلة ماندين وتثير انتباه الأب زِيان، أجل، كان يمكن أن تُقيم الرّسالة الدّليل الموضوعيّ على حضوره في حكاية يُريد أن يبقى غائبًا عنها. في ديسمبر، بعد أن ضاق ذرعًا بعدم معرفة أيّ شيء، سأل بول عمّا إذا كان ينوي الذّهاب إلى «شالي» سافوا بمناسبة نويل. فإذا بصديقه يقول في نبرة أسى: «تخيّل أنّ ربّ العائلة[1] باعه! عرض عليه رجلٌ هولنديّ مبلغًا ضخمًا. احتججتُ أنا وأختي، ولكنّ الأب، وكان قد سئم ميادين التّزحلق في الأجوار وثنيات التّجوال، وعدَنا بشراء «شالي» في زرمات بسويسرا. هذا أسوأ، وأفضل في الوقت ذاته...» عندما علم وليم بذلك اعتراه ارتياح: لن يُقيم بول ولا عائلته -ولا أحد من وسطه- علاقةً بينه وبين كآبة ماندين. وهكذا يكون الأب زِيان وماندين والعنزة اللّعوب والكلب الأصفر مقيمين في آخر نقطةٍ من العالم، على بعد آلاف الكيلومترات.

في ردهة العمارة المظلّل، فتح الظرف، وقلبه يخفق بقوّةٍ، برغبة اطّلاع أشدّ ممّا كانت عليه في الخريف، حيث يكتفي بالتّنهّد في ضيقٍ وانزعاج.

«جا إلا الدنيى. ولَد. يشبيهك. هو جاميل جِدَّنْ. أُحِببُه. أُحِببُك. ماندين».

قرأ وليم الرّسالة مرارًا، وهو عاجز على أن يراها واقعًا. ماندين

(1) باللاتينية في الأصل Pater familias.

أبقت الحمل؟ طفلٌ وُلد؟ صار له ابن؟ يُشبهه؟

جلس على أولى درجات السّلّم مدوّخًا وركّز نظره على الورقة، وكأنّها سوف توحي له بسلوك.

«هو، أب؟».

من يحدّث؟ أصحابه، النّسور، سوف يسخرون منه، أمّا أبواه فلن يصدّقاه. انتبه، الأمرُ خَطِرٌ، فَلَوْ نشر وليم الخبر، فسوف يؤكّد أبوّةً لا شيء يُثبتها. لعلّ ماندين ضاجعت آخرين... محتمَل... أكيد! هل يمكن أن يصبح المرء أبًا في ثلاث ليال؟ لنكن جادّين!

دعَك وليم الورقة ووضعها في قعر سلّة المهملات حتّى اختفت تحت النّفايات، محيلاً إلى العدم ما أخبرته به تلك الأسطر الخرقاء. ماندين تعيش في عالمٍ غير عالمه، عالمٍ وهميّ، يفصله عنه جدارٌ منيع، هو جدارُ ظاهرِ الحقّ. استقرّ وليم في مملكة الإنكار.

طوال الأيّام التّالية، سخّر كلّ شراسته للدّراسة. لو يخفق في البكالوريا فمعناه أنّه يُذعن لماندين، بل أكثر من ذلك، يتزوّج جهلَها المطبق. لا يلزمه النّجاح فحسب، بل ينبغي أن يحصل على ملاحظة حسن جدًّا، المفتاح السّحريّ للقسم التّحضيريّ الّذي جعله غايته.

يوم الاثنين، حوى صندوق بريده رسالة. رغم أنّها مغطّاة بخطّ ماندين، لم يكن لها المظهر ولا الحجم المعتادان. فتح وليم الظرف وهو يحسّ نفسه محميًّا بقناعةٍ مفادها أنّ تلك الرّسالة قادمة من عالم لا وجود له، وأخرج منه صورة.

رضيع يفتح عينين مندهشتين نحو العدسة.

- ابني؟

في لحظةٍ، تأمّل لحم لحمه، وقد اعترته قشعريرةٌ خاطفة، مزيجٌ من الفرح والفزع؛ ثمّ تمالك، تنفّس، زوى فمه، هزّ كتفَيْه ودسّ بلا حذرٍ الصّورة في جيبه.

- هُراء!

كبت تأثّره، مدفوعًا بإحدى قوى الذّهن الكبرى، سوء النّيّة، ونسي الصّورة.

نسيها إلى درجة أنّ أمّه، بعد أسبوعٍ، لحقت به في بيت الاستحمام وهي تُمسكها بين أصابعها.

- أفرغ جيوبك قبل أن تُلقي إليّ بغسيلك. كدتُ أن أضع هذه الصّورة في ماكنة الغسيل!

قرّبتها من عينيها وتأمّلتها، في اهتمامٍ مفاجئ.

- غريب، تمتمت.

- ماذا؟

- أين عثرتَ عليها؟

- عفوًا؟

مادت الأرضيّة تحته. ألحّت:

- لا أتذكّر هذه الصّورة. لا أتذكّر أين أخذناها. مع أنّ هذا هو أنت، هنا، في سنّ بضعةِ أيّام... آه، لدى أهلي ربّما؟ سحبتَها من ألبوم العائلة؟

- و... وجدتُها في معجمٍ قديم.

- لهذا السّبب لم أكن أعرفها. كانت مخفيّةً طوال هذه السّنين.

أعادتها إليه، وشفعت ذلك بلطمةٍ حانيةٍ.

- رضيعٌ بديع... حين نرى كيف صار بعد ذلك، يا له من انحدار!

وابتعدت ضاحكةً.

ظلّ وليم مصعوقًا، والصّورة في يده، وما إن تأكّد ألاّ أحد يرقُبه، مزّقها في غضب. لا آثار، لا أدلّة، لا واقع!

مرّت الأعوام. كان وليم يجدُ في الصّندوق رسائل من ماندين بانتظام؛ وكان يُلقي بها في سلّة المهملات دون أن يفتحها بانتظام أيضًا. كان صمته يُنهي المسألة.

مدفوعًا بالطّموح، مسنودًا بأبويه، نجح في الدّراسات الّتي حلم بها، ونال شهادات في مستوى عالٍ. صامويل غولدن، عمّه الصّيرفيّ الّذي ما انفكّ يرعى ابن أخيه الأوحد بنظرةٍ عطوف، سدّد عنه تكاليف ماستر باهظ في أوكسفورد، ولمّا اقتنع باكتشاف خليفةٍ له، عيّنه إلى جانبه.

عندما استقرّ وليم في شقّة عزّابٍ فاخرةٍ قرب الباستيل، وكان قد حاز راتبًا مريحًا، اغتنم أبواه الفرصة لتغيير الشّقّة. فصار البريد الّذي يصلُ إلى العنوان القديم، يحوّل طيلةَ سنة، ثمّ انقطعَ التّحويل بعدها، فباتت كلمات ماندين لا تبلغ وليم.

نسيَها.

لئن كان يعقد علاقات مع النّساء، فإنّه سرعان ما يُنهيها، مدمّرًا كلّ علاقةٍ جديّةٍ قد تدوم: طريقه الطّموح المنذور للعمل لا يمكن أن يزدحم بزواجٍ أو أسرةٍ.

في أحد أماسي يونيو، كان وليم عائدًا من حفل، والذّهن مثقلٌ بالتّعب، والجسد منوَّمٌ بالكحول، ففقد لثانيةٍ تحكّمه في سيّارته فاصطدمت بشجرةٍ.

حول جذع الشّجرة، عثر المسعفون على هيكلٍ معدنيٍّ وجدوا صعوبةً كي يخرجوا منه وليم، وهو فاقد الوعي، ملطّخٌ بالدّماء، مكسور الأطراف. ورغم سرعة تدخّلهم، ورغم الأطبّاء الممتازين، خُشي على حياته لشدّة ما حطّمته الصّدمة.

ظلّ وليم خمسة أيّامٍ في غيبوبةٍ عميقةٍ، ثمّ وُضِعَ في حالة غيبوبةٍ اصطناعيّةٍ لإخضاعه لعمليّةٍ جراحيةٍ.

عندما عاد إلى الدّنيا، اقتصر عالمه على غرفة في قسم الإنعاش حيث عاده أبواه وعمّه وبول وعشيقتان حافظ على علاقاتٍ طيّبةٍ معهما. كلّ صباحٍ، يقف طلبةٌ مساعدون جمّدهم توقير أستاذ الطّبّ الكبير حول السّرير ليستمعوا إلى تعليقه على النّتائج، ثمّ يحدّدون الإجراءات. أخيرًا، تمّ إعلامه بأنّه سيغادر القسم وأنّ نقاهةً بعدّة أشهرٍ تنتظره في مركز إعادة تقويم متخصّصٍ، في غارش غير بعيدٍ عن باريس.

في البداية، عندما اكتشف المشوَّهين، رفض الانتماء إلى هذه المجموعة، حيث يُظهر هذا فريقه المفضّل في كرة القدم على قميصه،

وذاك بطله الخارق في الأشرطة المرسومة؛ لم يكن يجد نفسه في أولئك العجّز، من مفلوجين وكسحان ومشلولي الأطراف. كان مصدومًا بشكلٍ جعله يفكّر في البقاء بلا حراكٍ وسط ألحفته، لا يحاول بذل أيّ مجهودٍ. ولكن شيئًا فشيئًا، وبفضل إحاطة المتخصّصين في التّدليك الطّبيّ وإعادة تهيئة الجهاز العصبيّ، وتشجيع الممرّضين والممرّضات، بدأ يسلك الطّريق الطّويلة الّتي ستعيده إلى حرّيّة الحركة. ركّز في تواضعٍ على تطوّراته الطفيفة: إعادة تعلّم وضعيّات الجلوس والقيام والتّوازن والمشي، جرجرة رجليْه من السّرير إلى الكرسيّ، ثمّ من الكرسيّ إلى بيت الرّاحة، واعتبار ذلك انتصارًا. ثمّ انتهى إلى وضع كلّ طاقته في استعادة قدراته، حتّى إنّ الأطبّاء، الّذين ساءهم فتورهُ في البداية، هنّؤوه على ذلك: نادرا مّا تمّت عمليّة استعادة الحركة بتلك السّرعة.

في الشّهر السّادس، استقبل البروفيسور صولال وليم في مكتبه.

- برافو، وليم. أعلمك أنّك ستغادر غارش الأسبوع القادم.

- شكرًا، دكتور. سأحتفظ بذكرى رائعة عن المساعدة الّتي قدّمتموها لي.

- قبل أن تستعيدَ حياتَك، أوّد العودة إلى موضوع كنّا أثرناه عند إقامتك هنا، ولكنّه، في تلك الفترة، لم يسترعِ انتباهك. الموضوع يتعلّق بعواقب حادثك والعمليّات العديدة.

تنحنح الطّبيب المتنفّذ.

- لن تُنجب.

- عفوًا؟

- يمكنكَ أن تُمارس الجنس -ولعلّك مارستَه من قبل-، لن تُحرم من اللّذّة، ولكنّ قنوات استخراج الحيوانات المنويّة قُطعت، سُحقت. لن يكون بوسعكَ أن تُنجب.

نكس وليم رأسه. قال الدكتور صولال مواسيًا:

- صدمةٌ قويّة، أعرف.

رفع وليم ذقنه مبتسمًا.

- أطمئنك: تأسيس أسرةٍ لم يجل بخلدي قطّ. على أيّ حالٍ، لم يكن من أولويّاتي أبدًا.

- قد نغيّر رأينا...

- ليس أنا. لا سيّما إن كنتُ لا أملك الوسائل.

ضحك.

- أنا سعيدٌ جدًّا بأنّي على قيد الحياة، يا دكتور!

عندما اجتاز وليم عتبة بنك غولدن، أحسّ أنّه منتصرٌ وهشٌّ في الوقت نفسه، وقد غمرته نشوةٌ لا تصدّق، مكهرِبةٌ، أخّاذةٌ، تحثّه على تلذّذ كلّ لحظةٍ. استقبله عمّه، دامع العينين، مستعيدًا الفرح الّذي شمله سابقًا في روضة الأطفال، ولكنّه فرحٌ تدعّم بأنّه صار يعرف ابن أخيه، كشخصٍ جديرٍ بالحبّ والإعجاب والاحترام. وإذا كانت فرحة الإنجاب تهيّج النّفس حماسًا، فلا شيء يعدل فرحة الانبعاث لأنّنا نُدركها بتمام وعينا. بعد احتضانٍ وجيز، استؤنف العمل،

وبفضل تلك المحنة، تعزّز الوفاق بين الرَّجُلَيْن.

ازداد وليم شغفًا بعمله الّذي كان يُدرك بعنفٍ ثمنه، وهو ما كان يُعتقد أنّه مستحيل نظرًا إلى تفانيه السّابق. لم يعد ذلك الثّمن راتبًا يصرف في آخر الشهر، بل طاقته على الوجود، وقدرته على الفعل، ونسيان جسده المؤلم والقناعة بأنّه مفيد، بل لا غنى عنه. عندما يخصّص ساعات لحلّ ألف مشكلٍ، ووضع مائة قرارٍ موضع إنجاز، وهو غائصٌ في أريكته يركّز ويدقّق بطريقةٍ منهجيّةٍ، كان يزدوج: إذ يتعالى شكلٌ منه فوق كتفَيه، مثل جنيٍّ متموّجٍ، يُشاهد وجوده، يهمس في أذنه ببسمةٍ رائقةٍ: «انظر: أنتَ تحيا!».

شيءٌ واحدٌ كان يسمّمه، السّكون. لأنّ هذا السّكون له رائحة المستشفى. لذلك كانت موسيقى كلاسيكيّة لا تتغيّر -موزارت، بلّيني، دونيزيتّي، فيردي، بيزي، ماسّيني- تعطّر مكتبه.

في إحدى أماسي أبريل، وهو يتأهّب لمغادرة ملفّاته، طلبه عمّه هاتفيًّا:

- أدرِكني في قاعة الاجتماعات.

تحته بطوابق أربعة، في قاعة ذات بذخٍ مفرطٍ جُعلت لإبهار الزّبائن والمتعاونين، لحق وليم بصامويل غولدن وكان جالسًا في طرف طاولة الأكاجو. لأوّل مرّةٍ بدا له عمّه عجوزًا فرقبته الهزيلة لا تكاد تحمل رأسه المنحدر على صدره؛ وجسده تضاءل في بذلة الصّوف الأسود؛ أجفانه الجافّة، المحمرّة الأطراف، تُضفي على عينيه الكابيتين شخوصًا محيّرًا؛ وشفتاه الرقيقتان تصطبغان بزرقة سَقم.

- تعبت، يا وليم. منذ حادثك، أدركت أن لا أحد باقٍ، حتّى أنا، وهو ما أجد صعوبةً في الاقتناع به.

كشّر وهو يضع يده على معدته.

- لم تكن الأسرة من أولويّاتي البتّة. أن أنجح، أن أؤسّس إمبراطوريّتي، هذا البنك، الْتَهَم وقتي، وأجهدَ قواي. بطبيعة الحال، كان بوسعي أن أتزوّج امرأةً كيفما اتّفق، وأصنع معها كيفما اتّفق أيضًا أطفالاً. ولكنّي لا أستطيع أن أقوم بأيّ شيء كيفما اتّفق، دون أن أهب له نفسي بتمامها. النّتيجة؟ لا وريثَ لي.

رفع ذقنه باتّجاه ابن أخيه.

- أرجو أنّك لم تحسب حسابًا لوراثتي.

ردّ وليم بصرامةٍ صادقةٍ:

- أبدًا. فكّرت في ذلك، ولكنّي لا أحسب له حسابًا.

- لماذا؟

- لا تجهل يا عمّي، أنّنا اليوم نرث آباءنا في سنّ التّقاعد. خير للمرء أن يبني حياته دون ذلك.

تبسّم صامويل محرّكًا رأسه. واصل وليم:

- لقد صرّحتَ أيضًا بأنّك ستوصي بثروتك إلى مؤسّسة «ياد فاشيم»، ترحّمًا على أرواح أجدادنا الّذين ماتوا في المعتقلات. أؤيّد هذه الفكرة.

حكّ العمّ صامويل يديه المغطّاتين ببقع بنّيّةٍ ثمّ تنهّد:

- أنتَ أكثر قيمة من ابنٍ لم أَلِدْه.

ووجّه عينه الصّقريّة نحوه.

- خلال الأشهر الأخيرة، درستكَ عن كثبٍ يا وليم: تحمّلك، سرعة تحليلك، أعصابك، صواب قرارك، كلّ ذلك اتّضح أنّه أمرٌ استثنائيّ. وأنا معجبٌ به.

- شكرًا.

- كنتُ أتعلّل بالمقلوب في ما يتعلّق بعائلتي. أميل إلى الأموات أكثر ممّا أميل إلى الأحياء... بأيّ ضلالٍ أميّز الماضي؟ لماذا أهتمّ بأولئك الّذين سبقوني، ولا أهتمّ بمن يخلفونني...؟ عبث! لذا غيّرت وصيّتي. وريثي سيكون أنتَ، إذا...

اقشعرّ وليم:

- عفوًا؟

- أنتَ، إذا...

- أنا، إذا ماذا؟

- أنتَ، إذا كان لكَ ولد.

ظلّ وليم فاغر الفم، مقطوع الأنفاس. أنهى صامويل غولدن حديثه قائلاً:

- سأنقلُ إليكَ ثروتي، إذا أنتَ، في يوم ما، نقلتَها بدورك. لا تحتجّ، لقد وقّعتُ على طلباتي عند كاتب العدل هذا الصّباح.

ولا تشكرني أيضًا.

وبحركةٍ من يده صرف صامويل وليم، كأنّه تعامَل مع مسألةٍ معتادةٍ، وانزوى في مكتبه الملاصق.

خيّر وليم أن يعود مشيًا على قدميه. رغم تصلّب مفاصل وركيه ورجلَيه، كان في حاجةٍ إلى التّفكير كما يسمح به المشي وحده.

سار محنيّ الرّأس من رصيفٍ إلى رصيف، لا يكاد يرفع عينيه إلى الأضواء قبل العبور إلاّ لمامًا، متنقّلاً من الطّريق المكدّم إلى بلاط الأرصفة الّتي صقلتها القرون، مستغرقًا، غير واعٍ بالبشر، لا يقابل إلاّ أطيافًا خاليةَ الوجه. كان يحبّ باريس وسماءها الخالية من النّجوم، المسكونة بمصابيح الشّوارع. يحبّ باريس ليلاً، حين تدرك بواسطة الأنف والأذنين أكثر ممّا تدرك بالعينين. يحبّ باريس النّديّة على حافّة «السين»، الجافّة بين الواجهات العتيقة، باريس الحامية بأهواء المترو الباعثة فوحَ نفَسها الفحميّ عبر الحواجز المشبكة، باريس العفنة قرب أوعية النّفايات المرتفعة، باريس الصّاخبة، المشوّشة، الهادرة، السّيّارة، الضّاجّة ضجيج مدينة الملاهي، والصّامتة فجأةً عند عطفة شارعٍ، صمتًا ظاهرًا، غرافيتي من الصّمت مؤلّفٌ من ألف صوتٍ هاربٍ، مصباحٌ يحترق، درّاجةٌ ناريّة تطقطق، مذياعٌ يهرّ في جوف حجرة، جرذٌ يتسلّل إلى بالوعة، بيانو ناعمٌ تنساب نوتاته من غرفةٍ منحنية السّقف بعيدة. كان يحبّ باريس الهادئة، الخالية، لا الميّتة.

كانت خطى وليم توقّع تأمّله، وتقوده إلى ما هو جوهريّ. خلال تجواله، فرض الواقع نفسه: سوف يشرحُ لعمّه أنّ مشروعه يتحطّم

على حاجزٍ تشريحيّ. صحيحٌ أنّه يمكن أن يصادف في حياته امرأة؛ صحيحٌ أنّه يمكن أن يتزوّجها؛ ولكنّه لن ينجب أبدًا أطفالاً، كما قيل له في غارش. قدّر وليم أنّ من واجبه أن يقول الحقيقة لصامويل. لو يعترف لعمّه فسوف يقرّر: إمّا أن يحفظ له موقعه، أو أن ينقل إليه البنك مع ذلك. أجل، لا بدّ أن يعلم صامويل. وبعدئذٍ أيًّا ما يكن اختياره، فسوف يرضى به.

واصل السّير بمحاذاة النّهر حيث تتصاعد نداوة صقيعيّة. وكلّما تعب جسده، خفّ ذهنه. وكلّما تكثّفت الظّلمة، صارت رؤيته أصفى.

«لو... فكّر وليم في أمل، لو يوافق العمّ على تسوية؟» سوف يتبنّى أطفالاً... أو يتزوّج امرأةً تربّي ولدًا من زواجٍ أوّل... قد يُفاوض؟

عندما بلغ أسفل عمارته، لم يَبْقَ أيّ جرسٍ يُقرع، فباريس ضيّعت نَبْضَها، أمّا هو فَقَدْ وجَد ما سوف يعرضه على عمّه.

في ذلك الصّباح، وبعد ساعتَين من الرّاحة -وكان قد تهالك على السّرير بلباسه وحذائه- قصد وليم البنك، ممتلئًا بما يودّ قوله.

ما إن اقترب من المبنى حتّى لاحظ حركةً غير عاديّةٍ أمام المدخل المهيب. رجال شرطةٍ ومطافئ وإطارات وموظّفون يعجّ بهم المكان. عندما رأى بول أرنو سيّارة وليم أسرع إليه ولم ينتظر نزوله كي يعلمه بالخبر الفاجع: هذه اللّيلة، توقّف قلب صامويل غولدن. لقد وجدوه متصلّبًا في فراشه.

ظلّ وليم مذهولًا بشكلٍ لا يتبدّى فيه أيّ تأثّرٍ، ويداه متقبّضتان على عجلة القيادة. وبينما كان بول يواصل التّحدّث إليه ليعيده إلى الواقع، كان إحساسٌ بالذّنب يكسر خموله ويغمره. هل كان من واجبه أن ينشغل بالأمس بحال صامويل؟ لماذا أزاح القلق الّذي عبره؟ ألم يكن من الأجدى استدعاء طبيبٍ بدل إجراء ذلك النّقاش؟ فكّر في جولته اللّيليّة في باريس، لم يهتمّ خلالها سوى بنفسه، لم يخطر بباله احتضار عمّه. كره نفسه.

خُصّصت الأيّام الموالية لترتيبات الجنازة، كما أوصى بذلك صامويل غولدن وقد استشعر بالتّأكيد نهايته الوشيكة. شارك وليم في الجنازة مثل إنسانٍ آليٍّ، مُصفرّ الوجه، متيبّس الجسد، نادر الكلام، وهو ما ظنّه الجميع حزنًا عميقًا.

كان يُعاني من تبكيت ضميره. ومن ثَمّ، أحسّ بارتياحٍ تقريبًا، عند قراءة الوصيّة، وهو يُقاطع كاتب العدل ليصرخ في وجهه أنّه لن يرث، ما دام بغير أطفال.

قطّب الضّابط العموميّ حاجبَيه.

- اسمع عمّك حتّى النّهاية. هو يُمهلك سنتَين قبل العودة إليّ بطفلٍ مع دليل الأبوّة باستعمال تحليل آ دي إن[1].

- لا فائدة من الانتظار، قلتُ لكَ! لا يمكن أن أنجبَ منذ حادث الطّريق الّذي وقع لي.

---

(1) ADN أو DNA (بالإنكليزية) هو الحمض النوويّ الصبغيّ الّذي يحتوي على المعلومات الوراثيّة.

- أنتَ واثق؟

- واثق! أعطوا كلّ شيء للجمعيّات.

- سأترك لكَ إمكانيّة تجريب حظّك، سيّد غولدن. لماذا تستسلم؟ العلم زاد قدراتنا على الإنجاب. في يومنا هذا، وبفضل...

- لن أقبل حتّى التّجريب.

زمّ العدل فمه، وقد عدم استلطافًا لهذا الرّجل الّذي يرفض الملايين، ثمّ ختم بصوتٍ حاسم:

- لا يهمّ. سننتظر سنتَين. القانون يُجبرنا على احترام رغبات الفقيد.

حسب توصيات عمّه، يُصبح وليم الرّئيس المدير العام للبنك ويمارسُ إدارتَه لسنتَين. بعدها يُعاد النّظر في كلّ شيء...

أمسكَ وليم مقاليدَ الشّركة بحزمٍ ونجاعة، وهو حريصٌ على خدمة ذاكرة عمّه. وكانت الأسواق وقتها قد تعرّضت لاضطراباتٍ مشؤومة، ذات صلةٍ ببالونات المضاربات الّتي كانت تنفجر، وبالشّروط الأوروبيّة الّتي تتغيّر، وبالمضاربين بالأسهم الماليّة الّذين يغتنمون العاصفة لنهب السّفينة، ولكن، وسط المؤسّسات الماليّة الّتي بادت واحدةً تلو أخرى، حافظ وليم على الوجهة الصّحيحة وقاد سفينة غولدن إلى مرفإ الأمان.

كان الموعد الحاسمُ يقترب. بول فقط، بول الوفيّ والفعّال، كان على علمٍ ببنود الوصيّة. ذات مساءٍ، وهو يُشاطر قدح ويسكي في

مكتب وليم بعد يومٍ مضطرب، قال متحيّرًا:

- أخشى المستقبل يا وليم.

- أيّ مستقبل؟

- التَرِكة.

- لا تهتمّ. أسهم البنك ستنتقلُ إلى أيدي الجمعيّات الخيريّة، ولكنّها سوف تجدّد لي رئاسته، فيما أفترض.

- محتمل. ليس مؤكّدًا... على أيّ حالٍ، لن تشكّل وحدَك مجلس الإدارة، لا بدّ أن تُرضي المساهمين. ونحن نعرف أنّ المساهمين قِصار النّظر، لا يطالبون إلاّ بشيءٍ واحد، حصّة الأرباح، حتّى ولو كان منطق الشّركة يتطلّب الاستثمار. في الوقت الحاليّ، ما زالت السّفينة تترنّح؛ إن خالفوا خياراتك، بل إن هم أجّلوها، فلا مناص من الغرق. أضف إلى ذلك، كم ستدوم هذه الأوقات المتقلّبة؟

- مجلس الإدارة لن يغيّر الرّبان خلال الزّوبعة. أظلّ على تفاؤلي.

- حقًّا؟

- بطبعي.

- هذا لا يبرّر التّفاؤل.

- أريدُ أن أكون متفائلاً.

- هذا عناد! أنتَ لا تُطمئنني. إمّا إمبراطور أو لا شيء[1].

---

(1) باللاتينية في الأصل Aut caesar, aut nihil.

تواصل النّقاش، حرًّا، صريحًا، دون حلٍّ بيّنٍ. كان الرّجلان يكنّان الاحترام أحدهما للآخر منذ المراهقة، وهما سعيدان بقطع مسيرة حياتهما جنبًا إلى جنب.

- إلى أين ستذهب مع بناتك هذا الشّتاء؟ سأل وليم.

- إلى كلوزي. هل تذكر؟ أبي يملك «شالي» هناك وكنّا قضّينا فيه شهرًا، في الصّيف الّذي سبق سنة البكالوريا.

انبثقت الصّورة في ذهن وليم: ماندين! ماندين، حبيبته لأيّامٍ ثلاثة. ماندين ورسائلها المتوسّلة. ماندين وابنها المزعوم...

ابن وليم؟

كان الأب زِيان واقفًا باستقامةٍ على رجيله النّاحلتين، مستندًا إلى عكّازٍ غرزهُ أمامه، صارمًا، غير وديٍّ، مانعًا أيًّا كان من المرور. أنْوراكْ قرمزيّ يعطي جسده حجمًا لا يملكه يجعله مهدّدًا، وحارسًا ذا جلدٍ مشويٍّ، وعُرفٍ أبيض، وشاربٍ مسوّى بالمقصّ، وحاجزًا معسكِرًا أمام أبواب مقاطع سافوا.

ظلّت قاعة الانتظار فارغةً. كان روّادها يقلّون كلّ عام، ولم تعد تُشغّل لا شبّاكيًّا ولا ناظر محطّة. وكان هناك موزّع تذاكر آليٍّ يسمح للمسافرين بالرّكوب، وسلّة مهملات تعرض خدماتها.

غادر غولدن ومولر وجونسون القطار، المسافرون الوحيدون يرتدون معاطف من الكشمير على بِذلهم المخمليّة الملمس، وتقدّموا نحو الأب زِيان.

صاح فيهم:

- لن تقابلوا لا ابنتي ولا حفيدي.

- أحيّيك، سيّد تيفناز العزيز، هتف المحامي الأوّل.

- نحن مُغتبطون بالتّعرّف إليكَ أخيرًا، أردفَ المحامي الثّاني.

بعينٍ تلمع كالشّرر، قاسهم العجوز، ثمّ حوّل نظره إلى وليم غولدن. من كان يرى؟ غريبًا يكتشف وجهه؟ القذر الّذي هتك عرض ابنته؟ النّاكح الهارب؟ المليونير الّذي جاء يُصلح خطأه؟ أو هل يحاول أن يتلمّس في وليم ملامح تنتمي إلى الوجه الأليف لحفيده؟ ظلّت تعابير وجهه عويصة الفهم.

- اتبعوني.

استدارَ في صمتٍ، غادر المحطّة، وسار في النّهج الوحيد للقرية المحصورة بين الجبال. كانت الطّريق الرّماديّة المحفّرة قد كابدت قسوة الشّتاء؛ حصى مرميٌّ لمقاومة الثّلج كان يتدحرج تحت الأحذية. كان العجوز يعرج، بعزّة نفسٍ، بطيئًا، بل متباطئًا، كأنّه يجد لذّةً في تعديل خطى الباريسيّين على خطوته.

دخل مقهى جمّد اسمُه -موعد الأصدقاء- وليم من فرط سخريته.

جلس الجميع على كراسي بلا ظهرٍ حول طاولةٍ بسيطة. كانت الحجرة، الخالية من الذّوق والأناقة، والمكسوّة بجيرٍ رماديّ على الجدران، وبتربيعات على البلاطة، ترسل ريح جبن نتنةٍ تختلط بروائح الخمر المطبوخة، ورائحة حمضيّة لمطهّر ممزوج بماء جافيل. لم يجد الباريسيّون بدًّا من إسناد مَرافقهم إلى السّماط المشمّع اللّزج.

حولهم، لا شيء يذكر، عدا نافذةٍ ضيّقة تعجّ بنباتاتٍ كثيرة الورق، وعرائس مزرودةٍ، وخلف باب الدّخول، ساعة كونتيّة[1] ضخمة من خشب الجوز، ينام رقّاصها وسط شكلها المندولينيّ.

طلب الأب زِيان من النّادلة قارورةً من خمر التّفّاح مع أربعة أكوابٍ عاديّةٍ دون أن يكترثَ لرغبات كلّ واحدٍ.

تريّث حتّى شرب، مسح شاربه، ثمّ هتف باتّجاه وليم وهو يضع كوب الصّلصال الرّمليّ:

- لماذا؟

- لماذا ماذا؟ ردّد وليم في حذرٍ ماكر.

تردّد في فهم معنى السّؤال: هل يطلبُ منه الأب زِيان لماذا فرّ أم لماذا يعود؟

شدّد الأب زِيان بقسوة:

- لم الذّهاب؟

كان هذا السّؤال يُحرج العجوز أكثر ممّا يُحرج وليم.

- كنتُ صغيرًا جدًّا.

- وكبيرًا بما فيه الكفاية كي تُضاجع ماندين.

- صغيرًا جدًّا على الأبوّة.

(1) نسبة إلى فرانش-كونتي Franche-Comté وهي منطقة في شرق فرنسا، وعاصمتها بيزانسون، حيث شركة ليب الشهيرة لصناعة الساعات.

- وللأمومة؟ ماندين في سنّك.

فرقع الردّ مثل جَلدة سوط؛ بَيْدَ أنّ وليم أحسّ من طريقة التّخاطب أنّ التّوافق ممكنٌ، بغضّ النّظر عن العدوانيّة وأنّه قد يُقبَل رغم انتقاد الأب زِيان إيّاه.

- نحن لم نفعل شيئًا آخر غير ممارسة الحبّ. لم يكن لدينا نيّة الزّواج ولا تربية أطفال.

- تكلّم عن نفسك.

نكس وليم رأسه، وهو واعٍ بسوء نيّته. فلطالما افترضت ماندين الارتباط بـ «أميرها»، لكنّه تظاهر بعدم سماعها، ثمّ نسيانها.

- بعد عودتي إلى باريس، لم أصدّق ما قالته لي ماندين. أو لم أشأ تصديقه. وبالأحرى، بلى، ما دمتُ قد قدّمت المال لماندين حتّى تذهب للإجهاض في المستشفى.

هزّ الأب زِيان كتفَيه وتأمّل الشّمس خارج المقهى. لبضع ثوانٍ، بدا أنّه يركّز على السّماء الصّافية، يتشمّم نورها، بعيدًا عن رفقة البشر. الجبين مغلقٌ، والعينان في زرقة السّمت، بدا غائبًا تقريبًا، انتهى بأن غمغم بصوتٍ حلقيّ:

- أنتم، الباريسيّين، تحتقروننا لأنّنا نعيش وسط دوابّنا. ومع ذلك، يمكنكم أن تلاحظوها، الدّواب، وسوف تستخلصون منها الدّروس. لدى الحيوانات، لا يوجد إطلاقًا ذكرٌ نسي إطعام صغاره أو تربيتها.

أشاح وليم بوجهه، متأثّرًا، عاجزًا عن الردّ. وأمام ضراوة الأب

زِيان، لزم مولر وجونسون الصّمت بضع ثوانٍ احترامًا، ثمّ شرعا في طرح قضيّتهما.

- سيّد تيفناز، أرجوك أن تعتبر موكّلنا نادمًا اليوم على سلوكه بالأمس، وأنّه خجِلٌ من فعله، وهذا سببُ مجيئه، وهو يودّ إصلاح خطئه ويلتزم بما يلزم.
- إصلاح؟ لا نصلح البشر كما نُصلح سيّارةً أو محِمصة خبزٍ.
- كما جاء في رسالتنا، موكّلنا يعلن عن استعداده للاعتراف بالطّفل، والإنفاق على مصاريف تربيته، ودفع مبلغ معقولٍ لأمّه.
- معقولٍ بالنّسبة إلى من؟ إلينا أم إليه؟ ورقتكم لا تذكر شيئًا.
- مليون يورو، صرّح مولر.
- مبلغٌ هامٌّ بالنّسبة إلى الطّرفين، أضاف جونسون.
- بطبيعة الحال، سوف نجري أوّلاً تحليل آ دي إن، ختم مولر.

فوجئ الأب زِيان في البداية، واندهش، ثمّ تنحنح وارتبك. حاد عن تأمّل الطبيعة، ونظر إلى وليم يبحث عن تأكيد. أومأ وليم برأسه. قطّب الأب زِيان جبينه المغضّن.

تدخّل مولر قلقًا:

- عرضُ السيّد غولدن بدا لنا سخيًّا ولكنّه أصرّ عليه لأنّه، في رأيه، يتناسب والضرر.

«السيّد غولدن»... غمغم الأب زِيان، وهو يعلك بازدراء اللّفظة المفخّمة.

- هل ترفض أن تمنح السيّد غولدن فرصةً؟ أعاد جونسون.

وكأنّ المحامين لا يساويان أكثر من الذّباب، ردّ الأب زِيان على وليم:

- لستَ أنتَ الّذي أمنحه فرصةً، بل ماندين وجيبي.

صعد وليم المسرب الكثير الحصى المؤدّي إلى «شالي» الأب زِيان، وكان العجوز قد طلب من المحاميَيْن أن ينتظرا أسفله.

في ذلك اليوم المشرق، لم يكن ثمّة أثرٌ لغيمٍ معلّقٍ بالذّرى. التّضاريس، والصّخور، والقمم، تنفصل بجلاءٍ بينما كان السّيل، وهو يناغي العصافير، يجرّ مياهه الحيّة في سريره المحصّب.

كان الأب زِيان قد غيّر إيقاع سَيْره، إذ صار يُسرع في تؤدةٍ، بقدمٍ واثقةٍ، وتوازنٍ دقيقٍ، رغم إعاقته. وخَلْفَه وليم، يُغالب عناده برباطة جأشٍ كي يتبعه.

حاول التحدّث مع العجوز:

- ما اسم الولد؟

- جيبي. أنتَ تجهلُ اسمه؟

أثلجت وليم خشونة النّبرة، فتريّث قَبْلَ أن يسأله:

- اسمٌ غريب، جيبي...

- هو اختزال.

تريّث وليم مسافة خمسين مترًا قبل أن يلحّ:

- ما اسمهُ الكامل؟

- يفترض أنّك تعرف. ماندين سمّته هكذا من أجلك أنت.

- ماذا؟

- جيمس بوند! جلجلَ الأب زِيان.

توقّف، دار على عقبَيه ووجّه إصبع اتّهامٍ نحوه.

- ماندين قالت إنّه بطلك المفضّل.

تذكّر وليم روايات الجاسوسيّة الّتي كان يقرؤها، حين أغوى الفتاة، فاحمرّ وجهه خجلاً.

- آه! استخلص الأب زِيان، كأنّ وليم اعترف بمسؤوليّته.

استأنفَ العجوز الصّعود بحزمٍ حانقٍ.

- أنا، أسميه جيبي. لم أتخيّل قطّ أن يكون لي جيمس بوند تيفناز خلفًا.

لزم وليم الصّمت وهو يلهثُ حرصًا على ألاّ يتأخّر برغم خاصرته الموجعة، وعَدَّلَ في ذهنه حالة ابنه المدنيّة إلى جيمس غولدن، أو جيمس بي غولدن. في الأسفل برزَ رجلٌ من إسطبل يدفع الأبقار إلى المراعي. كانت الأبقارُ الصّغيرةُ تركضُ مبتهجةً وهي تحرّكُ النّواقيس المثبّتة في أعناقها، بينما كانت الكُبرى تقضمُ العشبَ على شكلِ حزمٍ ضخمة.

- هل أعلمتَهما بقدومي؟

- نعم.

كانت إجاباتُ العجوز المقتضبة تعوق الحديث، وكان وليم

يغتاظ أن يُعامله على هذا النّحو، كأنّه طائشٌ ذو ستّة عشر عامًا.

مرّت عدّة دقائق. تجرّأ وليم على القَوْل وهو يتصبّب عرقًا:

- هل إنّ ماندين تَحْقِدُ عليّ؟

هزّ الأب زِيان كتفَيه، ووجهه متألّمٌ:

- كلاّ.

وصلا عند مستوى برج الأسلاك واستعادا أنفاسهما. كان الرّبيع من حولهما يتنامى بسرعتَين: عند هذا السّفح، خضر مراعٍ تُنيرها هنا وهناك هندباء برّيّةٌ؛ وعلى السّفح المقابل، الّذي لا يغنم الشّمس بشكلٍ أقلّ، لا يزال التّراب يتسوّى ولا تبدو سوى أزهار الرّبيع مستندةً إلى الحجارة.

- ماندين لا تحقدُ عليّ؟ أعاد مذهولاً.

- ماندين هي ماندين.

قدّر الأب زِيان أنّه انتهى من هذه المسألة، ثمّ فكّر وهو يتقرّى ملامح وليم.

- هي تنتظرك. ظلّت على يقينٍ أنّك ستعود، حتّى وأنا أوبّخها كلّما قالت لي ذلك. وها إنّها تبكي منذ يومين، من فرط سعادتها.

- سعيدةٌ بأنّها كانت على حقّ؟

- سعيدةٌ بأنّها ستراك.

ارتجف وليم مذعورًا؛ هزّةٌ عفويّةٌ من جسده تُنبئ عن رغبةٍ في الفرار. شعر الأب زِيان بردّة الفِعل تلك، فعبر مقلتيه بريق استهزاء.

- اطمئن، منعتها من الارتماء عليك. أن تلحسكَ مثل كلبةٍ تحتفي بسيّدها شيءٌ يُثير غثياني... أمرتُها أن تفكّر في الصّغير. لا شيء سوى الصّغير. وقد فَهِمَت.

على المسرب الموحل، كانت العنزات الّتي ذهبت تشرب في جابية الخشب قد تركت آثارها: بهذه العلامة، تذكّر وليم أنّ «الشالي» يقع على مسافة مائة متر من هنا، خلف التّلعة.

تقبّض قلبه.

كانت ماندين واقفةً أمام الباب، وبيدها طفل. لا شكّ أنّها رأتهما يصعدان، أو أنّها واقفةٌ هنا، واثقةٌ، منذ الصّباح.

لا الزّمن ولا الحزن ولا الأمومة أثّرت في جمالها، في طبيعتها المسكرة. كانت مشرقةً، رائعةً، تطفح قوّةً وحياةً، وبسمةٌ نشوانةٌ تفتحُ شفاهها المكتنزة.

أعاد وليم افتتانًا يرجع عهده إلى عشر سنوات، ثمّ تمالك. كلاّ، هو لم يأتِ من أجل ماندين، بل من أجل ابنه. لا سبيل إلى تكرار خطأ المرّة السّابقة.

دنا ببطءٍ، ورجلاه ثقيلتان، وراحتاه تنزّان عرقًا، وهو يخشى في كلّ ثانية أن يخطئ -إمّا بالإفراط في تشجيع ماندين، أو بالمبالغة في احتقارها-، ويتوجّس حكم هذا الطفل المجهول الّذي يتأمّل، مستقيمًا في صداره البرتقاليّ، السيّدَ الّذي يزورهم. تجمّد الجميع. وصار الطّفل مركز العالم. وكان الكبار الثّلاثة يرقبون ردّة فعله.

لم تستطع ماندين كبح تهيّجها، إذ ركّزت نظرها على الطّفل

ووجهها منطلقٌ بالفرح، وعيناها جاحظتان، وهي تدلّه بيدها إلى وليم، كأنّها تقدّم له أنفس هديّة.

في سرعة البرق، أحاط وليم بالظرف: لقد صفحت ماندين. بل إنّها تقف في ما وراء الصّفح، وقد محت لوحة الماضي. بالنّسبة إليها، لا تهمّ سوى اللّحظة الرّاهنة الّتي تُلغي المآسي السّابقة؛ في تلك اللّحظة، كان ولدها جيبي يلتقي بأبيه وهي تقدّمه له باعتزاز. أبوه أبٌ طيّب. أبوه سيّدٌ وسيمٌ جدًّا، ذكيٌّ جدًّا، ناجحٌ في حياته.

أحسّ الطّفل أنّه يعيش لحظةً حاسمةً. كان نظره ينزلق من أمّه إلى جدّه، ثمّ إلى وليم. بدا متردّدًا وضغطٌ كبيرٌ يجمّد أطرافه.

تقدّم وليم، ودون تفكيرٍ، انحنى أمامه.

- أهلاً، تمتم.

- أهلاً، ردّ الطّفل بصوتٍ مزماريّ النّغم، وقد اطمأنّ إلى أنّ المشهد عاد طبيعيًّا.

قبّل الكهلَ على خدّه باحترامٍ، ثمّ سأل وعيناه تبرقان بالإعجاب الّذي يتهيّأ لإبدائه:

- صحيح أنّك أمير؟

***

في القطار الّذي عاد به إلى باريس، كان وليم يستريح من انفعالات هذا اليوم الّتي دمّرته، وحدقتاه مشدودتان إلى الكابلات الكهربائيّة الّتي تُحاذي السّكّة وتوقّع حلمَ يقظته بلطف. كان المحاميان، المطلوبان لقضايا أخرى، قد تركاه بعض الوقت من أجل مُسارّة.

بدا له شبابه بعيدًا. عشر سنواتٍ تفصله عن تلك الصّائفة، عن ماندين، عن جسدها الخفيف، النَزِق، عن شبقهما الحامي البريء. منذ شهر أغسطس ذاك، استبسل في امتحاناته، وشهاداته، ومناظراته، استبسل كي يفرض نفسه على عمّه، استبسل كي يعاود المشي بعد حادثه، استبسل كي يمنع إفلاس بنك غولدن؛ أجل، منذ ذلك الوقت، لم يَقُد سوى معارك. بَيْدَ أنّه هنا، على شِناخ[1] جبال الألب، اكتشف أنّ المرء يمكن أن يقنع بالعيش، والتّنفّس، يتحسّس مداعبة الرّيح، يفتح عينيه كي يتمتّع برؤية العالم، ينهض في الصّباح وينام في المساء؛ هنا دام انتظار شخص عشر سنواتٍ، دون أن يُحدث ذلك إحراجًا قد يُحدثه تأخّرٌ بخمس دقائق في باريس.

أعجبه ابنه، وأعجبَته ماندين. ورغم ذلك ظلاّ مجهولين، غريبَين. تحت رقابة الأب زِيان، لم يتلامس وليم وماندين، وخضعا لتحفّظٍ طبيعيّ من جهة وليم، وتحفّظٍ مفروضٍ من جهة ماندين.

عاد مولر وجونسون إلى الجلوس أمامه. أغلق جونسون محفظته ولوّح بالطقم الّذي استعمله مع جيبي ووليم.

- سنسلّمك نتائج تحليل آ دي إن المقارن بينكما في غضون ثمانية أيّام.

لم ينبس وليم بكلمة. لم يكن في حاجةٍ إلى اختبار بنوّةٍ: جيبي يُشبهه، وبالأحرى -فلا أحد يملكُ فكرةً موضوعيّةً عن ذاته-، يُشبه جان، ابن خالته الّذي كان النّاس في الغالب يحسبونه أخاه.

(1) أنف الجبل، إذ يخرج منه ويدخل في البحر.

الوِراثة لا تقبل الشّكّ.

كانت تلك القناعة تُولّد فيه أحاسيس شتّى، غير مريحةٍ: ما دام هو الأب، فهو وغدٌ أيضًا.ومع ذلك، لم يرغم نفسهُ على الاقترابِ من ماندين. اشتهاها سابقًا، لا أكثر، كذلك اليوم، إذ لا يتصوّر أبدًا أن يمنحها أدنى مكان قربه. لا أهمّية لماندين! فقد اعتاد أن يصدّها، ويجهل عذابها. معها، سوف يلتزم باتّباع خطّه السّابق. ولكن مع الطّفل؟ هل ينبغي أن يحبّ في المستقبل هذا الابن الّذي أهمله؟ هذا الابن الوحيد الّذي سيكون له؟

أثارَ الموضوع مع رَجُلَي القانون:

- ماذا تنصحانني بخصوص ابني؟

- لا أفهم سيّد غولدن. هل نسينا عنصرًا في الاتّفاق الّذي حرّرناه لآل تيفناز؟

- لا أتحدّث عن الجوانب القانونيّة، أتحدّث عن... العلاقات. ينبغي أن أذهب لرؤيته، ربّما... أن أصبح أبًا بطريقةٍ أخرى غير دفع الأموال... أن أدعوه إلى باريس. مع أمّه أو من دونها، هنا يكمن المشكل... وإذا طلبت مقابلةً مع القاضي لأجل رعاية تكون...

أوقفه مولر بإشارةٍ من يده مؤكّدًا بذلك سلطته:

- لنكن واضحين: في ما يخصّ تركة عملك، يكفي أن يكون لك ابن، لستَ مرغمًا على محبّته.

أيّده جونسون، متسلّيًا، ثمّ انفجر الشّريكان ضحكًا.

وضع وليم رأسه في جُبْنٍ بين كفّيه ليخفي وجومه: كيف يمكن تقييم الموقف بهذا القدر من اللاّمبالاة؟ فرض قراره نفسه: فقط لمخالفة هذين الوحشين ذوَي الدّم البارد، وبالخصوص لكي لا يكون شبيهًا لهما سوف يحبّ ابنه.

تآلف جيمس ووليم.

بعد النّتيجة الإيجابيّة الّتي أكّدها تحليل الأبوّة، تعاقبت التّسويات الرّسميّة، بقيادة مولر وجونسون من جهةٍ، والأب زِيان من جهةٍ ثانية. ورث وليوم غولدن ثورة عمّه الضّخمة، ومن ضمنها البنك. غيّر شقّته الصّغيرة بفندقٍ خاصٍّ في الدّائرة 16، تتولّى زمرةٌ من الخدم ترتيب شؤونه.

كان وليم غولدن يعمل على الوتيرة نفسها، ولكنّ شغلاً جديدًا تسلّل إلى حياته: ابنه.

كلّ نصف شهرٍ، كان يذهب يوم الأحد إلى الألب ويخصّص لابنه بضع ساعاتٍ. وكانت ماندين تبدو كأنّها تستجدي العناية، بل الحبّ، ولكنّ الأب زِيان كان يقظًا، يمنعها من الاستسلام لطبيعتها الحانية. ورغم الإحباط الّذي يصيبها من ذلك، فإنّ حرمانها يمحوه الفخر الّذي تراه مرتسمًا على وجه جيبي، الطّفل الّذي كان في ما مضى بغير أب، وها هو يُخالط اليوم بطله، لا سيّما أنّ وليم، الّذي يسافر في طائرةٍ خاصّةٍ، كان غالبًا ما يأخذ ابنه للتّحليق فوق القمم وشقّ الغيوم.

بلغ جيبي السّادسة عشرة من عمره. وكان لِزامًا عليه أن يذهب

إلى الإعداديّة، ما يعني، بالنّسبة إلى سكّان المناطق الجبليّة الصّغار، أن يصبح طالبًا داخليًّا بالمدينة، في مدرسةٍ بعيدةٍ. كانت ماندين تعرف ذلك، وترتجفُ من فكرة ألاّ تتمتّع بحضور ابنها إلاّ في نهاية الأسبوع.

في شهر يوليو، استطاع وليم أن يعقد لقاءً بينه وبين الأب زِيان الصّموت وكان بصدد إصلاح باب الإسطبل.

- استرشدتُ عن المدارس الإعداديّة بالجهة. قليلةٌ هي الّتي تتوافر على مبيتٍ، وهي ليست الأفضل.

- ما دام جيبي يعمل جيّدًا.

- ثمّة فرق بين البروز في مدرسةٍ ضعيفةٍ والتّفوّق في معهدٍ ممتاز. العُور في مملكة العُمي ملوك.

كان للمثَل في نفس الأب زِيان أثرٌ بليغٌ، إذ توقّف عن عمله.

- بمَ تَنْصَح؟

- بألاّ يكون طالبًا داخليًّا.

- عفوًا؟

- أن يعيش بجانب أبيه في باريس، ويرتاد، مثلي سابقًا، إعداديّة ستانسلاس، معهد لويس الأكبر، وأن يلتقي بكما في نهايات الأسبوع والعطل.

عبسَ الأب زِيان، فرقع بلسانه مرّتَين أو ثلاثًا، وبعد نفَسٍ طويلٍ بصق ومدّ يده إلى وليم: كان موافقًا - فلا حقّ لماندين في هذا الباب، مادامت تحت الوصاية.

عندما عاد وليم بعد أسبوعَين، لاحظ أنّ ماندين تغيّرت. كانت تنظر إليه من جانب، وعيناها محمرّتان، وأنفها منتفخ. كشف له الأبُ زِيان أنّها تبكي منذ أن عَلِمت بالتّرتيبات الجديدة. وإذا كان دخول ابنها المبيتَ لم يُرضِهَا من قبل، فإنّ الوضع الأخير يُضيف خيانةً أخرى: هذه المرّة، ليس المجتمع المجرّد بإرغاماته التّعليميّة هو الّذي يسرقُ منها ابنها، بل هو رجلٌ، رجلٌ ملموسٌ، رجلٌ أغنى، وأدهى، وأكثر تأثيرًا منها، الرّجل الّذي لم يعتنِ بجيبي إلاّ منذ بضعة أشهر، بينما كرّست هي عشر سنين له. وسكّينٌ آخر في الجرح، كان جيبي مُبتهجًا: لقد بدا مأخوذًا بالعيشِ مع أبيهِ والسّكنِ في باريس والالتحاق بمدرسةٍ ثانويّةٍ مرموقةٍ! لم تتعرّف على ابنها، مع رغباتهِ الجديدة تلك، حتّى إنّها تساءلت عن وجهِ الشّبهِ بين ابن المدينةِ هذا، وبين ذاك الرّضيع الحسّاس، عديم الكلام الّذي ألقمتهُ ثديَها؟ أيّ علاقةٍ له مع ذلك الطّفل الّذي كان يجري كي يرتمي في حضنها صائحًا «أمّي» صيحة تلخّص وحدها جمالَ العالمِ كلّه؟ كان لا يزال أمامها بضعة أيّام قرب جيبي، ورغم ذلك قدّرت أنّه قد رحل، لقلّة ما صار يُشبه الطّفل الّذي عشقته منذ صَرْخَته الأولى.

ذُعِرَ وليم من هيئتها الشّبيهة بهيئة طريدةٍ فاتّخذ قرارًا جبانًا. في نهاية أغسطس، كان يُفترض أن يجيء ليأخذ ابنه ويسكنه في باريس، فتذرّع بالتزاماتٍ مهنيّةٍ، واقترح على الوفيّ بول أن ينزل إلى سافوا بدلاً منه.

مساء الأحد، اكتشف جيمس مذهولاً، بعد أن جاء به بول،

فندقَ أبيه الخاصّ، وغرفته العملاقة، والمسبح، وقاعة الرّياضة، والخدم تحت تصرّفه. وجد وليم صعوبةً في إسلامه للنّوم لما شمله من اختلاجٍ من فرط الانتشاء.

بعد أن نام الطّفل، جلس الصّديقان في الصّالون.

- بلياردو؟

- ويسكي مضاعف كي أستعيد توازني، قال بول.

- ممّ تستعيد توازنك؟

حكى له بول المشاهد الفظيعة الّتي حصلت في سافوا.

عندما وصل بول عشيّتها إلى «الشالي»، فهمت ماندين أنّه جاء يخطف منها ابنها، فردّت الفعل مثل وحش. ارتمت على بول وهي تطلق صراخًا بالغ الحدّة، فلطَمته، وخدشَته، وضربَته، معتزمةً طرده. فاجأت قوّتُها بول. «كانت ستقتلني لو لم يتدخّل الأب زِيان». عندما توصّل العجوز إلى الفصل بينهما، اندفعت إلى الطّابق، أمسكت ابنها، وانزوت في غرفتها وأحكمت غلق الباب.

- كان جيمس يبكي، يتخبّط، يتوسّل إليها أن تطلقه، ولكن ما عاد شيءٌ يدرك عقلها الوحشيّ. كانت تصرخ عبر المصراع: «أبدًا! أبدًا! أبدًا!» غضب زِيان فاستدعى تعزيزات. كسر الباب بمساعدة أربعة جيران، وانتزع منها حفيده، بينما سيطر القرويّون على ماندين ببلوزةٍ كالقميص الجبري كبّلت معصمَيها خلف ظهرها. صار سلوكها عندئذٍ تراجيديًّا: اندفعت نحو الجدار ورأسها إلى الأمام. «أعيدوه إليّ! أعيدوه

إليّ!» كان الدّم يسيل من جمجمتها، وهي تُواصل ضرب الجدار. بركة من الدم. استطعنا، نحن الخمسة، السّيطرة عليها، حتّى وصول رجال المطافئ. عالجوها بإبرةٍ مسكّنة، وهي تقاوم. بعد ثلاث إبر، نامت أخيرًا وهي تتأوّه. أنزلتُ ابنك في فندق، على الحدود السّويسريّة، حيث لا يمكن أن تذهب لاسترجاعه. كان جيمس يرتعد؛ حتّى وإن عاب على أمّه ردّة فعلها، فقد كان يختلج عطفًا عليها، ويتساءل أليس من حقّك أن يرحل، أليس من حقّها أن تعترض. كان يتلعثمُ في الكلام، وينشج، ويتأوّه، ويحكّ جسده. سمحتُ لنفسي بإعطائه قرصًا كي يرتاح.

تنهّد بول قبل أن يواصل:

- هذا الصّباح، صعدت إذن من جديد إلى «الشالي» بحثًا عن أمتعته. هنا، كان المشهد يجمّد الدّم... ماندين، حافية، في ألبسة الأمس نفسها، جالسة على الأرض، تنتظرني عند باب الدّخول، شاحبةً، رماديّةً، خاليةً من الدّم، جفونها في لون الخمر، شفاهها جافّة، وهي تتأمّلني في سكينةٍ ميّتةٍ، كأنّها تقيم في العالم الآخر. تبعتني في كلّ مكان وهي تستند إلى الجدران؛ دون أن تفوه بكلمة، رأتني أطوي ملابس ابنها، وأصفّفها في حقائب، وأضع لعبه في علب. كان الأب زِيان يُراقبها بطرف عينه، ولكنّه -حدستُ ذلك- كان مثلي يخشى صمتَها أكثر من هياجها السّابق. وبينما كان رجلان قويّان يحملان الحقائب والأكياس إلى القرية وكنتُ قد كلّفتهما بذلك، وافقتُ على

عَرْضِ الأب زِيان مشاطرتَه تورتة بالبرقوق. تركتنا مانذين نجلس على الأرائك، قرب الموقد، ثمّ خرجت تشمّ الهواء، بوجهٍ فارغ. كنّا نُثرثر ونحن نرشف قهوةً بقطرةٍ من عصارة العنب حينما سمعنا نباحًا حادًّا. نهض زِيان إثره. «غوست! -نعم؟- غوست، كلبه. كان قد بلغ من الهرم ما جعله لا ينبح منذ شهور!» اشتمّ الأب زِيان الخطر فاندفع خارجًا، كان قد استدلّ إلى مكان الضجيج فعدَوْنا معًا حتّى الإسطبل. فوق مولوسيّ[1] أصفر ينبح في يأسٍ، تتدلّى مانذين، وحول رقبتها حزام سرج شدّته إلى العارضة المركزيّة. كانت تختلج، وهي ما تزال على قيد الحياة. في بضع ثوان، رمى إليّ زِيان بفأس، فتسلّقت هيكل البناية عن طريق السلّم الّذي استعملَتْه، وقطعتُ الرّباط. وقع جسد مانذين على القشّ. أسرع الكلب يلحس سيّدته، وارتمى زِيان على الأرض يفكّ العقدة. لاحت مانذين محتقنةً، ضيّقة النّفَس، جشّاء الصّوت، وهي تُعيد على مسمع أبيها الّذي كان يهدهدها بين ذراعيه: «دعني. سوف أعيد الكرّة. دعني. -كلاّ. -بلى!» خطرت ببال الأب زِيان فكرةٌ عبقريّة: تركها، قام، نظر إليها ثمّ صفعها فجأةً صفعةً مدوّية. «أنانيّة! - ماذا؟» تأوّهت مانذين وهي تفرك فكّها. «ينبغي أن تعيشي لأجله. -لأجل من؟- لأجل ابنك. قد يحتاج إليك يومًا». تغيّرت سحنة مانذين. لم تعد تتحرّك،

(1) Molosse: كلب حراسة من بلاد المولوس في جبال إيبيروس الإغريقية، كبير الرأس أفطس الأنف، شبيه بالدرواس.

ولكنّ نضجًا داخليًّا كان ينعش ماندين الّتي نعرفها، تلك القويّة، المتهوّرة. عاد الدّم إليها. ببطءٍ، انسابت الدّموع على خدّيها، وعلى رقبتها المرتضّة. كانت تبكي من انفراجٍ، وتبتسم خلف نشيجها. «معك حقّ بابا. سيحتاج إليّ جيبي في يومٍ من الأيّام». أيّدها الأب زِيان فارتمت في حضنه، فداعبها بحنانٍ فظٍّ دون متعةٍ حسيّةٍ، حنان مزارعٍ يطمئن عنزةً صغيرةً، ثمّ عاد إلى «الشالي» وهو يسندها. بعد ساعةٍ، كانت تدندن وهي تستحمّ تحت الدّش. سمعناها من أسفل، منفرجي البال، مقتنعين بأنّها لن تحاول الانتحار.

كان بول قد أنهى حكايته، فسكت الصّديقان، وكلاهما يفكّر في مأساة ماندين وطفلها.

- تسقيني ثانية؟ قال بول وهو يمدّ كأسه.

- بالتّأكيد.

همس وليم وهو يسكب السّائل الذّهبيّ:

- شكرًا لكَ يا بول. كنتُ أتوجّس من حدوث شيء كهذا ولم أشعر بأنّي قادرٌ على مواجهته.

- الأفضل أنّي تولّيت الأمر بنفسي. الآن، سوف تمنح ابنك أحسن ما هناك في راحة بال.

قام بول.

- انتهى القدّاس[1]. عائلتي في انتظاري. من النّادر أن أقضي يوم

(1) باللاتينية في الأصل Ite, missa est وهي العبارة الّتي يطلقها الكاهن معلنا نهاية القداس.

الأحد بعيدًا عنها... وبعد تجربةٍ كهذه...

رافقه وليم حتّى درج المدخل. في الشّارع، كان نور المصابيح القذر يلغي الألوان ويبسط الأشكال. بعض هواة العدو المسترين ينحدرون جريًا من غابة بولوني، وهم يتيامنون ويتياسرون بين البورجوازيّين الّذين يفسّحون كلابهم.

- شكرًا مرّةً أخرى يا بول.

ركّز بول أرنو قبّعته على رأسه، أغلق معطفه، وقى رقبته بوشاح من الحرير، وريحٌ نديّةٌ تعلن الخريف الباريسيّ. وبينما كان يلبس قفّازه تمتم، وهو يتردّد في مواجهة هذا العالم غير الودود:

- لم أر في حياتي قطّ مثل هذا، لو تدري.

- ماذا؟

- حبٌّ كهذا. حبٌّ بالغ القوّة، والشدّة، والعنف. قد تقتل لأجل ابنها. قد تقتلُ نفسَها لأجل ابنها.

لم يَجد للانصراف عزمًا، فشدّ يد وليم.

- أشعر بالخزي. ليس بسبب ما فعلت من أجلك، لأنّي على يقينٍ أنّنا نفعل ما فيه خير ولدك. بل بسببي أنا... لن أصارع أبدًا مثل ماندين لأجل بناتي.

- أنتَ متحضّرٌ يا بول. أمّا هي فلا.

- نعم؟

- نحن متحضّران، أنا وأنت.

هزّ بول رأسه، متحفّظًا.

- نحن متحضّران مثل شاي الأعشاب: قشّة عاطفةٍ منقوعةٍ في ماءٍ ساخنٍ، فاترٍ، وبلا طعمٍ.

تجنّب وليم، فحيّاه، وبخطوةٍ مُنهكة ابتعد وسط اللّيل.

اعتاد جيمس حياته الباريسيّة. ساعدته عناية أبيه ولطف الخدم والبذخ الّذي يذلّل كلّ الهموم، على تبيّن معالمه والكفّ عن الخفقان عند ذكر سافوا. وبما أنّه فطنٌ لبيب، يرغب في حيازة إعجاب وليم، عمل باجتهادٍ في الصفّ السّادس بإعداديّة ستانسلاس، فكان وليم يُرسله كلّ أسبوعَين إلى سافوا. في البداية، لم يحرج الفرق بين باريس والجبال جيمس؛ بل كان يفخر بانتمائه إلى عالمين مُتباينين، لا سيّما أنّه يجد الحبّ حيثما كان، حبّ أمّه، وحبّ أبيه. قضّى وقتًا طويلًا قبل أن يدرك أنّه يراوح بين الثّراء المفرط والفقر - كان الأب زِيان قد رصد مال وليم في البنك ولم يلمسه، إذ نذره لابنته في خريف عمرها.

ثمّ صدمته أشياء بسيطةٌ. فأمّه الّتي كانت ترتع دومًا في المراعي الجبليّة بقدم خفيفةٍ ورجل واثقةٍ، لا تعي شيئًا من دراسته، ولا تحرّك ساكنًا أمام الحكايات الّتي تبهجه، وتشاهد الأفلام الّتي تعجبه بعينين منبهرتين دون ردّة فعل، تسمعه لمامًا حين يحدّثها، وتبالغ في التلهّف على ضمّه إليها. صار يتذرّع بدعواتٍ لدى أصدقائه كي يختصر مقامه في سافوا. عند المراهقة، صار يضيق بحنان ماندين الجسديّ، قبلاتها، عناقها، مداعباتها، المقيل الّذي ترغمه على قضائه في حضنها. صار يفهم أباه، ويُفهمه بشكلٍ أفضل. ومن ألطاف الرّبّ أنّه لا يخجل منها، لأنّه كان يعودها في سافوا، في عالمها هي، دون شاهد.

كان وليم يستحسن أنّ ابنه يكبر قربه. صحيح أنّه كان يتفطّن إلى هِناته التّافهة -خوفٌ غريزيّ، أبّهة، شره إلى البذخ-، ولكن من يحبّ شخصًا يحبّ عيوبه.

ذات صباحٍ، أربكته جزئيّةٌ. جاء أحد الخدم بالبريد على مائدة الفطور، ولكنّ وليم كان غارقًا في مكالمةٍ مُهمّةٍ، يلصق الهاتف بأذنه، فلم يُعر المسألة أهمّيةً، واتّجه نحو عمق القاعة. كانت بها مرآة، سوّى أمامها ربطة عنقه وهو يواصل في الهاتف استدلاله؛ بَيْدَ أنّه أبصر في الإطار نفسه جيمس يتسلّل خلفه، يتصفّح المظاريف، ويستلّ منها واحدًا، برتقاليًّا، ثمّ انسحب. قام المراهق بهذه العمليّة في حيطة السّارق.

عندما أنهى وليم مكالمته، اعتراه ضيق. ماذا كان ابنه يخفي؟ ماذا كان يسرق؟ أيّ رسالةٍ يتلقّاها ويريد ألاّ يَعلم بها أبوه؟ تخيّل في الحين فواتير مشترياتٍ سرّيةٍ، ثمّ عادت إليه بشاشته لمّا اشتم رائحة مراسلةٍ غراميّة.

ارتاب وليم، فذهب إلى غرفة جيمس للتحدّث إليه. عندما اجتاز العتبة، دفعه جيمس ومحفظته على ظهره، معلنًا أنّ ليس لديه أدنى ثانية، وإلاّ فسوف يتخلّف عن امتحان الجغرافيا. فرك وليم شعر ابنه عند مروره. وجلس بآليّةٍ على السّرير، متفحّصًا الجدران.

صور مغني روك ولاعبي تنس، روايات خيال علميّ، حكاية من سلسلة «العجيب البطوليّ»[1]. فكّر في الرّسالة. أين أُخْفِيتْ؟ كلاًّ! لن يُفتّش أدراج ابنه! ففي سنّ الخامسة عشرة، كان سيكره من

---

(1) Heroic fantasy ملحمة أشرطة مرسومة أمريكية، ظهرت في ثلاثينات القرن الماضي.

أبويه مثل هذه الحركة. كبحه الوازع فهمّ بالخروج، وإذا هو يرتجف عن النّهوض: الرّسالة الّتي سحبها جيمس من البريد تنام في سلّة المهملات. عرفها من ورقها المندريني.

لم تتردّد يده، إذ تناولت المظروف. بدت له الحروف تحته أليفة: خطّ ماندين.

تهالك على سرير الفتى. هكذا إذن: ابنه يتصرّف مثله؟ ابنه يلقي رسائل ماندين في سلّة المهملات دون أن يفتحها؟ التّاريخ يُعيد نفسه إذن؟

ظلّ حائرًا متردّدًا في فتح الظرف. لو يعلم جيمس بذلك؟ كلاّ، بما أنّ ترتيب الغرفة يتمّ كلّ صباح، فهو لا يتوقّع أن يسترجعها من سلّة المهملات.

لاذ وليم بمكتبه، وأغلق على نفسه الباب.

«**طِفِلِ الذي أحِبْبُه. غوست مات. عومره 18 سنة. كاثير بِنّسبة لكلب. أذُنُّ أنْنَهو كان سعيد. بكيت كاثيرنْ. مُشتاقَ لك. صِرطَ تأتي أقل. زوّدنِ بي أخبارك. يبدُ أنْنَك تكتوبُ جيّدَنْ. أنا لا أتبيّنو ذالك. أمّك التي تعشاقُك**».

اكتشف وليم عُنفَ الضّربة الّتي وجّهها إلى ماندين برعايته لجيمس. فهو وإن لاحظ تحفّظات ابنه المتزايدة حين يُدعى إلى زيارة سافوا -كانت رحلاته تزعجه، بتعلّة الدّارسة والبعثات المدرسيّة- فإنّه لم يقدّر برود ابنه، خصوصًا أنّه لم يكن يرافقه أبدًا. بأيّ حقٍّ سوف يقرّع جيمس؟ كيف يمكن أن يوبّخه والحال أنّه، في مثل سنّه، خجل

من ماندين؟ «الأمّ ليست عشيقة، ألمح صوتٌ داخليّ، لك أمٌّ واحدة فلا تسئ سلوكك معها».

وعد وليم نفسه بالتّدخّل عندما يجد وقتًا مناسبًا.

بعد أسبوع، لم يكن قد وجد ذلك الوقت.

صباح الاثنين، تكرّر مشهد الرّسالة المختلسة.

ما العمل؟ جانبٌ من وليم يرى بعين الرّضا ابتعاد جيمس عن آل تيفناز ليصبح واحدًا من آل غولدن. في سنٍّ يتمرّد فيها الأبناء على آبائهم، كان جيمس يعبد أباه. هل سيلومه وليم على ذلك؟ يكبحه؟ ألا يسيء إلى هذا التّعلّق غير المنتظر، الجوهريّ، المربك؟ ماذا يقول دفاعًا عن ماندين؟ إنّها تُعاني من تخلّفٍ ذهنيّ، إنّها تتراجع في فهم ابنها بشكلٍ مطّردٍ، إنّها تثقله بعاطفةٍ مفرطةٍ.

طوال أشهرٍ، ترك جيمس يختلس رسائل أمّه ويرميها في سلّة المهملات.

ذات مساءٍ، أطلَع وليم ابنه على الأوبرا - في السّادسة عشرة لا بدّ أن يتذوّق هذا الفنّ الرّفيع. اختار له في يومه الأوّل «السيّدة باترفلاي» وهو يستشعرُ أنّ إغرابيّة اليابان وكذلك الكتابة الأوركستراليّة المذهلة لبوتشيني قد تثيران إعجابه، لا سيّما أنّ توزيعًا باذخًا جمع أفضل الحناجر الحقائقيّة[1] في العالم يؤذن بسهرةٍ استثنائيّةٍ.

لم يخطئ. كان المشهد يستعرض روائعه، ومنها الرّوعة الأولى، الحكاية.

---

(1) Vérisme: مدرسة أدبيّة وموسيقيّة ظهرت في إيطاليا أواخر القرن التاسع عشر، وتدعو إلى تمثيل الحقائق برمّتها.

في ميناء ناغازاكي، وقعت الصّغيرة سِيو-سِيو-سَن في هوى بنكرتون، ضابط في البحريّة الأمريكيّة في لحظة رسوّ. ضدّ عائلتها، ضدّ الأعراف الاجتماعيّة، ضدّ دينها، منحت سِيو-سِيو-سَن- ومعناها باليابانيّة السيّدة باترفلاي، السيّدة فراشة - نفسها لليانكي. تمّ الزّواج، جديًّا بالنّسبة إليها، بسيطًا في نظره. كانا يُمارسان الجنس. وكان يسافر. وبعد سنواتٍ ثلاث ربت خلالها ثمرة علاقتهما، كانت تنتظره، وفيّةً، منعزلةً، رافضةً خطّابًا مرفّهين. وعندما أرسى بنكرتون في الميناء مع زوجته الجديدة الأمريكيّة، علم أنّه خلّف ولدًا من سِيو-سِيو-سَن وقرّر أن يأخذه. فتظاهرت سِيو-سِيو-سَن بالموافقة، وقبّلت ابنها ثمّ انتحرت.

كلّما تقدّم الحدث، كانت الشّفقة تلمّ بوليم، وهو محمولٌ بالموسيقى، مفتونٌ بالديكور، مجندلٌ بالمؤدّية المتألّقة الّتي تهب صوتها الصّافي، اللّبني، الوجدانيّ للجايشا السّاذجة. باترفلاي تفقد كلّ شيء، عائلتها، أسلافها، هويّتها اليابانيّة، زوجها، ابنها، حياتها. سحقتها مأساةٌ محتومةٌ. وبسبب النّزعة اليابانيّة، وكمنجات الحرير، وطوابع البريد الشرقيّة، والأعضاء المهتاجة للمغنّين الّذين ينافسون الأوركسترا في القوّة، تخلّى وليم عن مراشح وعيه المعتادة. كانت الدراما الموسيقيّة تنفذ إليه؛ اهتزّ حين لم ترتَب باترفلاي من لامبالاة بنكرتون؛ بكى حين رآها ترقب السّفينة في البحر طوال سنين؛ ارتجف أمام الاستعلاء المتعجرف للذّكَر؛ رقّ لتضحية باترفلاي الّتي عهدت بالابن للأب، وتلقّى في معدته سيف باترفلاي وهي تبقر بطنها.

كان محميًّا بظلّ الحجرة، فخضع دون تحفّظٍ لوجدانه. وعندما

عاد النّور، بعد عشرين دقيقة من التّصفيق الحادّ، التفت جيمس نحوه وهتف، وبسمةٌ ساخرةٌ على شفتيه:

- يا له من ميلو!

عنى بذلك أنّه لا يُخدع: لقد فهم جيّدًا أنّ المؤلّفين والمؤدّين أرادوا التّأثير فيه، ولكنّه صمد أمام هذا التّلاعب العاطفيّ بكلّ قوّة أعوامه السّتّة عشر. في الواقع، كان يتباهى بأنّه لم يحسّ بشيء، وأنّه خرج سالمًا من هذا العرض.

لثانيةٍ، قدّر وليم أنّ ابنه أبله. ثمّ خطر بباله خاطر: السّيّدة باترفلاي تمثّل ماندين! لذلك تأثّر وليم كثيرًا. حين يسلك سلوك بنكرتون، ذلك المتعجرف الّذي يأخذ امرأةً في عطفة رحلة، ثمّ يلفظها، هذا المفسد القويّ الّذي ينتزع ابنًا من أمٍّ يعتبرها دونه، لهذا أرغمه بوتشيني أن يعيش الموقف عبر عيون الرّومنطيقيّة باترفلاي.

عند العودة في المساء، وهو يتمنّى ليلةً سعيدةً لجيمس، اختلس منه بعض كراريس، فانغلق في مكتبه، وتمرّن بيسرٍ على تقليد خطّه، ولما دقّت ساعة منتصف اللّيل، تشجّع وكتب رسالة لماندين.

بعد ساعة، وقّعها بـ «جيمس».

ستكون معاناة باترفلايه هو دون معاناة باترفلاي بوتشيني: ابنها يحبّها. الحقيقة لا تهمّ، جيمس لا يهمّ. كان وليم، وقد روّعته قسوة الرّجال، وقسوته هو، يُريد تلطيف حزن ماندين ويدفئ وحدتها.

كم هو سهلٌ أن نحبّ!

طيلة سنوات، روى وليم لماندين ما يفعل -جيمس- في الدّراسة

نهارًا، ومع أبيه مساءً، ومع أصدقائه في نهاية الأسبوع؛ يعلق بإطناب على الكتب الّتي يقرؤها، والأفلام الّتي يشاهدها، ويستفسر خاصّةً عمّا يجري في سافوا: كيف حال الجدّ زِيان، كيف يتصرّف الكلب الأرجوانيّ الّذي خلَف غوست، كيف تقبل العنزات تغيير إسطبلها؟ في النّهاية، يجمّع عدّة صيغ ملاطفة، لعلمه أنّ ماندين سوف تقرؤها وتعيدُ قراءتها بحميّة.

ولكي يُضفي صدقيّةً على خِدْعَته، كان يعترض رسائل ماندين إلى ولدها، فيقرؤها ويُعيد غلقَها قبل تسليمه إيّاها؛ ويُرغم جيمس أيضًا على كتابة رسالة في الشّهر إلى أمّه، حتّى لا يستغربَ إذا ما ذكرت رسائله بحرارة.

كانت الكذبة ساريةً. صار جيمس، وقد غدَا باريسيًّا، يقلّل باطّرادٍ من زيارة أمّه وجدّه، ولكنّ رسائله كانت تعوّض غيابه. أمّا وليم فكان يستمتع باللّيالي الّتي يقضّيها في كتابة الرّسائل المزوّرة: كان يغذّي الوهم بإصلاح فظاعة العالم، بأن يغفر له اختطاف ابنه، بتهذيب جيمس العاصي، وتحت قناعه، ينساق في التّعبير عن عطف صادقٍ على ماندين.

بعد شهادة البكالوريا، اقتفى جيمس طريق أبيه وشرع في دراسات عليا – في عروقه يجري دم غولدن. وكان وليم يضطرّ إلى الإلحاح كي ينزل جيمس مرّةً أو اثنتَين في السّنة إلى سافوا. يحرص على ذلك لا سيّما أنّ ابنه، بسحنته الباريسيّة المتقعة كجيفةٍ، وبوصفه طالبًا وميّالًا إلى الحفلات، سوف يستفيدُ من التّجوّل وهو يشمّ الهواء

النّقيّ. جيمس للأسف، كان لا يُطيعه إلاّ لقضاء أربعة أيّامٍ يعود إثرها على عجلٍ، دون أن يتغيّر شحوبه، ليلتحق بالفندق الخاصّ.

في الخامسة والعشرين من عمر جيمس، وخلال الحفل الّذي حوّل البيت إلى بارٍ راقصٍ زاهرٍ وقع حادثٌ غريب. كان الحفل على أشدّه حين انهار جيمس. خيّل للحاضرين أنّها غيبوبة كحوليّة، لأنّه شرب كثيرًا، ولكنّ الفحص في قسم الطّوارئ كشف مشكلاً في الكليتين، فاحتفظت به الفرقة الطبيّة.

في السّاعة الأولى، رفض وليم تشخيص الأطبّاء. فلا يُعقل أن نشخّص مرضًا في الكلى لمجرّد أنّ شابًّا سكر بمناسبة عيد ميلاده! هذا يحدث دومًا! أنتم تهذون؟ دعوا ابني ينصرف.

شرح البروفيسور مارتيل لوليم بهدوء، وبطريقةٍ بيداغوجيّةٍ، وبحزنٍ، أنّ السّهرة ليست السّبب بل الحافز. فابنهُ يعاني طيلة سنواتٍ من نخرٍ في الكليتين. هذا المرض تسارع للتوّ.

- ألم تستغرب سحنته؟

- بلى، ولكنّه يعمل بكدّ...

- هل يتقيّأ أحيانًا؟

- نعم، ولكنّه كان يرتاد العلب اللّيليّة وأنا...

نكس وليم رأسه: كان قد فهم.

- أيّ علاجٍ يلزمه؟

- لا يوجد علاج.

- ماذا؟

- الحلّ الوحيد هو عمليّة زرع. إن زرعنا له كليتين فبإمكانه أن يعيش.

- أجرِها!

- العمليّة دقيقةٌ جدًّا. والأمر لا يقتصر على أنّ التّبرّع بالكلى قليل، ونحن في حاجة إلى كليتيْن، بل ينبغي أن تكونا مطابقتين لجسمه. ولكن ينبغي ألاّ نيأس. سأطلب فورًا سجلّ عمليّات الزّرع.

في بضعة أيّامٍ، ساءت حال جيمس بشكلٍ مرعبٍ، وكأنّ علمه بمرضه حكم عليه. وعندما يزوره وليم -في الصّباح وعند الزّوال وفي المساء-، يجدهُ قد ازداد ضعفًا وهزالًا، وبدت سحنته غائمةً وعيناه مصفرّتين وشفتاه مختلجتَين.

انذعر، واستنفر معارفه، ووجّه نداءات في كافّة أنحاء باريس لتعجيل العمليّة. للأسف، لا وجود لمتبرّعين بكلى سليمة.

بعد أربعة أسابيع من الآمال الكاذبة، خرج الوضع من يديه: جيمس يواجه الموت.

في تلك اللّيلة، انعزل في مكتبه. كان لا بدّ أن يُعلم أمّ جيمس وجدّه بالحقيقة. كيف سيتصرّف؟

قرّر أن يكتب رسالتَين. واحدةً من طرفه هو إلى الأب زِيان. والثّانية، من جيمس، إلى ماندين.

بعد أن أنهى الأولى، ارتعد وهو يكتب رسالةً إلى ماندين:

أمّي العزيزة،

قد أكون غادرتُ الحياة حين تتلقّين هذه الرّسالة. لقد كشف الأطبّاء عن قصورٍ خطيرٍ في كليتيّ. أنا الّذي لا يعرف شيئًا عن هذه الأعضاء، عرفتُ بصعوبةٍ أنّها تقوم بدورٍ هامٍّ في جسدنا، وأنّ حياتنا تنهار لو تفقد تلك الأعضاء فعاليّتها. أجل يا أمّي! أنا أتناقص يومًا بعد يوم... صرتُ أجد صعوبةً في تغذيتي، ليس هذا فقط، بل فقدتُ الشهيّة أيضًا. أنتظر. ماذا؟ لست أدري. اقترح الأطباء عمليّة زرع. إنّه الموت دون شكّ. كلّ يوم، يقضي أبي عدّة ساعاتٍ بجانبي، وأقرأ على وجهه الفزع، إنّي أنطفئ.

أمّي، أريد فقط أن أقول لكِ إني أحبّك. أنا مدينٌ لكِ بكلّ شيء. الحياة أوّلاً، لأنّك حملتني في بطنك، بين ذراعيك، على صدرك، حين لم يكن أحدٌ يحبّني - لا أجهل أنّ أبي كان يُريدك أن تُجهضي، وأنّ جدّي اعتبرني عارًا. ثمّ المحبّة ثانيًا؛ لم تكوني سوى سخاء، وتفانٍ وابتسام، وحميّة. حتّى أن تتركيني أفارقك، وهو ما يمزّق قلبك، وافقت عليه طيبةً منك، لأنّك تقدّرين أنّي ينبغي أن أصبح «سيّدًا كبيرًا من أسياد المدن». سامحيني إن فارقتك. سامحيني إن زرت غِبًّا. سامحي بعدي. سامحيني إن صددت، عن غرور، مداعباتك، وقبلاتك، وملاطفاتك: كنتُ أريدُ نفسي قويًا، مستقلاً، بلا روابط، على طريقة الأولاد. لو أُمنح إمكانيّة مواصلة هذه الحياة، أو الحصول على حياة بديلة، صدّقيني سوف أحمل نفسي على أن أظهر لك الحبّ الّذي لم أعبّر لكِ عنه إلاّ في رسائلي، وأعطي حبّك المتين امتداده في الحبّ الّذي سأقابل به أولادي، أحفادك.

في سرير المستشفى، ألوذ بذكرياتي. هي تهدّئني. أتخيّل نفسي معك يدًا بيد، ونحن نجوب المراعي، مخفورين بغوست والعنزة بلانكيت، صديقيك الأكثر جنونًا ومرحًا وحماسًا منّا، ننتشي أربعتنا بسعادة إطلاق أرجلنا، وشمّ الهواء المشمس، وتحيّة الرّبيع. كم كنّا على صوابٍ ونحن نفرح من لا شيء. لأنّ ذلك اللاّشيء، كان كلّ شيء. نستنشق، نستنثر، دون أن ندري، ونسرّ بذلك. يا لها من حكمة! أنا الّذي خالط عدّة أناسٍ بارزين، رجال ماليّة، رجال سياسة، أيديولوجيّين، علماء، أكتشف أنّ غوست وبلانكيبت وأنتِ تقدّمون لي دروسًا لا غنى عنها. أن نعجب من وجودنا. نشكر. نكرّس الفرح، بكلّ قوّة.

كنتم خير معلميّ في الحياة، بله في الفلسفة، ولو أنّ سلوكي لم يكن في مستوى ما علّمتموني إيّاه. بعدها، تهتُ قليلاً في متاهات التّكلّف، حاولتُ أن أتشبّه بذوي النّفوس العابسة، أولئك الّذين يؤثرون خمود الهمّة على الابتهاج، التّشاؤم على التّفاؤل، الموت على الحياة. كنتُ حين أعرب عن ملاحظة منكّدة، صلفة، عدميّة أو يائسة يصفّقون لي ويهبونني شهادة في صفاء الرّؤية. بيد أنّ ما علّموني إيّاه، وأنا في حال الضّعف الرّاهنة، لا يتعدّى كوما من التراب، ولا أبلغ البأس والنّور إلاّ حينما أفكّر فيكم، أنتم الثّلاثة.

غوست، بلانكيت... هل تظنّين أنّنا سوف نلاقي ثانية في العالم الآخر الحيوانات الّتي أحببناها؟ أتمنّى ذلك بقوّة... أمّا هي فأنا واثق من أنّها كانت ستفعل المستحيل لكي تراني ثانية، وأنّها سوف تصبر بوفاءٍ سنين، متحدّيةً البرد والمجهول والوحدة والإثباط، لكي تندفع

نحوي، حامية العرف، مرحة الذنَب، مغضّنة العيون. ونتعانق بلا نهاية. لو يحدث ذلك، فسوف يكون الخلود جميلاً.

أقبّلك، أمّي الصّغيرة، أمّي الكبيرة، أمّي القابلة للكسر والمستعصية عليه، أمّي الّتي قد أسبّب لها، رغمًا عنّي، ألما كبيرًا.

ابنكِ الّذي يحبّك.

وهو يوقّع «جميس» لم يمنع وليم دمعةً غلبته. لأوّل مرّةٍ في حياته، هو الّذي لم يبكِ سوى في الأوبرا، لا يستطيع أن يهرب ممّا يعيش، أن يربأ عن الوضع. كلّ الأحزان تنهال عليه مجتمعة: حزن جيمس، حزن ماندين القادم، حزنه هو. بداخله تختلج آلام حيوانات ماندين الّتي لم يولِها انتباهه. حساسيّته الّتي لم تعمل طيلة أربعين عامًا صار الظرف المقيت يمزّقها ويفريها. استلقى على الفراش ووجهُه إلى السّقف وبكى حتّى الصّباح.

في المستشفى كانت ملامحه كابيةً في مثل ملامح ابنه.

- لا متبرّع حتّى الآن؟

- بعد.

ثمّ سكتا. لم يبقَ لهما ما يتبادلان. المهمّ أن يكونا معًا.

في مساء اليوم الثّاني، في حدود السّاعة الثّامنة، رنّ جرس الفندق الخاصّ وتعالت جلبةٌ عند مدخله. حنى وليم رأسه نحو قفص المدرج، فرأى الخدم منهمكين في طرد امرأةٍ ثائرةٍ يصحبها رجلٌ عجوز.

وفي لحظةٍ فَهِمَ: ماندين والأب زِيان قدما إلى باريس للوقوف إلى

جانب جيمس.

من الطّابق الأعلى، أمر بإدخالهما وإعداد غرفتين لهما.

لمحته ماندين نازلاً نحوهما.

- كيف حاله؟

اقترب وليم وأمسك يديها الحاميتين.

- سيّئةٌ، تمتم.

ألقت بنفسها عليه، ودونما خجل، نشجت بالبكاء. أراد الأب زِيان أن يخلّص وليم من ذلك العناق ولكن وليم منعه. هذه المرّة، لن يحرجه اتّصاله بماندين؛ تلقّى حرارة ذلك الجسد المتين، وأحسّ فيه حبًّا، حبًّا شديدًا، كهديّة. ولم يكن الشّبق هو سبب الاضطراب الّذي اعتراه بل كان اضطرابًا جسديًّا وروحيًّا. في الواقع، عانق ماندين وكأنّه زوجها، اللّهم إلاّ إذا كان عانقها لأجل جيمس...

بعد بضع شروحٍ، دعا وليم ماندين والأب زِيان إلى العشاء معه. رغم انهيارها، أبدت ماندين اهتمامًا بالبيت وديكوره وأوانيه وكلّ ما يخصّ حياة جيمس اليوميّة الّتي تعرفها جيّدًا من خلال رسائله.

أعلمها وليم بأنّه سيقودهما في صبيحة الغد إلى المستشفى.

- في أيّ ساعةٍ؟ سألت ماندين وفي عينيها نوعٌ من الرّعب.

- في السّاعة التّاسعة. التّاسعة نلتقي في الرّدهة.

- أيقظني في الثّامنة، أرجوك. لقد نسيتُ منبِّهي.

- حسنًا.

- تُقسم لي بذلك؟ تَطرق بابي في الثّامنة؟

ألحّت كأنّها مسألة حيويّة.

- تُقسم؟

بدا التّأثّر على وليم فطمأنَها:

- أقسمُ على ذلك: سأطرقُ بابكِ في السّاعة الثّامنة.

- وتنتظرُ أن أفتح لكَ قبل أن تنصرف.

- لماذا؟

- لتتأكّد أنّي سمعتك.

- اتّفقنا.

- لخّص! قالت آمرة.

استجاب وليم فكرّر في ابتسامٍ حليم:

- أطرقُ بابكِ في السّاعة الثّامنة حتّى تفتحي لي.

- حسنًا. إن لم أجِبْ، فلتدخل.

وافق في سعة صدرٍ كما نهدّئ طفلاً.

- وعدٌ ويمين.

شكرته والدّمع يغسل وجهها.

عندما تأهّب وليم للنّوم، تذكّر بساطة اللّحظة الممتعة الّتي شاركها ماندين والأب زِيان. في الواقع، هم يشكّلون عائلةً. كان لا بدّ من مرض جيمس كي يتفطّن لذلك. لماذا أراد التّمييز بين عالمين، عالمه وعالم ماندين؟ ممّ كان يخاف؟ هل دمّر ابنه حين فرض عليه تلك القطيعة؟

جفاه مرقده. فلم ينم إلاّ قليلًا. حالة جيمس تقتضي عمليّة زرع فوريّة. وإلاّ...

كان يتأهّب لقياد عائلته كاملةً إلى ابنه، وهو يحسّ بالإرهاق ويسلّي النّفس بأنّ الفجر بدأ يتورّد.

بعد أن استحمّ وارتدى ثيابه، لاحظ أنّ السّاعة تُشير إلى الثّامنة وعشر دقائق وتذكّر وعده. صعد إلى طابق الضّيوف وحكّ باب ماندين. لم يتحرّك شيء في البيت.

طرق من جديد. وأمام ثقل الصّمت، صاح عبر الباب:

– ماندين، ينبغي أن تنهضي!

دون أي ردّة فعل.

ضغط على الأكرة، فطاوعته.

– ماندين!

لم تحرّك ساكنًا.

عندئذٍ لمح العُلَب الفارغة على الأرضيّة، وكلمة موضوعة بجلاء:

«كليتاي لجيبي».

كانت ماندين قد انتحرت لتنقذ ابنها.

في السّاعات الّتي تلت ذلك، لم يملك وليم إلاّ أن يلاحظ العناية الفائقة الّتي رتّبت بها كلّ شيء وتوقّعت كلّ شيء. إنجاز كهذا من قبل مختلّةٍ عقليًّا! من الّذي ساعدها؟ أو لعلّها وجدت في انتفاضة طاقة –أو انتفاضة حبّ– وسيلةً لكي تعي ما كان يمرّ عادةً فوق رأسها؟

اختارت أن تتجرّع أدويةً تضعها على باب الموت، حتّى تصل على قيد الحياة إلى المستشفى لأجل عمليّة الزّرع. كلّ شيء تمّ بحسبان. التّجرّع، اكتشاف وليم للجسد، زمن النَّقل. بقي احتمال: أن يحاول المسعفون إنعاشها بأيّ ثمن.

هنا، تدخّل وليم مثلما خطّطت دون شكٍّ. أعلم الأطبّاء بالحالة: لقد قتلت نفسها لتعطي ابنها كليتيها. وإن لم تُحترم وصيّتها فسوف نكون أمام جثّتين: جثّة جيمس، وجثّتها إذا استفاقت واكتشفت أن رأيها لم يؤخذ به. أدّى الأطبّاء الكوميديا المعتادة -«نحن لا نقيم وزنًا لهذه المعلومات، علينا إنقاذها»- ولكنّهم تشاوروا في كنف السّريّة وبرمجوا العمليّة.

وما هي إلاّ بضع ساعاتٍ، حتّى تمّ زرع الكليتين في جسد ابنه.

بعد صدمةٍ طويلةٍ، بدأ جيمس يستعيد رشده. كان قد قبل الزّرع. ورغم أنّ القانون الطبيّ يقضي بالتّكتّم على مصدر الأعضاء، فإنّ وليم، بعد أن استشار الفريق الطبّيّ، باح لابنه بالحقيقة.

بدا جيمس مصدوعًا بالخبر. وإذ لاحظ وليم أنّ جيمس منسحقٌ بتضحية أمّه، حاول أن يتحدّث معه في الموضوع ليجنّبه الصّدمة، ولكن الابن كان يسودّ وجهه في كلّ مرّةٍ، ثمّ يغيّر موضوع النّقاش.

عادت الحياة إلى معتادها.

غادر جيمس المستشفى بعد خمسة أشهر، ناحلاً ولكن معافى.

اقترح عليه وليم النّزول إلى سافوا لزيارة جدّه ووضع الزّهور على قبر أمّه. نكس جيمس رأسه ووافق على الرّحلة دون أن يبدي

أيّ انفعالٍ، حتّى في المقبرة. أحسّ وليم أنّ ابنه يقي نفسه، فتركه ينغلق في الصّمت. فالزّمن كفيلٌ بفكّ كمامته، ولسوف يسند وليم ابنه ويتحدّثان معًا عن ماندين.

بعد عودتهما بأسبوع، لاحظ أنّ جيمس أزال صور أمّه الّتي كانت طيلة عشر سنين تشغل رفّه.

هزّ كتفيه، عاقدًا العزم على التّأنّي، ودسّ في الشّهر الموالي صورةً لماندين في ساعة الجيب الّتي ورثها عن عمّه. ثمّ صار، دون أن يعي ذلك تمامًا، يحملها يوميًّا.

***

كان برج غولدن ينتظر الفجر كما ينتظر المدانُ إعدامه.

قضّى موظّفوه اللّيل في التّنقيب عن حلٍّ للتّقليل من الكارثة، مستعينين بالقهوة والإنفيتامين والكوكايين. للأسف! كان كلّ مقترحٍ لا يستقيم بعد بضع دقائق من التّحليل، يثبتُ المحتوم: ما من وسيلةٍ لإخفاء تحيّل الفيغر، الصّندوق المزعوم الّذي أسّسه جيمس غولدن. لقد ضاع كلّ شيء.

الملتقى الّذي بدأ في الثّانية صباحًا لم يولّد سوى قرارٍ واضحٍ في الأذهان: «لينج بنفسه من استطاع النّجاة، كلٌّ لنفسه!» المذنبون يتستّرون على أهمّيتهم ويشحذون الحجج الّتي تجعلهم ضحايا أوامر، وضغوط، ومساومات، مسحوقين بتشابكٍ عنيد؛ والأبرياء لهم هاجسٌ واحد: إثبات براءتهم؛ ولم يَعُد أحد يحاول المحافظة على شركة غولدن.

بعضهم -وفي مقدّمتهم بول أرنو- حاولوا مغادرة المبنى، مقدّرين أنّ حضورهم عند شروق الشّمس قد يبدو مريبًا، ولكنّهم اصطدموا بأبوابٍ مغلّقة: كان وليم غولدن قد غيّر تركيبات الدّخول لكي يحافظ على فريقه في الدّاخل.

حاول بول أرنو أن يُرهب صديقَه فهدّده برفع قضيّةٍ في الاختطاف. أجاب وليم غولدن بأنّه بقي على قدوم الفرقة ثلاث ساعات، وأن جلسةً أخيرةً تسبقها بساعتين قد تقرّر السّياسة الشّاملة.

- لا تفزع، ستعود إلى بيتك، قال يطمئن بول أرنو ويأمره بإقناع الآخرين.

وحده في مكتبه، جالسًا أمام الهاتف الّذي شغّل مكبّر صوته، مال على الجهاز وكأنّ ابنه بشحمه ولحمه ماثلٌ أمامه.

كان جيمس، الّذي أيقظَه وليم في الطّرف الآخر من باريس، ينشجُ بلا انقطاع. وكانت دموعه وشهيقه وأنينه تُعيد إليه صوته سابقًا، صوت طفلٍ جرحٍ في ركبتيه إثر وقوعه من الدرّاجة. ورغم أنّ الثّلاثينيّ وضع خديعةً فرعونيّةً، ها إنّ طفلاً ذا نبراتٍ مُمْتَدّة يواجه برعونةٍ تهَمَ أبيه:

- أنا آسف يا بابا. كنتُ... كنتُ أجهلُ ما...

- أيّ فكرةٍ كانت في عمق دماغك؟

- كنتُ أريدُ أن أنجح. أنجح بسرعة.

- «بسرعةٍ» لا تُشترط «بسوءٍ» يا ولدي.

أنعش التّناقض جيمس، فتنفّض بالمزاج الجدليّ الّذي يطبعه:

- السّيّئ... الحسن... مسألةٌ نسبيّة! لا أحْسبك تزعم أنّ كلّ الأنشطة الّتي يقوم بها البنك «حسنة»، أليس كذلك؟ المصرفيّون يغلقون حسابات، يرمون النّاس في الشّارع، يربحون حين تقصم ظهور الحرفاء، يقبضون أجرتهم قبل أن يدفعوا لهم، يضعون أيديهم على الحسابات، يفرضون الأداء، يخصمون...

- لعلّك تحسب نفسك روبن هود؟

- لم لا؟

- أذكّرك بأنّ روبن هود كان يوزّع ما يناله على الفقراء. أمّا أنت فاحتفظت بالغنيمة، لم تتنازل إلاّ على ما ينبغي لشركائك. لقد كسبت مالاً بطريقةٍ غير شريفةٍ، يا جيمس.

- كنتُ أريدُ النّجاح.

- النّجاح بطريقةٍ غير شريفةٍ لا يُعدّ نجاحًا. ينبغي على المرء أن يكون فخورًا بأفعاله. يفخر بفشله مثلما يفخر بنجاحه. ليست النّتيجة هي الّتي تمثّل القيمة، بل احترام المبادئ.

- كنتُ مستعجلاً يا أبي.

- الأمانة تضيع الوقت؟

- أن أسرع... أغنم بسرعةٍ... مع صحّتي...

هذه الجملة جمّدت وليم، فتراجع إلى الوراء. ملك غيظه وردّ بجفاء:

- صحّتك كانت عندي مناسبةً دائمةً كي أشفق عليك. لا تحوّلها إلى فرصة لاحتقارك.

أحسّ جميس بنضوب تبريراته فبكى.

- لن أعيد الكَرّة أبدًا يا أبي. لن أعيد الكرّة.

احتفظ وليم غولدن على لسانه بالجواب الّذي خطر بباله: برنارد مادوف، لصّ وول ستريت، لن يُعيد الكرّة هو أيضًا، بعد المائة والخمسين سنة الّتي سيقضّيها في السّجن...

وكأنّ جيمس سمع والده يفكّر، فزع وجعل يتنفّس بضيق.

- بابا... كم سيحكم عليّ القضاء؟ اختلاس المال... هو أقلّ عقوبةً على أيّ حال... ليس ثمّة قتل نفس... كم يا أبي، كم؟

أحسّ وليم غولدن من جديد بالطّفل الصّغير تحت الكهل المقيت فأربكه ذلك. فرك راحتيه الدّبقتين على قماش سرواله مفكّرًا. كم من سوء فهم! عندما يكون المرء صغيرًا، يريد أن يكون أبوه بطلاً. وعندما يكبر، يريد أن يكون ابنه بطلاً. أي أنّنا لا نقبل في الواقع أقاربنا كما هم.

اتّخذ نبرةً مطمئنةً رغم أنّه ليس واثقًا:

- سنرى... التّحقيق لم يبدأ... الفرقة ستطلّ بعد ساعتين.

صمت.

- ماذا ستفعل؟

نطق جيمس بتينك العبارتين في حماس طفلٍ يحسب أنّ أباه

يملك كلّ السّلطات. فكّر وليم غولدن: «هو أيضًا يريد أن يكون أبوه بطلًا». تنحنح، بحث عن حكمةٍ نخبويّةٍ يقولها، لم يجد شيئًا فاختار أن يقول الحقيقة:

- ماذا كانت أمّك ستفعل؟

- ماذا؟

أعاد وليم غولدن بهدوء:

- ماذا كانت أمّك ستفعل؟

صمت. ثمّ واصل جيمس مذهولاً:

- أمّي؟ ...

- نعم.

- أمّي لم تكن تعرف حتّى قراءة كشف حساب. التّمييز بين خانة «الأصل» وخانة «الخصم» كان يتجاوز مداركها.

- أسأل نفسي: ماذا كانت أمّك ستفعل؟

- أنت! ... تسأل نفسك ما... ما عدتُ أفهمك.

- أنا أيضًا، ما عدتُ أفهمك. ولكن ماذا كانت أمّك ستفعل؟

خيّم الصّمت من جديدٍ. أضاف وليم غولدن بصدق:

- ذلك هو السّؤال الّذي أطرحه على نفسي.

وأقفل الخطّ ببطء.

حوّلت ضجّةٌ انتباهَه نحو النّوافذ. مروحيّةٌ تحلّق فوق نهر السين. اقشعرّ جلد وليم. هل هي قادمةٌ إلى هنا؟

واصلت المروحيّة طريقها، ثمّ حطّت بفضل أضواء قويّة على سطح مستشفى مجاور يحتوي على قسم إنعاش ذي أداء جيّد. كانوا بصدد إنقاذِ حياة.

تنهّد وليم غولدن وهو مغتاظٌ بسبب استسلامه لعدّة انفعالات بارانويا.

استند إلى زجاج النّافذة وتأمّل باريس.

لم تَبْدُ المدينة واقعيّةً، لكثرة ما محت الظلمة التّضاريس، وبترت المباني، وظلّلت الشّوارع. تحت قدميه تنبسط موكيت فظّة، مثقوبة بلمبات أقلّ نورًا من الحباحب، مسودة من باريس.

بينما كان في تأمّلاته، امتدّت يده إلى ساعة جيبه. شغّل آليّتها: كانت ماندين تبتسم له. كالعادة. دونما وهن، مشرقةً. طيّبةً.

رقّ قلبه لذلك فردّ على ابتسامتها بانشراح ولطفٍ ولهٍ، لم يَعْرِفْهُ من قبل. ومثلما كانت بدا أنّها تمنح كيانها كلّه في ابتسامتها، منحها ابتسامته بالسّخاء نفسه. كان عشيقَا السّادسة عشرة يتواصلان، وقد سكنهما عطفٌ مماثل.

تمتم فجأةً:

- بكلّ تأكيد!

أضاء وجهه: لقد عرف أخيرًا!

في الرّابعة صباحًا، جمع وليم غولدن مجلس الإدارة في قاعة الأبهة.

تعجّب الموظّفون ممّا كان يُبديه من هدوءٍ؛ كان صاحب البنك

الّذي يواجه الخطر يتنقّل بمرونةٍ، صافي الملامح، هادئ النّظرة. فبدؤوا يتساءلون عمّا إذا كان هذا الرّجل الماكر قد اهتدى إلى الحلّ المعجزة.

- اجلسوا، رجاءً.

أطاعوا في صمت. وكان بول أرنو، أكثرهم ارتيابًا من راحة بال غولدن، يروز كلّ تعبيرٍ على وجهه الوسيم النّاضج.

- سادتي، أمامكم ساعتان كي تعودوا إلى الوثائق وتعيدوا ترتيبها. ستغيّرون لي الحكاية الّتي نقرؤها فيها، وتكتبون لي حكايةً أخرى.

- ما هي، سيّدي الرّئيس؟ هتف المدير التّجاريّ بحماس.

- أدينوني! أنا فقط. قولوا إنّي مدبّر هذا الاحتيال والمستفيد منه.

أشار إلى المتواطئين الثّلاثة.

- ستانوفسكي، ديبون موريلي، بلوشار، أتحمّل مسؤوليّتكم: لم تدلّسوا شيئًا، لم تتلقّوا شيئًا.

- ماذا؟

- أنت؟

- نحن لا...

- امحوا آثاركم، سأتحمّل كلّ شيء! أبرّئ ابني وشركاءه أيضًا. سيواصل كلّ واحدٍ حياته ومسيرته الوظيفيّة. وسأظلّ المذنب الوحيد.

وسط سكون ذاهلٍ، أملى أوامره بصرامته المعهودة، وزّع المهام، فبيّن لكلّ واحد خططه، ورسم لوحةً شاملةً وحدّد في الآن نفسه الشّروط الأشدّ خصوصيّة. كان لعقلٍ مقنّن أن يحتاج إلى أسبوعٍ تحضيريّ ليقدّم خطّةً واضحةً تامّةً؛ أمّا هو فكان يُملي المهام بطرف شفتيه، في خفّةٍ، وسلاسةٍ ومرحٍ.

ولمّا انتهى، اكتفى بأن ضرب كفًّا بكفّ.

- هوب، إلى العمل! أقلّ من ساعتين.

انسحب المدراء خارج القاعة ممتثلين، إلاّ بول أرنو، إذ لم يتحرّك. كان يتطلّع إلى صديقه في فزعٍ. ومضت عينَا وليم إذ رآه.

- هل تفهم عزيزي بول؟

- كلاّ.

- ورغم ذلك فالأمر واضح...

مال على بول أرنو وهمس إليه، ونصف ابتسامة على شفتيه:

- إذا لم نستطع إنقاذ المال ولا الشّرف، فإنّ بوسعنا أن ننقذ الحبّ.

هزّ بول أرنو رأسه بالنّفي في عبوس.

- جيمس لا يستحقّ تضحيتك.

- لن يقضي مائة وخمسين عامًا في السّجن، صحّته ليست على ما يرام.

- لا يستحقّ.

- الاستحقاق في الحبّ يكمن في المحبّ لا في المحبوب.

- ولكن...

- هس!

قدّر بول أرنو أنّ صديقه، وهو مضطربٌ، محطّمٌ، وعلى شفا البكاء، لم تعد له القوّة على المضيّ في تبرير قراره. فنهض، وحيّاه، وغادر قاعة الاجتماع.

عندما هدأ وليم غولدن، غاص في أريكته، بين دعامتي الجلد، في منعة من الأنظار، كحاله في زمن الرخاء.

ثمّ ببطءٍ، وبحنانٍ، تناول السّاعة، شغّل آليّتها، تأمّل صورة ماندين وهمس لها، وكأنّها حيّة تُرزق:

- شكرًا.

انتقام الغُفران

عندما قرّرت الانتقال لكراء غرفةٍ قرب السّجن، حَسِبَتْها أخواتها مجنونةً.

- تغادرين باريس؟

- نعم.

- لأجله هو؟

من خلال الصّحافة والتّلفزيون، يعلم النّاس جميعًا أنّه نُقل إلى الألزاس: تمّ سجنه مدى الحياة بأنسيسهايم، في بيتٍ مركزيّ[1].

- لأجله هو؟ ألحّت الكبرى.

لم تُجب: كان الأمر شديد الوضوح.

- لا أفهمكِ! صاحت الثّانية.

- أنتِ تهذين! أردفت الثالثة.

- أنا أيضًا لا أفهم نفسي، ردّت إليز بلطف. ورغم ذلك سأفعل. القناعة تفرض نفسها. وهذا أمرٌ يثير اشمئزازي، ولكن لا خيار لي.

تبادلت الأخوات الثّلاث نظرات دهشةٍ: المسكينة إليز تتصرّف هكذا منذ نهاية المحاكمة.

---

(1) Maison centrale: في القانون الفرنسي، هو نوع من السجون المنيعة الّتي تؤوي مساجين من ذوي الأحكام المديدة، أو الشرسين، أو الّذين لا ترجى إعادة إدماجهم اجتماعيًّا.

قالت الكبرى بإصرار:

- كرّرت لكِ ذلك مائة مرّة لأجلِ مصلحتك: ينبغي أن تُراجعي شخصًا.

- أزعم أنّك تعنين بهذا «الشّخص» طبيب أمراضٍ نفسيّةٍ؟
ردّت إليز بنبرةٍ سذاجةٍ ساخرةٍ.

- طبيب أمراضٍ نفسيّةٍ، عالم نفسيّ، محلّل نفسيّ، كما تشائين، المهمّ متخصّصٌ في علم النّفس! رجلٌ يهتمّ بتوازنك. لأنّك لست على ما يرام يا عزيزتي.

نهضت إليز، فتحت درج صوانٍ منمّقٍ من صنف هنري الثّاني يشغل نصف الصّالون وأخرجت منه بطاقةً صغيرةً.

- الدكتور سيمونان يتولّى متابعتي منذ أربعة أشهر.

استولت الأخوات على بطاقة الزّيارة. تثبّتن من تخصّص الطّبيب المعالج بشراهةٍ: البروفيسور باتريك سيمونان، طبيب المستشفيات، دبلومٌ في التّحليل النّفسيّ، علم النّفس وعلوم الإدراك، يباشر في عيادةٍ خاصّةٍ أو في الخدمة العامّة بِسانْت آن. إنّها شخصيّةٌ مهمّةٌ. تنفّسن الصّعداء.

أردفت إليز بصوتٍ مرحٍ:

- أرأيتنّ أنّي أعمل بنصائحكنّ...

- ممتاز، أكدّت الأخوات.

بعد أن هدأن، جعلن ينظرن إلى قطعة الكرتون بعين حارقةٍ، كأنّهنّ يشكرن الطّبيب الّذي يعالج أختهنّ.

- ماذا يقولُ لكِ؟
- أشياء غير ذات بال في الوقت الحاضر. هو يصغي إليّ.
- بطبيعة الحال. ما رأيه في فكرة انتقالكِ؟
- هو موافقٌ عليها.
- هو... ؟
تكوّرت أفواههنّ. هزّت إليز رأسها.
- هذا يمثّل في نظره مرحلةً جوهريّةً في مسار شفائي.
وهي ترشف شايها، أوضحت، وجفونها منكسةٌ:
- لأنّي مريضة...
استرجعت الكبرى أنفاسها.
- سعيدةٌ أنّك تعين ذلك يا عزيزتي. ومبتهجةٌ أنّ عالما كبيرًا يعالجك. مهما أحببناك وحميناك، نظلّ قريباتك. أمّا إذا رأى أخصّائيّ أنّك...
دعّمت الأختان أقوال الكبرى.
- هو اشترط فقط، أضافت إليز، أن أواصل علاجي بواقع حصّتين في الشّهر بنهج فوجيرار. وهذا آزرني.
تنفّس الجميع بشكلٍ أفضل. فقد ساعد ذكر نهج فوجيرار الغنيّ والمشرّف في تهدئتهنّ.
- كيف ستعملين؟
كبحت بسمةً وانية. فسؤال أختها الثّانية يعني أنّهنّ وافقن على رحيلها؛ وصرن يتساءلن عن الأساليب العمليّة.

- أستطيع أن أترجم في أيّ مكان. النّصوص تصلني عبر الإنترنت وأعيدها عبر الإنترنت. منذ زمن، ما عدتُ أقابل الّذين يشغلّونني.

- وأسرتك؟ وأصدقاؤك؟

مالت الأخوات على إليز قلقات.

ودّت أن تقول كلمات لطيفةً مسكِّنةً تناسب الظّرف، وتؤكّد على سلامة مشاعرها، ولكن الكلمات لم تخرج من فمها. منذ خمس سنواتٍ، كانت تعوم في مسبحٍ من عدم الإحساس ولم تَعُد تشعرُ بالميل نحو أيٍّ كان. اكتفت بأنْ قالت:

- هو منفى مؤقّت. أحتفظ بهذه الشّقّة. سأعود إليها بعد...

- بعد ماذا؟

- شفائي.

رغم ارتباك الأخوات الثّلاث، فقد أيّدنها، وعقدن الثّقة في الدكتور سيمونان.

- سوف يثقل هذا ميزانيّتك.

طمأنت إليز أختها الكبرى:

- تلقّيت عقب المحاكمة مبلغًا. وكان مريحًا. بطبيعة الحال، يبدو المال تافهًا أمام...

ملكتها غصّةٌ، فلم تُنْهِ جملتَها. لم تُفلح قطّ في تسمية ما ضاع منها... فأن تسمّيه معناه أنّها تقبله. والأدهى أنّ تسميته تعني أنّها تسلّط العنف على نفسها مرّةً ثانية.

ضمّت الكبرى إليز بين ذراعيها.

- افعلي ما تشائين، إليزتي الحبيبة. نحن نُساندك.

تعاطفت معها الأخوات. وما عُدْنَ يجرؤن، وقد تأثّرن كثيرًا بالمأساة الّتي دمّرت حياة أختهنّ الصغرى، على تحليل أيّ مشكلٍ معها تحليلًا عميقًا، مخافةَ أن يُحيين جروحها.

عدن إلى الشّاي، وإلى نقاشٍ حول أمورٍ تافهةٍ، وسُررن باستعادة الخفّة والنّشاط ثمّ قبّلنها.

بعد انصراف أخواتها، أغلقت إليز الباب، وسحبت الرُّتُج الخمسة، وشغّلت إنذاراتها العديدة، ثمّ عادت إلى الصّالون وأخذت بطاقة الزّيارة. وبينما كانت تدسّها في الدرج، ارتسمت ابتسامةٌ على محيّاها: يا لها من فكرةٍ بارعةٍ أن اختلست هذه البطاقة من بيت صديقة! البروفيسور القدير سيمونان، الّذي لم تُقابله، ولن تلجأ إليه البتّة، أخرسَ أخواتها.

لم يبقَ لها الآن إلاّ أن تُنهي أمر حقائبها.

***

لا ينضح من الشّقّة الصّغيرة المفروشة ذوقٌ ولا جمال. كانت واقعةً في نهج شتاينبرغ بعمارةٍ سكنيّةٍ حديثةٍ -صندوق بنوافذ- وتتميّز بالحدّ الأدنى من الرّفاهيّة، إذ كان التقشّف باديًا على كلّ عنصرٍ: جدرانٌ بيضاء مشقّقة، خزائن حائطيّة من الخشب المقولب، كراسي وطاولةٌ من الصّنوبر، أرضيّةٌ مشمّعة، ثلاث لمبات خاليةٍ من أيّ وظيفةٍ زخرفيةٍ، فتحة مرحاضٍ رقيقة جدًّا، دشٌّ مغلّفٌ

بالبلاستيك، كنبةٌ واطئةٌ ذات وسائد رخوة، سريرٌ ذو ألواحٍ واهيةٍ، أواني مستشفى، ملاعق وشوكات لا تنغرز وسكاكين لم تعد تقطع. عندما تفقّدت إليز مسكنها، ندمت على توقيع عقد الكراء. عَمّ تعاقب نفسها إذ تستقرّ هنا؟ وقرية أنسيسهايم تحوي بيوتًا أنيقةً ذات واجهات عتيقةٍ، مزيّنةٍ، مزهرةٍ. والوكالة اقترحت عليها فضاءاتٍ نموذجيّةً بسعرٍ مماثلٍ؛ إلاّ أنّ غريزة مّا دفعتها إلى اختيار هذا المكان الأشدّ مدعاةً للرّثاء. أيّ غريزة؟ غريزة العذاب؟

غير أنّها اكتشفت طيلة الأيّام الأولى أنّ لشقّتها الصّغيرة ميزةً: وكانت على مستوى واحدٍ، وهي أنّها تفضي إلى حديقة، وبالأحرى إلى مَرْج محفوفٍ بحواجز. كان ثمّة قطٌّ أسود يتسكّع ثمّ يتوارى فور رؤيتها. يوم الأحد، غالبَت إليز نفسها كي تتخيّل، وهي تدفع بكرسيّها خارج الشّقّة، أنّها تسكن فيلا مغروسةً في قلب حديقةٍ عامّةٍ... ولكنّ الهواء النّديّ أعادها بسرعةٍ إلى الدّاخل، فتخلّت عن الهرب من رداءة مسكنها، وركّزت على شاشة الحاسوب، لتترجم إلى الفرنسيّة دليلاً سياحيًّا إيطاليًّا، كان آخر طلبيّاتها.

بعد أسبوعَين، أقبل السّبت فأنِست في نفسها القُدرة على التّحدّث إليه.

كانت قد كلّفت من يُعلمه.

كان قلبها يخفق بشدّةٍ.

مرّاتٌ عديدةٌ، طيلة أسبوعَين، كانت تتجوّل أمام بيت الإيقاف لتألف خوفها. كانت البناية تعرض واجهةً من القرن السّابع عشر، صفراء ووورديّة، صارمةً رغم أبّهتها وعظمتها، وتشهد برغم القضبان

في النّوافذ على استعمالها السّابق ديرًا لليسوعيّين. وسرعان ما امّحى ذلك البذخ ليلتقي بجدرانٍ ضخمةٍ ذات زوايا تعلوها أبراج مراقبة، تشرف على هكتار من الزّنزانات.

ما إن اجتازت العتبة حتّى اعترتها أحاسيس معروفة. الباب المصفّح، العلم الثّلاثي الألوان، عين الفيديو الفاحصة، الوثائق، فتحُ محفظتها، وضع الأشياء المعدنيّة، المرور إلى المكشاف. كان الحرّاس يرتدون صدريّات صوف زرقاء ضخمة كما في باريس؛ في أيديهم أو أحزمتهم تئزّ أجهزة «توكي ووكي» متماثلةً تثرثر وتقنع الدّخلاء بأنّهم يطؤون منطقةً مراقبةً بشكلٍ عالٍ؛ والعاملون، في استسلامٍ ومللٍ، يفتّشونهم بالفعاليّة المحترِمة نفسها. وبعد الشّكليّات الّتي تعوّدت عليها، بلغت السّاس[1] المؤدّي إلى حاجز التّخاطب البلّوريّ.

هنا أيضًا، بدا لها أنّها في ميدانٍ مألوف. لم يكن يزدحم به غير النّساء. بعضهنّ، متعوّداتٌ، يتحدّثن بصوتٍ عالٍ كأنّهن ينتظرن أطفالهنّ عند الخروج من المدرسة وهنّ يتنقّلن من مقعدٍ إلى مقعدٍ، وينادين الحرّاس؛ ومن جانب، جلست الخجولات مسمّرات، كأنّهن ينتظرن الباص؛ وفي الأركان مذعوراتٌ، أولئك اللاّتي يأتين السّجن لأوّل مرّة، يتكوّمن في المقاعد، منكسات الجبين، غائبات.

جلست إليز. تطلّعت إليها المتعوّدات؛ فما لبثت أن أحبطت فضولهنّ بالانغماس في هاتفها الجوّال. كانت تعرف أنّ السّؤال المنتظَر لن يكون «مَن جئتِ تزورين؟» بل «أيّ قرابة لكِ به؟ زوجته، أمّه، خطيبته، أخته، صديقة؟» سوف تتجنّب ذلك السّؤال ما دامت

(1) Sas: حجرة محكمة الغلق تفصل بين فضاءين.

لا تنتمي إلى أيٍّ من تلك الأصناف. أمّا أن تقول الحقيقة... فذلك مستحيل!

كانت قد استرشدت عن مساجين البيت المركزيّ: كثيرٌ من النّجوم! نجومٌ إعلاميّة! فرنسا كلّها تحدّثت عنهم... ولمّا كان المبنى لا يستقبل إلاّ أصحاب الأحكام الثّقيلة -ثلاثون سنةً أو مدى الحياة-، فإنّه يؤوي رؤوس الفظائع ذوي المحاكمات المدوّية: مرتكبو سلسلة جرائم قتل، إرهابيّون ذائعو الصّيت. أولئك الّذين نطقت منابر التّلفزيونات ومحطّات الرّاديو بأسمائهم، طوال أسابيع، وأشهر وحتّى سنوات -ما يلزم من الوقت كي تُنهي العدالة عملها- وغزت صورهم الصّحف والشّاشات -يعني صورهم في تلك الفترة، إذ يصعب اليوم على المرء، بعد فصولٍ من الحبس، أن يتعرّف إليهم.

أشهر هؤلاء جميعًا دون شكٍّ هو الّذي تقابله. المجد رهينٌ أحيانًا بالإفراط في الموهبة أو الإفراط في الوحشيّة، أمّا العاديّ فلا يستدعي الشّهرة. سام لويس كان قد ضاعف عدد ضحاياه بشكلٍ جعله حديث السّاعة حتّى صار كلّ واحدٍ يعرفه.

يعرفه؟

كلاّ.

لا أحد فهم موقفه، لا قَبْلَ المحاكمة، ولا أثناءها، ولا بعدها. حسن التّهذيب في الظّاهر، أنيسٌ، منسجمٌ، اعترف بجرائمه الخمس عشرة، دون أن يقدّم كلمة تفسيرٍ واحدةٍ، أو يعتريه أدنى ندم.

- إليز مورينيي؟

صاح الحارس باسمها عبر الحجرة.

احمرّت خجلًا كأنّ شخصًا عرّاها، ثمّ اتّجهت نحو الموظّف على عجلٍ بخطى قصيرةٍ، والرأس منكس. من حولها -وقد استشعرت ذلك- كانت النّسوة يحاولن التّكهّن بعلاقتها مع المحكوم عليه.

ليتهنّ ينسينها زمنًا طويلاً...

قادها الحارس إلى حاجز التّخاطب.

اختلجت إليز. لقد قبل إذن زيارتها!

ذكّرتها رائحة كرنب وماء جافيل تنزّ من الرّواق بالسّجن السّابق.

فتح الحارس الباب: كان سام ينتظرها خلف الحاجز البلّوريّ.

ابتسمت له. لا إراديًّا.

ابتسم لها. لا إراديًّا أيضًا.

اقتربت، جلست على كرسيّ، وأحسّت رغم الحاجز البلّوريّ أنّها تلتصق به.

ترامقَا.

قالت أخيرًا:

- كيف حالكَ؟

هزّ حاجبيه، ألقى نظرةً جانبيّةً، تنهّد، حكّ جبينه، وضع راحتيه أمامه.

- ماذا تصنعين هنا؟

- جئتُ لأراك.

- لماذا؟

- كما قبلُ.

- لماذا؟

- كما قبلُ.

- أفهم أقلّ من ذي قبل. هنا، في أقصى نقطةٍ من الألزاس؟

- وأين المشكل؟ باريس، الألزاس... جئتُ لأراكـ، وكفى.

- لماذا؟

- كنتَ تتساءل عن ذلك في باريس.

- هنا، أتساءل أكثر.

تردّدت إليز، ثمّ أكّدت في نبرةٍ مصطنعة:

- نُقلت هنا.

- في أنسنهـ... لا. إنسيـ... اللّعنة، لا أستطيع نطق هذا الاسم اللّعين! ... في أنسايـ...

في أنسيسهايم.

- هو ذا! نقلوكِ هنا؟

- غير بعيد.

- حسنًا.

صدّق كذبتها. وكأنّ إليز انصرفت، جعل يزيل جلدًا ميّتًا عن إبهامه الأيسر. حدّقت فيه للمرّة المائة: من يتخفّى خلف هذا الوجه العريض ذي التّقاطيع الّتي لا تكاد ترتسم، قناع من الطّين بلون موحّدٍ وتضاريس فجّة؟ أيّ مشاعر تسكن هذا الهيكل العظميّ ذا

الكتفين اللّحيمين، والصّدر الأكثر تقبّبًا من صدر خنزير برّيّ؟ غالبًا ما قابلت رجالاً مثله في الحياة العامّة، لا دِمام الخلقة ولا وِسام الطّلعة، ضِخام الجثّة، مِتان البُنية. بالخبرة، نتعلّم أنّ مثل هذا المظروف يحوي إمّا شخصًا لطيفًا أو غبيًّا أو عنيفًا. هنا، يؤوي المظروف منحرفًا، قاتل خمس عشرة امرأة ومغتصبهنّ. كان يثير الحيرة بشكلٍ ضارٍ.

- سَمِنْت، أليس كذلك؟ قالت.

- تضخّمت.

- لماذا؟

- الرّياضة.

- في العادة، نمارس الرّياضة لننَحلَ، لا لننتفخ.

- في السّجن، نزداد حجمًا لنعيش في أمان.

أيَّدته برأسها.

للحظةٍ، أبهجتها فكرة زيادة حجم عضلات سام مخافة أن يعنّفه مساجين.

- يبدو أنّ المساجين يعتدون على مجرمي الاغتصاب الجنسيّ.

- صحيح.

- وأنت؟

- ماذا؟

- هم... يدعونك وشأنك؟

- أنا، يعرفون أنّي أوّلاً قاتلٌ متسلسلٌ. وهذا يجلب الاحترام.

- طبعًا...، تمتمت وهي تغوص في كرسيّها.

«هذا يثير الخوف، خاصّةً»، قالت في نفسها.

بدا أنّه مسرورٌ بوقاحته، وخلال بضع ثوانٍ، ابتسم، سعيدًا، ثمّ لمح نظرة إليز الصّارمة، فعبس وأغمض جفونه.

مالت نحوه بانتباه.

- كيف حالك؟

- لا شيء يستحقّ الذّكر. حجرةٌ جديدةٌ، ولكنّها زنزانةٌ دومًا. حرّاسٌ جدد، ولكنّهم دومًا سجّانون. أطباقٌ جديدةٌ مطبوخةٌ، ولكنها دومًا خراء. ماذا نسيت؟

فرك قفاه.

- أه، تذكّرت. زوّارٌ جددٌ، ولكنّهم دومًا قمّل عانة.

ضحك ثمّ حدّق فيها، متمنيًا أن يكون صدمها. لكنّها تظاهرت بأنّها لم تفهم. فزمّ فمه.

- ماذا تفعلين هنا؟ عمّ تبحثين؟

نشدت في الجدران الصّفراء عمّا تردّ به، وارتجلت بضع كذبات ثمّ آثرت الصّدق.

- لا أدري يا سام، بصراحةٍ.

لم تكن تتلاعب به، أو تزيّف أيّ خطّةٍ، كانت تؤكّد روعها ببراءة طبع تامّة. وقد لمس ذلك. فضربت يده الغليظة الزّجاج.

- اللّعنة، هذا سلوكٌ فاسدٌ!

قامت إليز حاميةً، واتّهمته موجّهةً إصبعها نحوه:

- وهل تحسب نفسك الشّخص المناسب كي تحكم عمّا هو سويّ أو فاسدٌ، يا سام لويس؟

قطّبت جفونها في غضبٍ، ومنخراها يرفّان، وفكّاها بارزان.

باغتته، فصمت برهةً، ثمّ تحلحل على كرسيّه رخوًا منزوع العظام. وغمغم:

- ورغم ذلك... ليس أمرًا طبيعيًّا.

عادت للجلوس، متصلّبةً، مثل معلّمةٍ تستأنف الدّرس بعد تدخّلٍ في غير محلّه.

- غير طبيعيّ، نعم. فاسد، كلاًّ.

سعلت.

- الكلمات تحتفظ بمعنى. أذكّرك أنّك تخاطب مترجمةً.

- هل تستطيع المترجمة أن تشرح لي ماذا تفعل هنا؟

- لستُ في حاجةٍ إلى تبريرٍ. جئتُ لأراك.

كانت قد تغلّبت عليه في التّبادل بينهما وهو ما لم يقبله. نهض، ترك الكرسيّ يقع خلفه، وقال لها وعيناه محتقنتان بالغضب:

- كفى. لن أساهم في لعبتك.

- أيّ لعبةٍ؟

- لا يوجد ما يبرّرُ زيارةَ قاتلِ ابنتكِ!

ثمّ طرق الباب، طالبًا أن يعود فورًا إلى زنزانته.

عندما عادت إليز إلى شقّتها، فتحت الباب النّافذة[1]، وضعت مقعدًا بلا ظهرٍ على البلاط الرّماديّ الّذي يقوم لديها مقام الشّرفة، وواجهت المرج مولّيةً وجهها للشّمس. كان بعض القرويّين قد جزّوا العشب، فراجت في الهواء رائحة تبنٍ طازجٍ.

نوع من النّشوة كان يغلي في أعماقها. لقد هزّت الوحش! أجل، لقد قذفت به خارج شرنقة لامبالاته. هو! سام لويس! ذلك الّذي يجمّد الحضور عند محاكمته وهو يصف جرائمه بطريقةٍ فنّيةٍ، تشريحيّةٍ، باردةٍ، دون ذرّة إحساس! ذلك الّذي يذكر النّساء اللاّتي اغتصبهنّ وقتلهنّ كما تُذكَر الأشياء-الأولى، الثّانية...، الخامسة عشرة-، ثمّ أنكر عليهنّ إنسانيّة الاسم! هو! المعذِّب الّذي ليس له عطفٌ على ضحاياه ولا عائلاتهنّ. هو! الجلاّد الّذي لا يملك حتّى التّعاطف مع نفسه: «لو تخرجونني من السّجن فسوف أعيد الكرّة». هو! سام لويس، في هذا الأصيل، وهو يفقد فجأةً السّيطرة على أعصابه، وينقر الباب ليهرب منها، مثل طفلٍ في خطر.

أيّ خطرٍ؟ كان يجهل ذلك. وكانت هي تجهله أيضًا، إذ لم تكن دقيقةً من جهة هدفها. بَيْدَ أنّها أدركت، في هذا السّبت، خلال بضع ثوانٍ من الفزع، أنّها لامست ما كانت تبحث عنه بطريقةٍ مشوّشةٍ.

هل يقبل برؤيتها ثانيةً؟

هي لا تشكّ في ذلك. شيء مّا انطلق... قد يقبل بدافع الفضول ألاّ تمثّل هي مغامرتَه السّجنيّة الوحيدة؟ قد يقبل بدافع الغرور، لأنّه

---

(1) فرجة عالية تنحدر حتى الأرضيّة فتشكل بابًا ونافذة في الوقت ذاته.

قد يكره خَوَره. قد يقبل بدافع الذّكوريّة، مغتاظًا من هروبه أمام امرأةٍ. وقد يقبل بدافع الرّغبة في السّيطرة، حتّى يُكذّب ارتباكه، ويُثبت تفوّقه.

فتحت ملفًّا أصفر على ركبتيها. كان يحوي مقالاتٍ صِحَفيّة، وهوامش بخطّ اليد على مدار المداولات. «سفّاح مونبرناس»، كذلك ظهر القاتل قبل أن يكتسب اسمًا ووجهًا. لم يُعرف عنه في البداية سوى جرائمه، الفظيعة، الدّامية، الفاحشة، الّتي تتوالى حسب طريقة إنجاز موحّدةٍ. كلّ قوّات البوليس سعت في إثر هذا الخاتل المتخفّي وراء توقيع جنائزيّ. اليوم صار «سفّاح مونبرناس» يمتلك هويّةً، ويقضّي حكمًا أبديًّا، بعد أن خضع لمحاكمة مجلجلةٍ، ولكنّه يظلّ لغزًا، مثلما كان في بدايته مجهولاً، لا يُعرف إلاّ بجرائمه.

سام لويس يتيمٌ منذ ولادته، عُهِد به إلى بعض المؤسّسات، ثمّ إلى عائلة استقبال في بيرّي، آل فرتالا، وكان يبغض بطبعه المجتمع، كان مستقلاًّ، وبالأحرى متمرّدًا ضدّ السّلطة رغم مظهره المهذّب. كانت مسيرته المدرسيّة رديئةً، وفي مراهقته أبدى جنوحًا للعنف أثار الانشغال. ففي مرّاتٍ كثيرةٍ، اعتدى بالعنف على أخواته بالتّبنّي، إذ حاول أن يخنق إحداهنّ بيديه، والثّانية بقلادتها، والثّالثة بلفاع، رغم أنّ علاقاته بهنّ جيّدة. سكتت العائلة عن الخطإ الأوّل، ولكنّها اضطرّت إلى أن تبلغ عن تكراره، ثمّ طردته. ولما صار شريدًا، وُضع في إصلاحيّة، فصار يعاقر الخمر، ويتعاطى المخدّرات، ولما عنّف طالبةً في الثّانوية عند نزولها من الباص، أُوقِفَ وحوكم وسُجن وهو لا يزال شابًّا. وعندما غادر السّجن بعد سنتين، انتقل إلى باريس،

حيث باع جسده للرّجال وأقام في البيوت المهجورة أو عند عدد من الحماة الكهول، لا أحد منهم اشتكاه إلى محكمة الجنايات، ما عدا مللهم من إدمانه الكحولَ والمخدّرات وسلبيّته اللاّمبالية: كان يستسلم بآليّةٍ للملامساتِ الجنسيّةِ، شارد الذّهن، لا يتذوّق ما يجري أو يهتمّ به...

جريمةٌ بشعةٌ لفتت الاهتمام. امرأةٌ شابّةٌ تُدعى كريستين بورديلا اغتصبت في مأوى سيّارتها ثمّ قُتلت بسكّين. بعد أسبوعَين، امرأةٌ أخرى، أوليفيا ريتيف، تعرّضت لمصيرٍ مماثلٍ في قبو عمارتها. غمر «سفّاح مونبرناس» وسائل الإعلام، وغذّت تهويمات الصِّحفيّين، وبات مطلوبًا لدى الشّرطة، مهيبًا من ساكنات الدّائرتين الرّابعة عشرة والسّادسة. للأسف، في غياب فيديو يقدّم صورًا، أو شاهدٍ يعطي أوصافًا، لم تتوصّل الشّرطة إلى وضع بورتريه عن القاتل أو سماته. أمّا آثار الـ آ دي إن[1]، فقد أكدّت أنها لشخص واحدٍ، مجهول...

عزيزتي لور...، تنهّدت إليز.

لور مورينيي، ابنتها، كانت الضّحيّة الثّالثة. كانت في الثّالثة والعشرين، تنهي دراستها الإنكليزيّة، وتشرق فرحًا. كانت تركن سيّارتها الفيات، في العاشرة ليلاً، عند المستوى السّفليّ من عمارتها، حين برز الرّجل، فاغتصبها تحت التّهديد، ثمّ طعنها في موضع حاويات القمامة.

---

(1) ADN: هو الحمض النووي الّذي يحمل المعلومات الوراثيّة الموجودة في الخليّة من جيل إلى آخر، وبالتالي فإنّه من الممكن تحديد أجداد الشخص، عن طريق تحليل الـ ADN الخاصّ به، من خلال أخذ عيّنة من الدم، أو الشعر، أو الأظافر، أو اللعاب وخلايا الفم.

لطالما كانت إليز تسترجع ذلك اليوم، دون التّحكّم في أضغاثها؛ تذكر هاتفها الّذي تحمله من المطبخ إلى بيت الاستحمام، ومن الصّالون إلى الغرفة، لأنّها كانت تنتظر مكالمتها - فقد وعدتها لور بالعنوان الصّحيح لكتابٍ تحدّثتا عنه خلال تناول وجبة الطّعام. وتذكر رسائلها في حدود منتصف اللّيل: «عزيزتي، نسيتِ أمّك الجاهلة. دلّيني على مرجع تلك المقالة، سوف أعتمدها في ترجمتي.» والمنبّه معها، تتصفّح هاتفها كحركة افتتاح. تتذكّر مكالمتها في السّاعة السّادسة صباحًا، مكالمتها الثّانية في التّاسعة والنّصف، المكالمات الّتي تلتها. في البداية، كانت تسخر في رسائلها من قلقها بطرافةٍ، ولكن كلّما تقدّم بها الوقت صارت تتركه يَنفذ. في حدود منتصف النّهار، استنتجت أنّ لور أصابها فيروس، أو أنّها فقدت جوّالها. قرّرت أن تذهب إليها في شقّتها للتّأكّد، ولكنّ هاتفها رنّ حال دخولها المصعد. «آه، أخيرًا!» الرّقم مجهول. صوتٌ يؤكّد أنّه من البوليس ينقل إليها الخبر المشؤوم.

ظلّت جامدةً دون أن تفهم. فأعاد عليها الضّابط أنّ ابنتها تعرّضت لحادثٍ خطير، وأنّها... توفّيت.

لو كان المرء يموت من شدّة الحزن، لماتت في الحال. الموت حزنًا خيرٌ دون شكّ من العيش مع الحزن.

ثمّ تدافعت الأحداث، بشكلٍ لا يُحتمل: الوصول إلى الشّقّة بشارع إدغار كيني، مارّة السّوق، الصِّحَفيّون، رجال الأمن، الطبيب الشّرعيّ، آثار الدّم في موضع حاويات القمامة، التعرّف إلى الجثّة في بيت حفظ الموتى. لور، طفلتها، ابنتها الوحيدة، خرساء، مزرورقة،

ممدّدةٌ على سريرٍ من الفولاذ في قاعةٍ تنبعث منها رائحة الفُرمول، مغطّاة بجروحٍ مسودةٍ. لم تصدّق إليز، فلمست ابنتها لتتأكّد أنّها لم تعد تتنفّس. رجّت كتفها. يا للبرودة! يا للتيبّس! منذ ذلك الوقت لم تعد تستطيع أن تدفئ يدها. بعدها: أعباءٌ إضافيّة، لا فائدة منها: مقالات الصّحف مع اسم ابنتها، والأشنع، مع صورتها. كانت تبتسم في تلك الصّور القديمة، فتبدو تلك البسمة غير ملائمة، فظيعة. وفي كلّ مرّةٍ، تحسّ إليز أنّهم يعيدون قتل لور. هل ثمّة من يعي ذلك باستثنائها هي؟

واصل السّفّاح فتكه. ارتكب جرائم جديدةً، فتمّ ربط سماته المنحرفة بحالاتٍ سابقةٍ. أمّا إليز فقامت بتحقيقها الخاصّ.

كان سام لويس قد قتل خمس عشرة ضحيّةً عندما ألقي عليه القبض. وكانت إليز منهكةً، تنظر إليهنّ جميعًا كأخوات لور. عندما علمت من الصّحافة تفاصيل حياتهنّ، صارت أمًّا للفتيات القتيلات الخمس عشرة. وهذا يجنّبها أن تستبدّ بها لور.

- مينو... مينو- مينو - مينو - مينو![1]

لكي تنتشل نفسها من اجترار أفكارها، وضعت إليز الملفّ، وجثت لتنادي القطّ الأسود الّذي يقف على بعد عشرة أمتار، ملتصقًا بالحاجز. كان يرمقها بعينيه الصّفراوين مرتابًا.

- مينو!

---

(1) Minet في الأصل، وتعني القط الصغير، وقد اخترنا مينو minou الّتي يطلقها الفرنسيون أيضا على القط الأليف، لتجنّب اللبس مع عبارة ميني mini.

لم يتحرّك القطّ، ورأسه المسطّح مسكون بأفكارٍ معاديةٍ.

ألحّت:

- تعال. لا تخف.

أدار وجهه. أَخائفٌ، هو؟ كم ينشر البشر نظريّات مهينة.

تطلّعت إليه إليز بانتباه: كشحان غائران، وشعَر منفوش. قطٌّ مهمَل.

- هل أنتَ جائع؟

دلفت إلى الشّقّة، تناولت صحن مُحلّ وصنعت خليطًا من الفضلات - أرز، لحم بارد، جانْبون.

خارج الشّقّة، لاحظت أنّ القطّ لم يتحرّك، كأنّه فهم أنّ عليه انتظار شيء مّا. كان يقيس الموقف، والكرش منتفخةٌ، والأذنان مسدلتان.

وضعت إليز الصّحن على البلاطة.

- خذ. هذا لك.

ردّ عنها نظَره مُستاءً.

سَرّ ذلك إليز.

- لا تفهم الفرنسيّة؟ لا تتكلّم إلاّ الألزاسيّة؟

ظلّ متمنّعًا، يلحس رجله اليمنى، ويلمّحُ بجلاءٍ إلى أنّه، وإن تحمّل صياحها، يفضّل أن تصمت. تفحّص مخالبه. كم له منها؟ عشرة؟ عشرون؟ ثلاثون؟ ألف! كان يتأمّل نفسه بإعجابٍ، مفتونًا فجأةً بذاته. صار كلّه مخالب.

رفعت إليز الطّبق وتقدّمت بضع خطواتٍ على العشب، فما لبث أن كفّ عن التّبختر على سلاميّاته الورديّة. إنّه إنذار!

وضعت الطّعام في وسط المرج.

- تفضّل، حضرتك، كما ترغب...

ولمّا عادت إلى مقعدها، تظاهرت بالتّنقيب في ملفّها.

راقبها القطّ طويلاً. تحرّك حينما اقتنع بأنّها لم تعد تهتمّ به. لم تتحرّك إليز. شيئًا فشيئًا تشجّع. وبخطى خافتةٍ، دنا من الصّحن مرتابًا، ولم يوقفه سوى اقتحام فراشةٍ أو نباح كلبٍ عن بعد. تابعت إليز تقدّمه بطرف عينها، فسرّها ذلك.

وقع جزء من أوراقها على الأرض.

- أف!

ارتعب القطّ من هذا الصّوت، فتقهقر.

- لا! صاحت إليز. لا تذهب. ارجع.

كان قد توارى خلف السّياج.

- مينو!

ظلّت الحديقة قفرًا.

- يا له من غبيّ! أضافت وكأنّها تخاطب شخصًا.

غيمة حجبت الشّمس. استبدّ بها البرد. وهي ترفع رأسها، لاحظت أنّ جيشًا من السّحب المتراكمة يجتاح السّماء. أغلقت الباب النّافذة بعنايةٍ وهي ترتعد.

أصابها الملل، وتشتّت ذهنها، فلم تعد ترغب في الاشتغال لا على

ترجمتها، ولا على ملفّها «سام لويس». شغّلت الجهاز. برامج تلفزيون الواقع تتدفّق على الشّاشة. «كيف يمكن أن نبلغ هذا المستوى من الحمق؟»، تساءلت وهي تستمع لملاحظات المشاركين. فتَنتها تفاهة الأبطال الّتي ليس لقاعها حدّ، فتركت نفسها تنجذب.

خلال فاصلٍ إشهاريٍّ، التفتت إلى الحديقة. كان القطّ قد التحق بالصّحن، يلتهم الطّعام بشراهةٍ، في حركاتٍ متقطّعةٍ، وهو متكوّرٌ على نفسه، وعيناه مسدلتان.

- هذا أيضًا ليس من النّباهة في شيء، إذا أعطيناه لم يُردْ، وإذا لم نُرد نحن يسرق. إنّه غبيّ!

في ذلك المساء، كرهت العالم أجمع.

في الحقيقة، كرهت العالم أجمع منذ ذلك الخميس المشؤوم حينما أعلمها الشّرطي بموت لور. هي، الّتي تعتبر طيلة خمسة وأربعين عامًا مثالاً للمرأة «الطيّبة»، جعلها البغض تظلّ صَامِدَةً ولولا الكره لتعفّنت في القبر منذ مدّة.

***

طوال ثلاثة أسابيع، رفض سام لويس الزّيارات. لم تيأس إليز، لعلمها أنّ إصرارها وحده يتجاوز الصدّ. وعلى أيّ حال، يجب أن تعيد في أسرع وقتٍ ترجمة الدّليل السّياحيّ الإيطاليّ الّتي تكرّس لها أيّامها، وطاقتها، ولا تنقطع إلاّ لمعاينة القطّ الأسود في المرْج، وكان يأتي كلّ يومٍ مسرعًا ليُفرغ صحنه، وإن كان يهرب كلّما اقتربت منه.

في السّبت الرّابع، سمح سام لويس بالزّيارة.

عندما دخلت إلى حاجز التّخاطب البلّوري، شعرت بكتلةٍ من العداء خلف الزّجاج. كان الرّجل الممتلئ صحّةً يقيسها بحدّة.

تريّثت في خلع معطفها، وتعليق محفظتها على ظهر الكرسيّ واستراحت في جلستها.

لم ينبس بكلمة.

بعد أن جلست، قامت رغمًا عنها بحركةٍ ظريفةٍ لإعادة شعرها إلى مكانه، حركة وديعة، صافية، بالغة الأنوثة أذهلت السّجين.

- لستَ متعوّدًا، أليس كذلك؟

- على ماذا؟

- أن يقع الاهتمام بك.

حوّل نظره.

سَوَّتْ كمّها الأيمن الّذي جعّده المعطف.

- هل تمنحني الحقّ في أن أهتمّ بك يا سام؟

أعاد اللّفظة في اشمئزاز، وهو يطحنها بين أسنانه:

- الحقّ...

- لكَ حقوق.

- هنا؟

- لكَ حقوقٌ، أكثر من الواجبات. مثلاً، ليس من واجبك أن تقبل اهتمامي بك؛ ولكن لكَ الحقّ في أن ترفضه.

- ولماذا أرفضه؟

- سؤالٌ وجيهٌ. أجل، لماذا؟

أفحمه جوابها، وأوقعه في الفخ، فَخَفَّض جبينه ليمزج أفكاره، ويعيد توجيهها. هتف:

- في الأعوام الأخيرة، اهتم بي عدّة أشخاص: قاضي التّحقيق، علماء النّفس، أطبّاء التّحليل النّفسيّ، محاميّ... ماذا أفادني ذلك؟

أشار إلى الجدران حوله:

- تأبيدةٌ!

بعد تنهّدٍ، غرز رأسه في كتفيه العريضتين.

قالت إليز تصوّب له:

- أنتَ تخلط كلّ شيء. اهتمامهم متأتٍّ من مهنتهم. هم يقبضون المال لكي يحلّلوك يا سام.

كلّما نطقت «سام» رفّت رموشه. لذلك أمعنت:

- لستُ أنا يا سام، لستُ أنا.

- لستِ أنتِ؟ قال.

- لستُ أنا!

- بجدّ؟ ألحّ ساخرًا.

- لستُ أنا.

- ألم تقبضي المال بعد صدور الحكم عليّ؟

- تعويض.

- إذن!

- إذن، لو كان اهتمامي ماديًّا، كاهتمام القاضي والخبراء والمحامي، لانقطع بعد قبض المال، أليس كذلك؟ كنتُ اختفيت. وما

كنتَ لتراني بعدها البتّة. هل تتلقّى زيارة أولياء ضحايا آخرين؟ هل تحسّ أنّهم يأتون لسداد دينٍ بمخالطتك؟

اختلجت شفتا سام. حنى ظهره مهزومًا.

- لا أحد.

- آه!

رفع عينيه.

- لا أحد، وهذا أمرٌ طبيعيّ! غير الطبيعيّ هو أنتِ.

- أنتَ تؤكّد ما قُلت، ردّت بحسمٍ. لستَ متعوّدًا على أن يهتمّ النّاس بك.

اقشعرّ جلد سام الخشن المحبحب. كانت فرضيّة إليز تفسح طريقها إليه.

تريّثت دقيقةً وواصلت وكأنّها أعفت نفسها من الصّمت:

- أمّك بالتّبنّي لم تكن تهتمّ بك؟

هزّ كَتِفَيه وقد استراح لأن يطأ ميدانًا معروفًا.

- الأمّ فرتالا؟ كانت تستقبل أطفالاً لتقبض مال الدّولة. بل إنّها لم تكن تخفي ذلك. ذات مساءٍ، باحت لجارةٍ وكانت تحسب نفسها على انفراد معها: «هذا أو أنظّف المراحيض». كدتُ أفرح حين علمت: كنّا نقزّزها أقلّ ممّا تقزّزها المراحيض، يا للخبر السّعيد! أضافت: «في الواقع، اهتديت إلى حيلةٍ للحصول على مالٍ أكثر: أقبل من لا يرغب فيهم أحد». هنا، لم أمزح. لماذا لا يرغب فيّ أحد؟ في الأيّام الّتي تلت،

نظرت إلى إخوتي وأخواتي بالتّبنّي، وحاولتُ أن أعرف لماذا لا يُرغب فيهم، وفكّرت: سوداء. وهذا أصفر. والآخر قزم. وواحدةٌ تنقصها إصبع بكلّ يد. ولكن أنا؟

- نعم، أنتَ؟ ما الّذي ينقصك؟

- لم أفهمه قَطّ.

لاذا بالصّمت.

- والأب فرتالا؟

- كان يعمل في المصنع. يعود في اللّيل، بعد الحانة، سكران. في رأيي، كان يدبّر أمره ليقضي أقلّ وقتٍ ممكنٍ مع زوجته.

- هل يهتمّ بك؟

- بعد ثلاث سنوات، كان يخلط اسمي باسم الزّنجيّة. ليس شرّيرًا، لا. هو فقط غير واضحٍ، أمرٌ ملتبس، ثمالة قنّينة... ترسّبات النّبيذ كانت تتموّج في مخّه. لذلك مات في الأربعين، لا شكّ أنّ ذلك أراحه.

- هل عرفت لماذا «لم يكن مرغوبًا فيك»؟

- لا.

- عندما لم تعرف، هل نالكَ من ذلك فخر؟

تجمّد. فواصلت عوضًا عنه:

- أقنعتَ نفسكَ بأنّ الأمّ فرتالا تفكّر تفكيرًا صائبًا.

- كنتُ نحيلاً. بدأت أمارس الرّياضة، الكمال الجسمانيّ، مباشرةً!

- غير كافٍ... في الحقيقة، فكّرتَ أنّ عاهتك تستعصي عليك. احترزتَ من نفسك.

تمخّط كي يغطّي على صوتها. لم يُربكها ذلك:

- أقنعتَ نفسك بأنّك وحشٌ.

صاح بعدوانيّةٍ مباغتة:

- البقيّة أثبتته! هل تعرفين، أنتِ، أناسًا كثرًا، رجالًا قتلوا خمس عشرة فتاةً؟

- أعرف منهم واحدًا. كيف استطاعت الأمّ فرتالا، الّتي قابلتها خلال المحاكمة وبَدَتْ لي في مثل حساسيّة دبّابةٍ هجوميّةٍ، أن تتفطّن؟ أنتَ لم تفعل شيئًا في تلك الفترة.

فزّ قائمًا، ضرب الباب بقوّة وصاح باتّجاه الأعوان في الرّواق:

- انتهت!

رفعت النّبرة بدورها:

- ولم لا تكون الأمّ فرتالا قد ادّعت ذلك على الآخرين، على الآخرين فقط، وليس عليك أنت؟

واصل الضرب بأكثر قوّةٍ وما عاد يوليها غير ظهره.

استمرّت:

- ولِـمَ لا تكون غير معنيٍّ بذلك؟

صار يصرخ، أمام المصراع الفولاذيّ:

- أتفتحون، نعم أم اللّعنة؟

تأخّر الحارس.

أردفت إليز بهدوءٍ وبصوتٍ ناعمٍ:

- أنتَ لا تحبّ نفسك، سام، والسّبب ألاّ أحد أحبّك.

استدار.

- طبعًا لا أحد أحبّني! هذا أمرٌ مشروع: أنا خطير. عندما أنهض في بعض الأصباح، كنتُ أعلم أنّي سأقتل في المساء.

- هذا، فيما بعد... بعد ذلك بكثير... ليس عندما كنتَ صغيرًا. ليس عندما كنتَ مراهقًا.

- كانت قد فهمت مستقبلي، الأمّ فرتالا. إنّها مسألةٌ كلاسيكيّة بالنّسبة إلى ساحرة... غدوتُ ذلك الّذي لا يرغب فيه أحد. وها أنا الآن أُحْبَس هنا، هذا أحسن، إنّه يجعلني غير مؤذٍ. السّجن ينقذني من نفسي.

- خطأ. السّجن ينقذك من الآخر الّذي رأيته فيك عقب كلام غبيٍّ فَاهَت به الأمّ فرتالا. لم تكن تقتل نفسك، بل الآخر، ذلك الّذي يؤكّد كلام الأمّ فرتالا. لستَ أنت، بل الوحش الّذي ابتدعته أنتَ وإيّاها.

حلّ المفتاحُ القفل في جلبةٍ، وأطلّ الحارس.

استراح سام، فأمعن في البلادة. مال نحو الحاجز الزّجاجيّ الّذي يفصله عن إليز، والوجه أملس، خالٍ من التّعبير، وشدّ عضلاته المدهشة.

- من كانت ابنتكِ؟

ارتجفت إليز.

- لور.

فكّر وتمتم «لور». ابتسم.

- غريبٌ... لم أنطق قطّ اسمها.

- لور مورينيي، زعقت إليز دون أن تدري لماذا.

شَخَصَ فيها بعنادٍ.

- سألتكِ من هي.

- أجبتكَ.

- أيّ رقم؟

رفعت هَبَّةُ حقدٍ صدرَ إليز.

- الثّالثة.

- شارع إدغار كيني؟

أومأت إليه مقطوعة الأنفاس.

فكّر سام، تردّد، ثمّ قال في لا مبالاةٍ وهو يفرك أذنه:

- لا أكاد أتذكّرها.

استدار وتوارى.

لمّا عادت إليز إلى مسكنها، أغلقت بيت الاستحمام، تعرّت، حشت ملابسها، بما فيها السّروال الدّاخلي ورافعة النّهدين، في ماكنة الغسيل، حدّدت برنامج التّنظيف وتسلّلت وراء ستار الدشّ الضّيّق.

كان الماء ينساب عليها، ساخنًا، لطيفًا، مُنقذًا لا ينفد. ظلّت تحته عشر دقائق.

بعد أن جفّت، عادت إلى الدشّ. ثمّ خرجت. ثمّ عادت.

طوال ساعة اغتسلت أربع مرّات. كانت بين عمليّات اغتسالها، تنظر إلى الغسيل يدور في الطبلة، وهي هادئةٌ، مصغيةٌ، خالية الذّهن، لا تشغلها سوى ضرورة التّطهّر.

أخيرًا، بعد دشّها الخامس، عندما بدأت عمليّة عصر الملابس، طلت جسدَها بمرهم التّجميل، مرهمٌ عاديّ، بسيط، اشترته من السّوق، رغم أنّ رائحة اللّوز الّتي تفوح منه بدت لها قمّة البذخ. استعادت بشرتها بريقَ شبابها الأسيلَ بفضل منافع العجين الزّيتي اللّؤلئي. لم تدلّل إليز نفسها منذ سنين.

رغم عاداتها المحتشمة، غادرت بيت الاستحمام دون أن تغطّي جسدها وجالت عاريةً في الشّقّة. لم تكن الشّقّة مواجهةً لأحد، لا جار يحرجها، ولا هي تضايق أحدًا.

تمدّدت على الكنبة. استعادت ذهنها شيئًا فشيئًا. أدركت أنّها نجت من خطرٍ حقيقيّ.

أحسّت بألمٍ عند سماع كلمات القاتل الأخيرة، والحال أنّها ترفض أن تتألّم. منذ موت لور، نحلت، وذبل لونها. صارت تلبس ملابس داكنةً، وتبدو حزينةً، وحيدةً منعزلةً، خاليةً من الرّغائب، ولكنّها لم تتألّم قطّ. بل لم تبكِ.

منذ ذلك الخميس الشّنيع، وبما أنّ الحزن يحوم حولها، سدّت شقوق أبوابِ روحها. وبردّة فعلٍ شافية، جعلت القضيّة عامّةً: كريستين، أليفيا، سيندي، أميلي، كارتين، إيزابيل، مورغان، أنّا،

إمانويل، ليزا، فاتو، ديان، سارّة، بينيلوب التحقن بلور في ملفٍّ سام لويس. صارت تعرف حياتهنّ القصيرة كما تعرف حياة ابنتها. خلال المحاكمة، ربطت علاقات مع الأولياء، من آباء وأمّهات، وإخوة وأخوات، وأعمام وعمّات، وأخوال وخالات، وأجداد وجدّات، وأبناء أعمام وعمّات وأخوال وخالات، وبنات أعمام وعمّات وأخوال وخالات. بعد أن صارت المؤتمنة على أسرار الجميع، وصديقتهم، وهي الّتي تنحصر عائلتها في ثلاث أخوات، فأبواها توفّيا، وعشيقها العابر حملته الرّيح، وسّعت وأهّلت حلقة أصدقائها الحميمين. أن تتحمّل وزر الجميع خفّف وزرها. ثمّ قرّرت من بعد أن تفهم ما جرى خمس عشرة مرّةً على التّوالي ووضعت طاقتها في عمليّة التّحقيق. لم تُشبع المداولات نهمها -سام لويس كان هادئ الأعصاب، كتومًا، فلم يُبْدِ ندمًا ولا ألمًا ولا شفقةً-، وربطت الاتّصال به في السّجن الباريسي. في شقّة الألزاس هذه، تواصل عملها وهي تهرب من الماضي بشكلٍ أفضل: لا شيء في الجوار يذكّرها بلور، لا أثاث، ولا تحفة، ولا عادة. لم يكن لابنتها مكانٌ هنا، ما عدا الملفّ الفرعيّ في حافظة الملفّات الصّفراء الضّخمة. وهو واحد من بين ملفّات أخرى.

بعد أن اكتسبت هذا التّوازن بصعوبة، ها إنّ القاتل أربكها هذا الأصيل. فعندما زعم أنّه لا يتذكّر لور، صدم إليز، وأغاظها، واستثارها، وعنّفها. ابنتها تقوم مقامَ ما لا ينسى أبدًا! إذا أضمر هذا الوحش ذكرها فسوف تذكّره بها!

كان الفخّ ينفتح تحت قدميها: عادت الصّور، صور الأوقات السّعيدة، بسمة لور، تغنّجها، حريّتها، طيبتها. وانبعثت شُعَل العذاب،

سوف تقاسي.

- لقد كذب!

هذا السام اللّعين اعتزم تضييق الخناق عليها ليصليها الجحيمَ. استشعرت الحيلة، فصمدت بتعليق وعيها، والكفّ عن التّفكير تمامًا.

- خدعة!

صارت الآن تحزر: هو يتذكّر لور، حتّى وإن لم ينطق اسمها بتاتًا. وهدفه يتمثّل في جرحها.

- كلاّ!

ندت عنها صيحة محاربةٍ! لا سبيل إلى ذلك! لن يتلاعب بها. بتخطيطٍ ونفاذ بصيرةٍ صدّت صور لور الّتي انبثقت، وغرزتها في أعماق ذاتها، وكذلك العذاب الّذي رافقها، وأغلقت باب الفخّ.

انتفضت.

كان ثمّة من يراقبها.

تسارع خفقان قلبها.

أكيد! هناك عينٌ ترقبها. كانت تستشعر حضورًا.

فزّت قائمةً، قفزت على البساط، وفي حركةٍ لا إراديّة وضعت يدًا على جهازها التّناسليّ، والأخرى على نهديها.

- من أنت؟

صار تنفّسها لاهثًا. لم تجرؤ على الحركة. ظلّ قفاها مسمّرًا، بَيْدَ أنّها توصّلت إلى تفحّص الغرفة بنظرها. لم يدخل أحد.

التفتت فجأةً إلى الباب النّافذة.

كان القطّ يرقبها، وهو ملتصقٌ بالزّجاج.

- يا لكَ من حيوانٍ قذرٍ!

لم يتحرّك القطّ.

انفجرت إليز ضاحكةً: لقد خافت من حيوانٍ صغيرٍ هزيلٍ. اطمأنّت، فاقتربت من النافذة، وهي لا تزال تستر عفّتها، وانحنت أمامه.

ورغم أنّ القطّ كان يلازم الحذر، فقد تركها تفعل، وهو محميٌّ بالحاجز البلّوري. أمامه، اكتشفت أنفها حينما كانت فتاةً، ورديًّا ودقيقًا، قصيرًا وطائشًا، ركّزت بدقّة على قزحيتيه الأسليتين، المتألقتين المشوبتين بخضرة، وابتسمت له.

- أرعبك بشكلٍ أقلّ هكذا، أيّها الدّاعر الصّغير؟

غضن جفونه بدوره.

- حينما أكون مكسوّةً مثلك؟

استقام، نفخ فروه، وفي استسلام مرن، احتكّ بالحاجز البلّوريّ شبِقًا فاتنًا.

كان القطّ قد شوّش إليز. بدا لها أليفًا. شيء فيه... اعترتها رغبة في لمسه، مداعبته، تقبيله...

في حيطةٍ ودقّةٍ متناهيةٍ، نهضت وهمّت بفتح الباب النافذة.

أحدثت الإوالية[1] صوتًا بلا صدى، ففرّ القطّ.

واصلت، وضعت قدميها على الشّرفة.

- مينو!

لم يذهب إلاّ إلى وسط المرج، قرب جفنته؛ لأوّل مرّة، لم يختبئ خلف جنبات السّياج - لا بدّ من تسجيل هذا التّقدّم.

- مينو! مينو - مينو - مينو - مينو!

رفع القطّ ذقنه، ازدرد، ولكنّه لم يتحرّك. حافظ بؤبؤاه، الأكثر اصفرارًا من زرٍّ ذهبيّ، على تركيز محيّر.

لاحظت إليز، وهي تفرك جلدها بغتةً، أنّه اقشعرّ. كان شَهْرُ مارس وصقيعه قد بدآ، وهي تتجوّل عاريةً في مرج. يا له من جنون! في نَطّةٍ، انسحبت داخل الشقّة. كان القطّ لا يزال يرمقها، متّصلًا بها عَبْرَ النظر، مفتونًا بقدر ما كان مرتعبًا.

- هل بي رغبة في تربية قطّ وحشيّ؟

جامد التّقاطيع، مصرور الفكّين، كان ينتظر الإجابة.

- هل أحبّ القطط؟

تصلّب المنخران الورديّان تحت الوجه المثلّث للحيوان السنّوري.

- لا.

كانوا قد أكّدوا لها أنّ هذه الحيوانات أنانيّةٌ، عديمة التّعاطف. ألم يثبت لها ذلك وهو يقاوم خطواتها؟ هزّت كتفيها، أغلقت الباب، وسَحَبَت السّتار الواقي.

---

(1) Mécanisme: طريقة عمل الآلات.

عن قصدٍ لم تسع إلى لقاءٍ جديد مع سام لويس طوال شهرٍ. على أيّ حال، الوقت في صالحها، لن يهرب من الزّنزانة الّتي يقبع في جوفها.

خلال ذلك الشّهر، اكتفت إليز بالمرور أمام البيت المركزي. كانت تتأمّل تلك السّفينة الكبيرة القديمة، الثّابتة، الرّاسية على حافّة وادي إيل، تلك الّتي لن تذهب إلى أيّ مكان، وركّابها أيضًا لن يسافروا إلى أيّ مكان. «بيت إيقاف، تلك هي العبارة الصّائبة، قدّرت إليز. لقد أوقِفوا وسيتعفّنون في الإيقاف حتّى آخر أيّامهم». كانت تنعم بحريّة حركتها، تذهب حيثما شاءت، على ضفاف الماء المغرّد، تحت الأشجار المبرعمة، في محلّ المرطّبات، في المقهى، في بيتها. بَيْدَ أنّها لم تكن تحمل أيّ وهمٍ عن حُرّيّتها الأخرى، حُرّيّة التّفكير: هي أيضًا سجينةٌ، تدور حول نفسها داخل زنزانةٍ. سِجْنُها هو عدم إحساس سام. إنّه فضاءٌ تذرعه بلا نهايةٍ.

في صباحٍ ذي سماءٍ زرقاء، لمحت على ضفاف وادي إيل امرأةً طويلةً مسمّرة، في صدارٍ مقوّرٍ وتنّورةٍ قصيرةٍ، ذات ساقين رائعتين، لا تنتهيان؛ متّكئةً على جذع سنديانة، والرِّجل مثنية، بدت أنّها تمدّ للضّوء أشكالها الخالية من العيوب، تمارس الحبّ مع الشّمس. الجفون نصف مغمضةٍ، الشّفاه مواربة، الجيد معروضٌ، كانت تداعب بيدها اليمنى الأشعّة الّتي تدفئ رقبتها، منبت نهديها، بينما كانت اليسرى تتنقل من شعرها إلى فخذيها، وتمرّ من الحركة الّتي تنفش شعرها الغزير الباذخ إلى تلك الّتي تمتدح بشرتها المخمليّة عند طرف ثوبها. كانت تنتشي، غير مباليةٍ بالمتنزّهين، وتنذُر نفسها لعاشق سماويّ. تفادتها إليز محرجةً.

من الغد، صادفتها في المكان نفسه، إنّها جديرةٌ بأن تُنحت، ملكيّةٌ، وقحةٌ، مخلّةٌ بالحياء، شبيهةٌ برسوم الحسان[1] الّتي يعشقها سُوّاق الشّاحنات. عندما تحاشتها إليز، أبصرت عن بعدٍ النّقطة الّتي كانت تركّز عليها المرأة، شِقّة من جدار السّجن يطلّ طابقها الأعلى على الأسوار. خلف الحاجز المشبّك لإحدى النّوافذ، شخصٌ زيتونيّ اللّون كان ينظر إليها، فاغر الفم. فهمت أنّ الزّوج والزّوجة وجدا حلاًّ لممارسة الجنس.

هربت جريًا. منذ متى لم تُقبّل رجلًا؟

في شقّتها الصّغيرة، انهمكت في عمل ترجمةٍ جديدةٍ. عُهد لها بمقالةٍ عن الألوية الحمراء، أولئك الثّوّار الّذين بثّوا الرّعب في إيطاليا خلال السّبعينيّات والثّمانينيّات، مجموعةٌ بات بعض أعضائها قابعين في السّجن. كيف تتصرّف؟ هل تغفر لمرتكبي محاولات الاغتيال؟ كانت إليز، الغريبة عن هذا التّحقيق الّذي أجرته صحفيّةٌ شهيرةٌ من روما، تتعلّم.

إن كانت قد تخلّت عن القطّ، فإنّ القطّ لم يتخلّ عنها. ما إن تظهر، حتّى يقبع في الحديقة. لم تكن تبالي عن عمدٍ، بل تركّز على نصّها، وتحافظ على نظرةٍ مائلةٍ نحوه.

كلّما أكّد الرّبيع حضوره، صار المرج آهلاً بالفراشات والطّيور والفئران الّتي ترتاده. عاد القطّ إلى الصّيد، رغم أنّ إليز كانت تواصل إطعامه. وكان يقدّم لها بشكلٍ فرجويٍّ استعراضًا عجيبًا يمثّل خلاله

(1) بالإنكليزيّة في الأصل pin-up: صور حسان شبه عاريات تُعلّق على الجدران.

بمفرده حديقة حيوانات، فيغدو نمرًا حين يتثاءب، وفهدًا حين يتمطّط، ويقوّس ظهره كي يصبح جملاً؛ فإذا تربّص بفرائسه انقلب أسدًا، ينفخ بطنه الشّبيه بحوصلة الغراندوق[1]، ينطلق أسرع من الظّبي، ينطّ كالضّفدع، يتّخذ ثبات العظاءة، يحفر أعمق ممّا يحفر الثّعلب، ثمّ يتحوّل إلى سنجابٍ ما إن يلهو بحبّة بندق بين رجليه؛ وعندما يتعب، ينبطح مثل بزّاق.

من حينٍ إلى آخر، ولكي يزيد في إثارة حيرتها، يقوم بحركاتٍ آدميّة: يمرّر ويعيد سلاميّاته الورديّة على أنفه، فيذكّر برضيع بريء في مغسله؛ أو يُقْدم على إتيان مشاهد من الفرانش كنكان[2] حين يرفع فخذه إلى السّماء، ويتلهّى بلحس أسفل بطنه، فيبلغ الوقاحة اللاّهبة لنيني بات أن لير[3] الّتي نجحت في «حمل السّلاح»[4].

كانت إليز تستمتع بذلك سرًّا، وهي تراقبه خفية. ولم تلتفت نحوه إطلاقًا لكي لا تشجّعه.

لم ينخدع القطّ بهذا التّظاهر، وهو الّذي لا يساوره شكٌّ أنّه يمثّل مركز العالم، إذ كان غالبًا ما يتمركز أقرب ما يمكن منها، وإذا تمدّد

---

(1) Gran-duc: في الأصل لقب نبالة يطلق على أمير حاكم، أقلّ رتبة من إمبراطور أو ملك، مثل حاكم لوكسمبورغ حاليا، ويطلق أيضا على نوع من البوم الأوروبي، وهو المقصود هنا.

(2) French cancan: رقصة استعراضيّة نسويّة فرنسيّة.

(3) Nini Patte-en-l'Air إحدى راقصات ملهى «الطاحونة الحمراء» Le Moulin Rouge في باريس.

(4) Port d'armes: حركة رشيقة تأتيها الراقصة، إذ تمسك بكلتا يديها أسفل قدمها وترفع رجلها فوق كتفها، بشكل تبدو فيه كأنّها تصوّب مسدّسا.

فكأنّما يقول: «نعم، أعرف، أنا جميل جدًّا. يا للفَرو! شكرًا». منذ أن عدلت عن تدجينه، جعل يسعى إلى إيلافها.

- لا تُتعب نفسك! لن تكون الأمور جيّدةً بيننا أبدًا، قالت له ذات مساء وهي تغلق الباب. لسنا متشابهين.

في أحد أسبات شهر أبريل، عادت إليز إلى السّجن.

كان سام لويس ينتظرها خلف الحاجز البلّوري. لا هي ولا هو استغربا إعادة ربط الاتّصال. قد لا يعلّقان على الشّهر المنقضي. خلال بضع ثوان، اعتادا على حضورهما، ثمّ سأل سام بنبرةٍ هادئةٍ:

- ماذا تفعلين الآن؟

- أترجمُ كتابًا عن الألوية الحمراء.

أراد الاسترسال ولكن، في غياب أفكار محدّدة عن الألوية الحمراء الّتي لم يحتفظ عنها سوى بأصداء غائمة، اكتفى بتحريك رأسه من الأمام إلى الخلف في هيئةٍ ماكرة. تمتمت إليز:

- وأنتَ؟

- أنا؟

- ماذا تفعل في السّجن؟

- أقتلُ الوقت. في غياب أيّ شيءٍ آخر.

استراح لجوابه، فاستعدّ للضّحك بغلظةٍ، ثمّ عدل حين لمح وجه إليز الصّارم. غيّر النّبرة وأخبرها بجفاء:

- سرقتُ تجارة رجلٍ بولنديّ.

- عفوًا؟

- تجارة حشيش.

- أنتَ تمزح؟

- رسميًّا، أقوم بتركيب مناشب كهربائيّة من البلاستيك متعدّدة المخارج في الورشة. لا بدّ لي من غطاء.

- ألم تنوِ قطّ ممارسة الأمانة؟

- لماذا؟ تخشين أن يسجنوني إن أنا أسأت السّلوك هنا؟

تنهّدت، وأرته، بحركةٍ من يدها فوق الرأس، أنّ ذلك لا يعنيها إطلاقًا.

- إذن؟ هل تقدّمت منذ المرّة الأخيرة؟

- تقدّمت؟ أوه... بهذا الكلام... أنتِ تلعبين دور الأطبّاء المتخصّصين؟

ألحّت بعناد:

- هل تقدّمت؟ هل تقبل أن أهتمّ بك؟

تراجع إلى الوراء وتلهّى بشفته السّفلى، وفي عينيه بريق.

- ما الأمر؟ هل وقعتِ في الهوى؟

- دعكَ من هذا!

- أثيركِ؟ لا بأس بي، أليس كذلك؟

تراجعت بدورها، وإذ تبنّت لعبته، تطلّعت إلى تفاصيل جسده. على عضلاته البارزة شرر اعتزاز ينعش بشرته، أرسل نحوها إيماءة غازية. أردفت:

- لا بأس بك. ليس ثمّة ما يدعو إلى إرغام البنات على مضاجعتك تحت التّهديد بسكّين.

لم يرفّ لسام حاجبٌ، رغم أنّ نظرته انطفأت.

كانوا قد اقترحوا عليه ذلك -الشّرطة، حاكم التّحقيق، الخبراء، المحامي- حدّ التّقزّز. ألحّت إليز:

- أولئك البنات، كان يمكن أن يقلن لك نعم.

كان يتنفّس في لامبالاة كأنّ الأمر لا يعنيه. واصلت:

- كان بإمكانك إغراؤهنّ لو اتّبعت سلوكًا طبيعيًّا.

لا جواب.

- هل كنتَ ترغب أن يقلن لك نعم؟

من رخام.

- كنتَ تفرضُ عليهن أن يخضعن، لا أن يهبنك أجسادهنّ. لو رغبت فيّ فربّما أنساق للمحاولة، ولكن ذلك لن يعجبك.

ضحك جذلان.

- ذلك ما فكّرت فيه: أنتِ تعشقينني.

فقدت إليز السّيطرة على النّقاش. هجر الصّفاء ذهنها. كبتت الذّعر، وأرغمت نفسها على الاسترخاء. ثمّ سمعت نفسها تقول:

- أنا أمٌّ يا سام.

تظاهر بالنّبل في عجرفة:

- كلاّ... لستِ عجوزًا... ما زلتِ جيّدةً.

كانت تجهل إلى أين تمضي؛ واصلت مدفوعةً بحدسٍ تكتشفه:

- أنا أمٌّ يا سام. وبالأحرى كنتُ. يعني ما كنّا عليه مرّةً، سنكون عليه دائمًا. حتّى إن مات الطّفل.

جهدت في صدّ الدّموع المربكة، وركّزت على الكلمات الّتي تهرب من فمها:

- أنا أمّ.

- أمّ بنتٍ قتلتُها.

- هو ذا.

- واغتصبتُها.

- بالضّبط.

- ماذا تصنعين هنا؟

- أنظر إليك كأمٍّ يا سام. لا أمّك الحقيقيّة الّتي لم تعرفها، ولا أمّك بالتّبنّي الّتي خذلتك. بَلْ أمٌّ كان يمكن أن تحظى بها. وأنتَ مثل ولدٍ كان يمكن أن أنجبه.

- أنتِ مجنونة؟

- ربّما. وأنت؟

تباطأ ثمّ سلّم بطرف لسانه:

- نعم، أنا أيضًا.

كانا يتقاسمان رابطًا غريبًا. كأنّهما مجنونان، مسحوقان، يشعران بتيهٍ مماثلٍ.

استأنفت:

- هل تدري ما هي الأمّ؟

- لا...

- هي شخصٌ لا يصدّ، شخصٌ يستقبل، شخصٌ يحبّ، شخصٌ لا يصدر أحكامًا، شخصٌ يغفر.

- ثمّة أعمالٌ لا تغتفر.

- من أثبت لك ذلك؟

بدا مشدوها.

مالت إليز على الحاجز البلّوري وهي تفرك يديها.

- قبل أن نغفر، ينبغي أن نفهم. أنا لم أفهم أفعالك.

- إذا فهمتني فذلك لن يعيد إليك ابنتك.

قامت محمرّة الوجه ملتهبةً. كان طرفا أنفها يزروروقان، ويرفّان.

صاحت بصوتٍ يرتجف من الحنق:

- هل تظنّني على قدرٍ من الغباء حتّى أتصوّر أنّي سأسترجع ابنتي؟ حقًّا؟ أتزعم أنّ لي قارًا في المخّ؟ لور ذهبت. بسببك أنت. هي لم تعد هنا، ولا في أيّ مكان، ولا في المقبرة. إنّه غيابٌ كامل. كامل! لا أثر. لا علامة. قلّبتُ الموائد. لا شيء! في اللّيل، في النّهار، أركّز نظري في السّماء وأتأمّل اللاّنهائيّ. لا شيء! أرهف السّمع في السّكون على أمل أن تهمس بجملةٍ. لا شيء! أدخل غرفتها الّتي لم تُلمس وأنا أراهن أنّها ستنقل شيئًا،

تكتب كلمة على الغبار، تطلق موسيقاها المفضّلة. لا شيء! عندئذٍ أعرف جيّدًا أنّ قَذِرًا مثلك لا يُعيدها إلي. يستطيع فقط أن يختطفها منّي!

كانت تصرخ. لثانيةٍ، بدا سام مأخوذًا، بل مذعورًا من الغيظ الّذي يخضّها؛ ولكنّه تمالك، وعاد ليغوص في لامبالاته المعتادة.

جلست مختلجةً. خلال بضع دقائق، ظلّت ترحي همًّا واحدًا: أن تستعيد طبيعتها، وتكفّ عن التفصّد عرقًا وتخفّف من خفقان قلبها، وتعدّل تنفّسها.

عندما توصّلت إلى ذلك، رفعت وجهها وتأمّلت العملاق الخامل. تلطّف صوتها لمحادثته:

- هل تشعر بالنّدم يا سام؟ لم تبدِ أيّ تأنيب ضمير خلال المحاكمة. لم تظهر أيضًا أيّ مواساة لعائلات الضّحايا.

- ما الجدوى؟

- هذا يخفّف ألمهم.

- أف...

- أنت مخطئ. أغلب العائلات الّتي...

- اخرسي عن ذكر عائلاتك! أنا لم تكن لي عائلة. واضح؟ إذن، أنا أتقيأ العائلات. فهمت؟

هو أيضًا اندفع، ولام نفسه على ذلك. تركته يهدأ.

- لنترك العائلات يا سام. بالتّوبة والعطف كنت ستتبدّى...

آدميًّا.

- آدميًّا؟

فكّر دون أن يحرّك ساكنًا، بتركيزٍ أقلّ ممّا لو كان يلعب السكرابل.

- لا أدري إن كانت لي رغبة في أن أكون آدميًّا.

أيّد حكمه بهزّة من رأسه وواصل:

- هل رأيت نمرًا يصطاد؟

لمعت عيناه بغتةً، وهو يتأنّى في مشهد يعرفه كلاهما. بدا سام، بشفتيهِ المطبقتينِ على ابتسامة جذلى، وجبينهِ المسترخي، وكأنّهُ يعيشُ حالة تجلٍّ صوفيّ. ردّت إليز كي تحثّه على الكلام:

- لا.

- لا شيء في الكون أجمل. النّمر هو أسوتي. منفردٌ يملك منطقة لا يتخلّى عنها لدخيل. عندما يقرّر الخروج للصّيد، عند هبوط اللّيل، يشحذ حواسّه، يرقب نفَسًا، ينتبه لقُتار. كلّ شيء رهيفٌ عند هذا العملاق، السّمع كما الشّمّ. حذرٌ، خفيٌّ، لا مرئيّ، يتنقّل في ملاذٍ ويدبّر خطّته دون أن يلحظه أحد. إنّه ساحرٌ في التّخفّي. إذا رأيته، فقد رآك هو ألف مرّةٍ. عندما يهتدي إلى طريدةٍ، يلبد في سكونٍ تامٍّ. لا يثب إلاّ حينما تكون فريسته على مسافة عشرة أمتار، هنا، هوبْ، يأتيها من خلف أو من جانب، فيمسكها مباغتةً ويغرز أنيابه في رقبتها. ثمّ يجرّها إلى مكان هادئ ليستمتع بها على هواه... يبدأ بالمناطق اللّحيمة، الفخذين أو العجيزة. لا أحد من البشر يعادل مستواه، لا أحد

يجمع بين القوّة والخفّة، الرّشاقة والعضلات. لا أحد!

زادت الحكاية توتّره، فكان يضرب براحتيه على صدره، وفخذيه، وذراعيه محدثًا صدى أكمد ومجوّفًا في جسده، وكانت ضرباته المتكرّرة توهم بعكس ما كان يدّعي: هو يعتبر نفسه هكذا، قويًّا ومطّاطيًّا. هو يعادل نمرًا.

أغمضت جفونها. في ثانيةٍ أسقطت صيد النّمر على جرائم سام الخمس عشرة: المنفرد الّذي يقطع غابة مونبرناس وقت الغروب، يرقب فتاةً، ينتظر أن تنزل من سيّارتها، يرتمي عليها، يُغميها، ثمّ يحملها إلى موضع حاويات القمامة ليستمتع بجسدها، مبتدئًا بالفخذين والعجيزة.

كادت تفقد وعيها، ففتحت جفونها لتعزّز توازنها.

أمامها، خلف الحاجز البلّوري، كان سام لويس قد أنهى تقديم نفسه، مبتهجًا. فجأةً نهضت إليز، استدارت متّجهةً صوب الباب.

قال مشدوهًا بصوتٍ متأوّهٍ:

- هيه! ماذا تفعلين؟

- أنصرف.

- ليس بعد. لم نكد نبدأ في...

لم يقبل أن تذهب في الوقت الّذي بدأ أخيرًا يكشف أسراره. استنكر ذلك:

- اللّعنة، أنا أشرح لكِ أسوتي وأنتِ تنصرفين!

ملكت إليز نفسها وعادت إليه فاتّكأت على ظهر الكرسيّ، وقالت:

- تبدو لي أبعد ما تكون عن أسوتك، يا سام لويس.

- ماذا؟

- النّمر لا يأتي أبدًا إلى حاجز التّخاطب. أمّا أنتَ فأتيت. وداعًا.

وتوارت دون التفات.

***

اندفع القطّ المنتفش ورجلاه إلى السّماء، ومخالبه بارزةٌ فدار حول نفسه وأخطأ الفراشة.

- ررر...

عطس مغتاظًا. في عينيه تلمع شعلة وحش متمرّد. وجّه نظره صوب بشّورة الأشواك ذات الأجنحة البرتقاليّة والسّوداء سواد الحبر واندفع من جديد. أخطأ المرمى، مرّةً، مرّتين، ثلاثًا. وواصلت الفراشة طريقها المنثنية مرحة لا مباليةً. زمجر القطّ.

«ليس هو الّذي ابتدع فخّ الفئران!» فكّرت إليز وهي تلاحظ فشله.

إخفاق القطّ جعله هستيريًّا. لم يكن يستطيع الصّيد دون أن ينتهي ذلك بصيحاتٍ وصفير ولبط.

مرّت بقربه ذبابةٌ، وبحركةٍ سريعةٍ من فكيّه، قبض عليها في فمه. انذهل بنجاحه بمثل هذه السّهولة، فاجتاز لحظة ريبة ثمّ اطمأنّ وطحن الذّبابة، تلذّذها، ومصّها، وسحقها مغمض الجفون مصرور

الأسنان مسرور بفريسته. كانت الحشرة في قيمة كنوز علي بابا.

عاد إلى إليز، وكانت تعمل في الشّرفة، خفيفًا متموّج الشّعر متمايل المشية، ممدود الذنَب، ولامس كعبيها.

- اغرب عن وجهي! صاحت إليز وهي تسحب نفسها.

باتت تستفظع القطّ. فمنذ حكاية سام لويس، صارت تستشعر نمرًا في هذا السّنوريّ الصّغير، أنانيّة المخاتل الهادئة تلك، وتلك الضّراوة الطبيعيّة، الغريزيّة، اللاّأخلاقيّة الّتي تقوده إلى قتل نفسٍ بضربة رجل، فتولّد نسيانًا تامًّا بالابتعاد عن الجثّة، وغياب الأسف أو النّدم. إنّها الوحشيّة في ثوبٍ أبنوسي.

- قلتُ لكَ اغرب عن وجهي!

وركلته ركلةً خفيفةً. بدَا مذهولاً، لا يفهم لماذا لم تعد تعشقه، وهو الّذي يزهو بنفسه كثيرًا.

كان عمل إليز يتباطأ. لا لأنّ تحوّلات الألوية الحمراء لم تعد تشدّها فحسب، بل لأنّ ذهنها بات ينصرف أيضًا نحو سام لويس. هذا الشّخص هجر الإنسانيّة إلى الحيوانيّة؛ منذ أعوام وهو ينافس النّمر. منذ متى يا ترى؟

- ميو...

كان القطّ، لكي يلفت انتباهها، قد دخل إلى الشّقّة الظّليلة. تقدّم مختالًا، مبصبصًا بذنبه، وتطلّع بنظره إلى الأثاث في هيئة صاحب المحلّ.

كشّرت. ماذا؟ في السّجن تخالط شخصًا هجر الإنسانيّة إلى الحيوانيّة؛ وهنا تخالط دابّةً هجرت الحيوانيّة إلى الإنسانيّة. كفى!

وضربت كفًّا بكفّ فتولّد صدى مدوٍّ في شقّةٍ تكاد تكون فارغةً.

انبثق انعكاس أسود من الحشيّة، انساب مثل سمكةٍ بين ساقيها ومضى في سرعة البرق خلف السّياج.

- نعم الخلاص.

وأغلقت الباب النّافذة.

في بيت الاستحمام تأمّلت نفسها في المرآة. فرأت فيها غريبةً عنيدةً. ورغم انتصابها في الوقوف، بدت كأنّها تعرّضت للعنف، كتفاها مقوّستان، محجراها محاطان بالزرقة، شفتاها مقضومتان من الدّاخل، الشّعر مهملٌ بلا بريق، حاضر على جمجمتها بفعل العادة، مثل قبّعة منسيّةٍ. وهي تجسّ خدّيها ووجنتيها وجبينها وتمطّ زوايا فمها أو جفونها، وعت هزيمتها؛ وجهها فقد كماله السّابق وما عادت له قيمة إلاّ بالتّعابير الّتي تنعشه؛ عينها ما عاد لها سوى النّور الّذي تضعه فيها؛ بشرتها ما عادت تظهر سوى ألوان الزّينة الّتي تضيفها إليه. لقد أصبحت ترى نفسها امرأةً منطفئة.

كان النّهار ينحدر.

تأمّلت مسكنها الضّئيل. أوه، عبثًا تبحثُ عيناها في كلّ مكان، سيظلٌّ منزلاً لا يشاركها السّكنَ فيه أحدٌ، لا ولدٌ ولا زوج. عزلةٌ جديدةٌ، عزلةٌ لم تخترها كما حدث في مراحل معيّنةٍ من حياتها، بل مفروضة، خاليةً من النّزوات العابرة، والرّفض، والتّحدي،

والانتظار، والمواعيد. عزلةُ مهزومةٍ، لا عزلةُ ظافرةٍ. ثمّ تنهدت.

- ممّ كان تنهّدي؟ إيّاي أن أعرف!

تحت غروب مزرورقٍ، كان القطّ يرقبها من الباب النّافذة. عندما لمحته، جعل يفرك الزّجاج برجله المتورّدة، بلطفٍ، ورشاقةٍ: كان يودّ الدخول.

دنت منه. تلوّى سعيدًا بنجاحه.

- محتال!

جثت على ركبتيها، تأمّلته وتأمّلت نفسها وهي تتأمّله.

قبل أعوام، كان يمكن أن تفتح الباب النّافذة؛ قبل أعوام، كانت لا تزال امرأةً لطيفةً؛ تفكّر أنّ المودّة، والاستعداد لخدمة الغير، والوفاء ميزات جوهريّة؛ بل فضائل فعّالة. «باللّطف يا ابنتي، تهزمين كلّ الصّدود»، ذلك ما علّمته للور، الّتي لن تحتاج إلى توصية ما دامت الطبيعة قد وهبتها طبعًا رفيقًا، مستأمنًا، هادئًا، رحيمًا، متوجّهًا نحو الآخرين حدّ نسيان نفسها. «اللّطف سلاحٌ ينزع السّلاح»، تكرّر إليز فخورةً بابنتها. للأسف، صارت تكره ذلك اللّطف. لور ماتت بسببه! كان لا بدّ من جعلها حذرةً، صلبةً، ذهانيةً، ميّالةً إلى الحرب، جفولًا، مرتابَة، قاسيةَ القلب كي تتجنّب هجوم سام لويس.

نفد صبر القطّ في اللّحاق بها، فأصدر مطالبةً بصوته السّنوريّ الأجشّ الخفيض، ثمّ رشقها بعينيه الصّفراوين المشوبتَين بعروق خضر. كان يستدرّ عطفها.

لماذا أصدّه؟ لو أنّي...

فجأةً، ارتمت إلى الوراء: كانت قد فهمت.

الشّذرة السّبيدجيّة[1] في القرنيّة اليمنى!

كانت للقطّ تلك الشّذرة السبيدجيّة الّتي كانت للور، خطٌّ داكنٌ يعبر البؤبؤ ويلامس القزحيّة، وهي جزئيّةٌ كانت لور وأمّها تسمّيانها «غُنجها في العين».

أرعبها هذا الاكتشاف. لهذا إذن كانت تشعر أحيانًا بأنّها منجذبة إلى هذا القطّ، وهي الّتي لا تحتمل القطط! فزّت قائمةً فضربت الكوب براحتيها وصرخت كالمجنونة:

- اغرب عن وجهي! توارَ عن نظري! لن تكون الأمور بيننا على ما يرام أبدًا.

فرّ القطّ مذعورًا وذاب في اللّيل.

في السّبت الموالي، قادتها قدماها إلى السّجن. كانت السّماء خاليةً، لا أزرق ولا أبيض. خاليةً.

جلست إليز أمام سام، نظرت إليه لِمَامًا ولزمت الصّمت. لم تكن ترغب في أن تطرح عليه أسئلة -رغم أنّها لا تزال تحتفظ منها بالكثير، الحارق-، لم تكن ترغب في اتّباعه إلى متاهة فكره المنحرف، لم تعد ترغب في أن يعذّبها بذكر لور -أو بعدم ذكرها-، باختصارٍ، لم تكن لها أيّ رغبةٍ في مواجهته. قنعت بالحضور، ما دام من واجبها. ألا يكفي ذلك؟

تبلبل سام فلم ينخرط في الحديث هو أيضًا.

---

(1) Sépia: حبر السبيدج وهو نوع من الحبار، ويطلق أيضا على مادة تلوين بُنّيّة غامقة.

كانا صامتين.

من حينٍ إلى آخر، يرفع أحدهما نظره إلى الآخر ليجرّه إلى الحديث، ليوحي إليه بأنّه مستعدٌّ لسماعه، ولكنّ ذلك التّبادل الخفيّ لم يحظ بجواب، فطال الصّمت.

اضطرب سام في البداية، ولكن سرعان ما استعاد عاداته: انقلبت المقابلة البكماء إلى ميزان قوى. صار يصرف كلّ طاقته في حفظ لسانه، وهو يتوقّع أن تنهار إليز.

ازداد الصّمت شحنةً.

لم يستسلم السّجين، ولم تبال الزّائرة.

وإذا كان سام يخفي شراسته خلال عملية ليّ الذراع هذه، فإنّ إليز صارت في النّهاية تلتذّ بها. لأوّل مرّة، اختارت دور اللاّمبالية، الخاملة، الفاترة الشّعور، اللاّإنسانيّة. يا للرّاحة...

قضيا ساعةً على تلك الحال، جالسين بينهما مسافة بضعة سنتمترات، مفصولين بحاجز زجاجيّ وأفكارٍ في طرفي نقيض.

في الدّقيقة الحاسمة، ندّت طقطقة حديد، ودار المفتاح في القفل، فأزّ المصراع وأقبل الحارس لأخذ السّجين.

نهض سام وتكشيرة عدوانيّةٍ على فمه، وهتف بصوتٍ فظّ:

- لا تعودي في الأسبوع القادم!

في الأسبوع الموالي، حضرت إليز في السّاعة الثّالثة بعد الزّوال تحديدًا إلى حاجز التّخاطب فابتسم لها سام.

- أنا مسرور.

رمشت جفونها مؤيّدةً. جلست وقالت بسرعة:

- لن أبقى، للأسف، سوى خمس دقائق.

- لماذا؟

- مواعيد.

- آه...

- مع من؟

- لا أحد. مواعيد.

لمحت سحابةَ غيرةٍ تُظلّل وجه سام، ولكن كان من الإيجاز ما جعلها تشكّ فيها.

انثنى، مكوّرًا، قويًّا، خاليًا من التّعبير. كدس من الصّلصال. وهو يتفقّد البلاطة تحرّكت شفتاه:

- عندكِ أطفال آخرون؟

- أطفال آخرون غير...؟

- غير ابنتكِ.

- مَنْ؟

- ابنتك.

- ما اسمها؟

تمنّع عمدًا ثمّ قال:

- لور.

- سعيدةٌ أنّك تتذكّره...

أشاح سام بوجهه. أردفت إليز:

- لا!

- ماذا؟

- ليس لي أطفالٌ آخرون.

- لهذا تأتين لزيارتي؟

- ربّما. المهمّ أنّي آتي.

- ربّما.

حدّق فيها بعينين منكسرتين يُغطّي جفونهما نصف البؤبؤين البنّيين.

- لم تنجبي أولادًا. كنتِ تتمنّين أن يكون لكِ ابن؟

- لم يكن لك أمّ. كنتَ تتمنّى أن تكون لكَ أمّ؟

ترامقا في رفق شحيح. كان كلّ منهما يستأنس بالآخر.

ودّ سام أن يتكلّم.

- أريدُ أن أفهم.

- ماذا؟

- أنتِ تريدين أن تفهمي لماذا فعلتُ ما فعلت. وأنا أريدُ أن أفهم لماذا تفعلين ما تفعلين. هل نتوصّل إلى ذلك؟

- أنا واثقةٌ من ذلك يا سام.

ابتسمت بحرارةٍ.

- لا تحكم على النّساء من خلال نساء طفولتك، أمّك الّتي تخلّت عنك، مدام فرتالا الّتي...

- أمّي لم تتخلّ عنّي فقط!

غمغم ذلك بطريقةٍ متعجّلةٍ، كانت الكلمات تندّ من تلقاء نفسها.

- تخلّت عنّي مرّتين. الفرتالا أيضًا. كلتاهما خانتاني تباعًا.

حملق فيها، مرتعبًا ممّا كشف عنه.

أبدت انطباعًا مريحًا.

- لا تخف. يمكنك أن تقول لي كلّ شيء. اليوم، كما أخبرتك، سأغيب. في الأسبوع القادم سوف تحكي لي.

- لو أنّك...

- سأكون هنا يا سام. لن أتركك. اعتمد عليّ. سأكون هنا، كأمّ حقيقيّةٍ. إلى السّبت.

ظلّ فاغر الفم.

غادرت إليز البيت المركزيّ، نفضت سترتها، تنّورتها، وجلست في شرفة أوّل مقهى صادفها.

كانت الشّمس تُبهرها.

بطبيعة الحال، لم يكن أيّ موعدٍ في انتظارها. كانت فقط تودّ ألاّ يتكلّم سام بغير إرادته؛ ينبغي أن يشعر بحاجةٍ إلى التّحدّث إليها. أسبوع طويل سوف يساهم في إذكاء هذه الرّغبة.

أمّا هي... فلئن كانت تعرف ما تأمله منه، فإنّها لا تزال تجهل

ما تتمنّى لها. بَيْدَ أنّ الأمر يختلج، وفكّ العقدة يلوح في مستقبلٍ قريب، كانت تحسّه سوف ينبثق، سوف تعرف في النّهاية لماذا تزور هذا المنحرف منذ سنواتٍ، لماذا تلزم نفسها بمخالطته، والنّظر إليه، وسماعه...

في ذلك المساء، هبّت عاصفة.

مطرٌ، رعدٌ، بروقٌ، كلّها كانت تعرب عن هيجان الطقس. كانت القطرات تثقب الأرض بقوّةٍ أشدّ من رصاصِ رشّاش؛ رطوبة كريهة، كالغاز، كانت تخترق الجدران والنوافذ.

لكي تحمي إليز نفسها من الضّجيج، أضافت إليها ضجّةً أخرى: شغّلت التّلفزيون الّذي كانت لا تلجأ إليه إلاّ قليلاً، وإذا مسلسلٌ بوليسيٌّ أمريكيّ يضخّم الجلبة بطلقاتِ رصاصه وصفّارات سيّاراته.

في خضمّ تلك القيامة، سمعت خدشًا. جزعت وخشيت دخول أحد الحائمين، وإذا هي تبصر القطّ خلف الزّجاج وهو مبلّل، في حالٍ يرثى لها، يتوسّل إليها الدّخول.

صاحت فيه:

- عد إلى مكانك، اخرج! أنتَ حيوانٌ وحشيّ.

ألحّ وهو يضع سلاميّاته الورديّة على الزّجاج.

- ميو...

دون أن تسحب السّتار، ذهبت لتنام.

من الغد أي يوم الأحد، لم يظهر القطّ.

- أخيرًا!

سوّت إليز جلستها في الشّرفة الّتي كانت الشّمس تجفّفها، مبتهجةً بالتّمتّع دون أن تنشغل بكوميديّات السّنوريّ أو شروطه.

في ذلك اليوم، أنهت ترجمتها. كانت سعيدةً وهي تعدّل الكلمة الأخيرة من عملها حينما انهمر المطر مدرارًا. وأعلن عن نشوب عاصفة في اللّيل أشدّ عنفًا من عاصفة البارحة. كانت القطرات تجلد مربّعات البلاطة، وتسوط الجدران.

دخلت، وراحت تبحث عن الموسيقى الّتي تناسب مطبخها، واختارت أنغامًا كوبيّة.

كانت ترقص فرحانةً، وهي تتنقل من قِدر إلى سكّين تقشير. بيبيتو مي كوراثون[1]. عندما بلغت الأنغام الاستوائيّة نهايتها، أعادتها.

- الـ «تشا تشا تشا»، ولا سواها، تمتمت وهي تموّج وركيها.

ولكن ما مصير القطّ؟ رغم الفيضان، لم يضرب الزّجاج. خسارة، فربّما فتحت الباب هذا المساء...

يوم الاثنين، نهضت إليز بمزاجٍ عكر. ينبغي أن تراجع ترجمتها -الجزء المملّ من عملها- وتعلم الوكالة الّتي تشغّلها بأن تسليمها النّصّ سوف يتأخّر أسبوعًا عن موعده.

على الشّرفة، وفنجان القهوة في يدها، أكبّت على شاشتها.

- أين هو؟

---

(1) Pepito mi corazon: بيبيتو يا قلبي. بالإسبانية في الأصل، وهو عنوان أغنية لفرقة لوس ماتشوكامبوس الّتي تأسست في باريس عام 1959.

اعتادت على القطّ حتّى وإن صدّته. من دونه، بدت لها الشّقّة أكثر كآبةً، والمرج أكثر قبحًا. صحيحٌ أنّها طالما تمنّت رحيله، غير أنّها مستاءةٌ من تحقّق أمنيتها فجأةً.

تركت طاولتها، وعبرت الحديقة، وتسلّلت وسط السّياج حيث تلتقي جنبات التزيين وشجر الغار النخلي، ثمّ مرّت بصعوبةٍ وبعض خدوش إلى النّاحية الأخرى.

- مينو!

لم يأتها ردّ. القطّ على أيّ حالٍ لم يردّ بتاتًا عند المناداة باسمه. ثمّ إنّه لا يحمل اسمًا.

- مينو - مينو - مينو!

قرّرت أن تلفّ بالمرج من الخارج، وهو ما لم تحاوله من قبل. تطلّعت إلى أسفل كلّ الشجيرات، وهي تتوقّع ظهور القطّ.

لا شيء.

هل غيّر منطقته؟

كانت عائدةً إلى العمارة حين لمحت شكلاً مريبًا على الطّريق المتاخمة، كدسًا من الشّعر في لون السّنوريّ. دنت على عجل.

كان القطّ ممدّدًا على الطّريق، مفريّ الجانب، ظاهر الأمعاء، وشعره مضرّجٌ بدمٍ بنّيّ. بدَا خامدًا، تَائِهَ النّظرة، يتألّم ويُحتضر.

لم تتردّد إليز. جَرَتْ بحثًا عن طبقٍ غطّته بقطعة غسيل، وعادت إلى الطّريق، فوضعت القطّ على الطبق في حيطةٍ، ثمّ اندفعت إلى المصحّة البيطريّة الّتي كانت لاحظتها في طريقها إلى السّجن.

ما إن وصلت حتّى ألّمت السّكرتيرة بالوضع وأعلمت الطبيب البيطريّ ومساعديه.

بسطوا القطّ على طاولة مطليّةٍ بالكروم.

- عضّه كلب، شخّص البيطري بشراسةٍ، بوحشيّةٍ، بقذارة. عجيبٌ أنّه لا يزال يتنفّس...

- هل يمكن القيام بشيء مّا؟

- لا شيء تقريبًا، لا.

- أرجوك!

- أستطيع أن أجري له عمليّةً، هذا صحيح. ولكن ذلك سيطول، دون ضمان النّتيجة.

- أرجوك، حاول!

قالت ذلك وهي تصرخ. فقال بإشفاق:

- سيكلّف ذلك غاليًا.

- حاول! من فضلك... سأدفع.

استخلص البيطريّ ومساعدوه أنّهم أمام سيّدةٍ متعلّقةٍ بحيوانها تعلّقًا عميقًا، فأسرعوا في إعداد القطّ لغرفة العمليّات. في الواقع، كانت إليز تنظر إلى السّنوريّ، وقد تعرّت عضلاته، وتحطّمت عراقيبه، وتمزّق بالأنياب بطنه، وهي تفكّر في لور الّتي تمزّق لحمها هي أيضًا.

يوم الثّلاثاء، في الثّامنة صباحًا، ذهبت إلى المصحّة كما طلب منها.

- ما الجديد؟

فرك البيطريّ أذنه.

- أدخلتُ الأمعاء، وخِطت العضلات، وأغلقت الجلد. نعالجه بالمضادات الحيويّة لتجنّب التّعفّن.

- لقد نجا إذن؟

تنحنح البيطريّ.

- قمت بكلّ المحاولات، كما طلبت. ولكنّي لا أؤكّد لكِ أنّه سيخرج سالمًا. هناك صدمات كثيرة: الصّراع، جروحه، العمليّة. سيبقى عطوبًا. جدًّا. هو لم يُفِقْ. نحن نغذّيه بالأنبوب. ونراقبه عن كثب. على فكرة، ما هو اسمه؟ حتّى ننطق به لننبّهه.

أغضت بصرها محرجةً، ثمّ قالت بثقةٍ:

- مينو.

- عفوًا؟

- يدعى مينو. صحيح أنّه غير طريف. لقد أسميناه هكذا عندما عُهد به إليّ.

واستدارت منصرفةً.

يوم الأربعاء بدا البيطريّ أقلّ تفاؤلاً:

- إنّه يفتح أجفانه لمامًا ولكنّه لا يتحرّك. يتألّم كثيرًا، برغم المورفين. لو أزيد المقدار فيخشى أن... تفهمين ما أعني.

- طبعًا.

أمسك معصمي إليز وضغط عليهما بين راحتيه.

- دون الوقوع في الكارثية، سيّدتي، أنصحك بأن تتهيّئي لما هو أسوأ. إلى غد.

لم يأتِ الخميس بأخبارٍ أحسن، ولا الجمعة. كان الفريق البيطريّ، برغم تجنّده، يفقد الأمل.

- الأربع والعشرون ساعة القادمة ستكون حاسمةً. أطلب منك أن تمرّي غدًا. ليس في الصّباح، لأنّي أُجري عمليّة.

- حسنًا. سآتي بعد...

- كادت إليز تقول «بعد السّجن» ولكنّها كبحت نفسها.

ختمت مثلما يغلّق المرء الباب:

- غدًا الرّابعة بعد الزّوال!

- هل تُريدين رؤية مينو؟

- عفوًا؟

- أتصوّر أنّك ترغبين في مداعبة مينو، والتّحدّث إليه...

ارتعبت. «مينو»؟ الجميع وقعوا في سوء تفاهم: هي ليست صاحبة القطّ، هي لا تحبّ هذا القطّ، أدهى من ذلك، تكرهه. التقطته وجاءت به هنا بدافع... الحسّ الإنسانيّ، حتّى لا تتصرّف مثل لامبالٍ، وغدٍ، قاتلٍ، هذا كلّ ما في الأمر. إنّها مسألة أدب. ماذا كان ينتظر منها في النّهاية؟ أن تلقي القطّ المنازع في حاوية نفايات. حاوية نفايات؟ مثل... تفجّرت صورة لور في ذهنها. أحسّت الخطر فوجّهت نحو البيطريّ نظرة مذعورة.

- لا، شكرًا. ليس الآن.

يوم السّبت في السّاعة الثالثة ظهرًا، التقى سام وإليز من جديد عند حاجز التّخاطب بجدرانه الشّبيهة بقشرة البيض.

لأوّل مرّةٍ، تحدّثا ببساطةٍ، بطريقةٍ منسابةٍ، عن الطقس والمجريات السّياسيّة، والسّجن وحراسه... لقد خبر أحدهما الآخر بشكلٍ يدركان معه أنّ الجوهريّ يتريّث خلف اللّغو المطَمئن؛ كانا متّفقين على اغتنام هذه المهلة.

استراح سام ففرقع مفاصل أصابعه في صوتٍ جافّ أشبه بصوت جوزةٍ تُكسر. ارتكبت إليز خطأً: تفحّصت يدي الرّجل المتين على لوحة حاجز التّخاطب. كانتا مرتخيتَين، مبسوطتَين، شبه ميّتتَين، تتكوّنان من كتائب قصيرةٍ، شعراءَ، ذات أظفارٍ شاحبةٍ ومشقّقةٍ، سيّئة التّقليم. فخضّ جسدها غثيان. لقد حرنتا مثل سبعٍ تقوّس ظهره، على أهبة الوثب. تحجّرت إليز. كانت تانك اليدان اللّتان ضربتا لور، يدَي قاتل! ألمّ بها الغثي، فرفعت راحة يدها إلى فمها، وصعد غداؤها، فرامت الفرار.

- لستِ على ما يرام؟ سأل سام باهتمامٍ حقيقيّ.

رفعت إليز رأسها، حدّقت في حدقتيه، ورغم أنّ عينَيْ سام لا تفوقان يديه قيمة، فقد استطاعت أن تسيطر على تقزّزها.

- لا شيء ذا بال. لقد ازدردت شيئًا...

ولكي يسهب سام في ما ذهبت إليه، وصف لها الأطعمة الرّديئة الّتي توضع أحيانًا، هنا، في جِفانهم، وطفق يتحدّث عن المطاعم

السّجنيّة. لم تولِ إليز اهتمامًا بهذا المونولوغ وإن سمح لها باستعادة توازنها. فقاطعته:

- في الأسبوع الماضي، طرحت شيئًا هامًّا يا سام. اعترفت لي بأنّ النّساء تخلّين عنك، أمّك، مدام فرتالا.

- حقيقةً، أليس كذلك؟

- مرّتان. قلتَ لي إنّ كلاً منهما تخلّت عنك مرّتين. أمّا عن الحقيقة، فهذا...

أعاد فرقعة أصابعه. ألحّت بصوتٍ عذب:

- احك لي يا سام.

- أمّي تخلّت عنّي عند الولادة. طيّب، عاديّ في الواقع، هذا الأمر يحدث منذ قرون، البنت المعوزة، غير النّاضجة، الّتي يسهل التّأثير عليها... هوب، نتخلّص من الصّبيّ، نسلّمه إلى السّلطات، لا من رأى، ولا من سمع. أنا، طالما تصوّرت أنّ أمّي كانت مجرّد ضحيّة.

- معكَ حقّ.

- هراء! في فترة مّا، تمنّيت لقاءها. كانت رغبة مراهق. في الثّالثة عشرة. كان ذلك يستبدّ بي. ولأنّها ولدَت تحت اسم مجهول، لم يكن بالإمكان رسميًّا تسليمي هويّتها، ولكنّي كنتُ أعرف شخصًا يمتلك الخبر، روني، وهو مربٍّ صادَفْتُه في ملجئي الأوّل للأيتام. توصّلْتُ إلى معرفةِ مكانه وذهبت إليه. تراجع، طبعًا، عندئذٍ أخرجت له مهاراتي في التّمثيل: بكيت،

وتدحرجت على الأرض، وزعقت أنّها مسألة حياةٍ أو موت، وهدّدت بالانتحار، إلخ. أتدرين ماذا؟ كان الأمر سهلاً! كما لو أنّه حقيقة. اليوم، لن أفلح في ذلك. لا تنسي أنّي كنت في الثّالثة عشرة، وفي هذه السّنّ...

ألقى نظرةً مذهولةً على المراهق الّذي كان.

خشيت إليز أن يتوقّف.

- هيه، وماذا حدث؟

- وعدني روني بأن يشفع لي. اتّصل بأمّي. ثارت عليه! صرخت في وجهه أنّها ترفض أن تراني، وأنّ أمري لا يعنيها، وأنّي لا أحسب لديها إلاّ كما يحسب برازٌ تغوّطته على حافّة طريق. والحقّ أنّ هذا ما كنت، مجرّد برازٍ تغوّطته على حافّة طريق!

ازدردت إليز ريقها، وقد صدمتها هذه القسوة. واصل في هلوسة:

- لم أتحرّك. أحسست أنّ روني لم يكن يكذب. بل إنّي لم أعنّفه لأنّه أعاد عليّ ذلك. كان بي وجع، نقطةٌ نهائيّة. لم يكن لي حظّ، الأمّ فرتالا أيضًا صارت تضربني بعنف. الجميع يلكمونني في تلك الفترة. كانت تعيّرني بأنّي لا أصلح لشيء لأنّي أضيع الوقت في المدرسة، وبأنّي خنزير لأنّي كنت أستمني على جرائد دعارة، وبأنّي فاسق لأنّي كنتُ أسترق النّظر إلى أخواتي بالتّبنّي عندما يغتسلن. والحال أنّ كلّ ذلك طبيعيّ، أليس كذلك؟

- أجل يا سام. لم أربّ ذكورًا، ولكنّي أعتبر أنّك تتصرّف بشكلٍ

طبيعيّ. باستثناء إهمال المدرسة.

- أوكي![1] كان لي منيٌّ يطفح عن خصيتيّ، ولا أعرف ما أصنع به. جرّبت إذن حظّي. مَن أفضل من أصادق؟ أخواتي بالتّبنّي... تغزّلت بزووي، فطردتني. لكنّي تمسّكت. صحيحٌ، في شيء من المبالغة. وبعدها، اقتربت من الأخريَن. اللّعنة، كنتُ أقترح أشياء حلوةً، أشياء جيّدةً، أشياء تعجب، ولكنّهما كانتا تزعقان مثل إوزّ يذبح. اللّعنة، عندما أسمع ذلك كان يمكن أن أخنقهما. لعلّي فعلت شيئًا من ذلك.

خفض رأسه.

- الأمّ فرتالا وشت بي، قالت إنّي أمثّل خطرًا عامًّا، يجب تخليصها منه. في الحقيقة، أظنُّ أنّها كانت تتطلّعُ إلى الحصولِ على حضانةِ توأمِ خلاسيّ، عُهد به إليها فيما بعد، سيدُرّ عليها ضعف ما كانت تحصلُ عليه من الدّولة عن الصّبيّ الواحد. ألقي بي في إصلاحيّة. الجرح! كانت البنات يُثرنني وزيادةً. كنّ يصددنني لأنّي أمضي مباشرةً إلى الهدف. «مفرط في المباغتة»، كما كنّ يقلن. كان ينبغي أن أجرجر قدمي في خانة التّسلية، ذهاب-إيّاب، ثرثرة غبيّة، ديابولو مانت[2]، فنجان شاي، ألمسك ولكن لا ألمسك، أقبّلك ولكن لا أقبّلك، أحسّ أن عضوك ينتصب ولكن أتظاهر بأنّي لم ألاحظه، ليس هذا

(1) Ok كذا في الأصل.

(2) Diabolo menthe: مزيج من الصودا وشراب النعنع.

المساء، ليس منذ أوّل مرّة، أنا راغبةٌ ولكنّي لستُ مستعدّةً، أحتاج إلى أن أكون معشوقةً، يعني كلّ الأشياء الّتي لا تحتمل لدى البنات! ليس ثمّة ما هو أكثر عاديّة من أن يتضاجع ولد وبنت. أليس كذلك؟ فلماذا إذن كلّ هذا البهرج؟ ارتكبت حماقتي الأولى.

- المرأة الّتي اغتصبتها عند النّزول من الباص؟

- نعم. والأمّ فرتالا خانتني من جديد. خلال المحاكمة، جاءت لتورّطني، زعقت بأنّي وحشٌ، فظٌّ، حيوانٌ... حاولت أن تظهر بمظهر المعذَّبة -لا شكّ أنّهم يمنحون مكافأةً عن هذا... رميت في السّجن. وهنا...

- هنا؟

- هنا فهمت. لطالما استحليت الصّيد. عند آل فرتالا، كنت أمارس الصّيد المحرَّم، أصنع الفخاخ، وأذرع الغابات والحقول، ألبد خلف أجمة طوال ساعات. لكم سلخت أرانب، ونتفت ريش سمانى وتَدْرُج. في مكتبة المركز الإصلاحيّ، استرشدت عن تقنيّات الصّيد وشاهدت تقريرًا مصوّرًا عن النّمور. فكان الاكتشاف: لم أكن إنسانًا، كنتُ نمرًا. البشر ينبذونني؟ هذا طبيعيّ، فلم أكن أنتمي إلى فصيلتهم. أرعبهم؟ هذا أيضًا طبيعيّ، كنتُ نمرًا. لهذا حبسوني في حديقة حيوانات، في زنزانة، خلف القضبان، وهذا ردّ فعلهم حين يشعرون بالرّعب. نتيجةً لذلك، انقشع

كلّ شيء. وكففت عن اتّهام أمّي.

- لماذا؟

- النّمرة تضع صغارها، وما إن يتعلّموا التّصرّف بأنفسهم حتّى ترسلهم بعيدًا. اخرجوا! بسرعة! دون شفقةٍ ولا رحمةٍ. النّمرة لن تعترف بعدها بصغارها، قد تقاتلهم لافتراس ظبي، أو لأنّهم يرتادون منطقتها. إذن، كفى تردّدًا: أمّي نمرة، وأنا نمر.

- إذن؟

- عندما غادرتُ السّجن، بعد سنتين، بدأت أعيش كما ينبغي لي. رصدت منطقتي، مونبرناس، لاحظتها حين تبوّلت مرارًا في كلّ مكان منه، ثمّ وقعت فيه على عدّة مغاور، لدى بعض الرّجال.

- اعذرني إن قاطعتك يا سام، ولكن هل كنتَ تُضاجع هؤلاء الرّجال؟

- كلاّ.

- بلى.

- هم كانوا يُضاجعونني. أنا لا أضاجعهم. لستُ مأبونًا.

- عفوًا؟

ضرب برجله!

- لستُ مأبونًا. واضح؟ الرّجال يلمسونني، فأدعهم يفعلون. بالمناسبة، ألوّط بهم دون أن أنظر إليهم. بعدها يسلّمونني

بعض المال، وأحيانًا بعض الأكل، وأحيانًا غرفة. لم أكن مأبونًا: كنتُ أعجب المأبونين، ثمّة فرق! أنا عندما أشتهي، أشتهي امرأة. للأسف، النّساء...

- نعم؟

- النّساء أمرهنّ بطيء. النّساء، أمرهنّ غباء. النّساء، أمرٌ معقّدٌ.

- توقّف! شكرًا. لا داعي للمواصلة.

حملق فيها مصدومًا:

- ولكن...

شرَحت له موقفها بهدوء:

- أعرف البقيّة. عمليّات صيدك... فرائسك... خمس عشرة مرّة...

- ولكن...

صمدت في وجهه.

- سام، عندي لك سؤال، في غاية الأهمّيّة، وأريدكَ أن تجيبني عنه بتلك النّزاهة الّتي أبديتها منذ حين. هل نلتَ من ذلك لذّة؟

- ماذا؟

- كن صريحًا: المرّات الخمس عشرة، هل وهبتك لذّةً؟

حملق فيها طويلًا ثمّ أقرّ:

- لا... لا لذّة، ولا غير لذّة.

حكّ كتفه وأضاف:

- غير مفهوم.

- كلاّ.

تعجّب من الثقة الّتي تُبديها:

- عفوًا؟

- كنتَ تحسّ باللّذّة قبل البدء، على أساس أنّك مقدمٌ على الفعلة، أليس كذلك؟

- بلى.

- ثمّ بلذّةٍ بعدها، على أساس أنّك فعلت.

- نعم.

- ولكن ليس أثناء الفعلة؟

- بالضّبط.

- طبيعيّ!

قطّب حاجبيه. أعادت بصوتٍ مهدهد:

- طبيعيّ. لم تكن تلتذّ لأنّك تمتّع شخصًا آخر. الوحش، ذلك الّذي تعتقد به الأمّ فرتالا والنّمر الّذي تعتقد به أنت، هو شخصٌ آخر يا سام، شخصٌ آخر!

شخَص مبهوتًا. استرسلت:

- سام الحقيقيّ يختلفُ عن وحش أو نمر. سام الحقيقيّ طفلٌ كان يمكن أن يعشق أمّه، يتعرّف إليها، ويحبّ أن يحبّها. سام

الحقيقيّ مراهقٌ يتسوّل حنان الأمّ فرتالا. سام الحقيقيّ هو إنسان رقيقٌ، حسّاسٌ، ابتدع لكي يحمي نفسه وحشًا يقوم لديه مقام المثال. قمت بكلّ هذا كي لا تتعذّب، يا سام، ولكن كان من الأجدى لو تعذّبت.

كانت شفتا سام ترتجفان.

- في أوقات كثيرة، أردت أن تهجر الإنسانيّة يا سام، لأنّك لا تجد فيها مكانك، لأنّك تتخيّل أنّها لا تريدك. أعوزك الصّبر يا سام، هكذا يتلخّص خطؤك. أعوزتك الثّقة يا سام، وهذا ليس ذنبك. عد إلى تلك الأوقات، عد إلى تلك القرارات الّتي اتّخذتها مثلما اتّفق: ألا تثق في محبّة النّساء ثانيةً، ألا تنتظر موافقة البنات، أن تقلّد النّمر. بعدئذٍ، عد إلى ما قبل تلك الأوقات، في براءتك، وهشاشتك، وصفائك. سوف تظفر بسام مختلف تمامًا، ذلك الّذي كان يمكن ألاّ يتّخذ قرارات مختلفة، ذلك الّذي كان يمكن ألاّ يقتل خمس عشرة امرأةً، ذلك الّذي كان يمكن ألاّ يقبع في السّجن.

ألصقت راحتيها على الحاجز البلّوريّ، كأنّها تمسك بوجه السّجين بين يديها.

- سام هذا، أريدكَ أن تبعثه من جديد. سام هذا، أريد أن أحدّثه، أريد أن أراه، أريد أن أخالطه. سام هذا، أتمنّاه منذ عامين كلّما دخلت إلى السّجن. أعده إليّ، هذا السام. أعده إلينا. أعده إليك.

انسابت دموعٌ من بين جفون السّجين. لم تعد إليز تعرف من هي، ولا أين هي، ولا ما تقول. كانت تكتشف في كلّ ثانيةٍ ما تفوه به، مدفوعةً بحركةٍ ملحّةٍ صادرةٍ من أعماقها.

- سام هذا أقبلُ أن أكون أمّه. يستطيع أن يخرج من نسيانه، ويستند إليّ ليعيد بناء نفسه، ويجرؤ على العيش، ويواجه سام الآخر، القاتل، المخاتل، ويأمر سام النّمر أن يعود إلى عرينه. أتسمعني يا سام؟ أريد أن أكون أمّك. أمّك الحقيقيّة. ليست والدتك الّتي تجاهلت طفلًا رائعًا أخطأت السّبيل إليه. ليست أمّك بالتّبنّي الّتي تملك حافظة نقود بدل القلب. أمّك الحقيقيّة، الوفيّة، الّتي تختارها. سام الوحش، سام النّمر، هو ملك تينك المرأتين، أنجبته عيوبهما. ضيّعتا عليك الدّرجة الّتي تسمح لطفلٍ بأن يمرّ إلى طور الرّجل. لم تتعثّر، سام، هما دفعتاك. بَيْدَ أنّهما لا تختزلان العالم، أنا أتيت، أنا هنا.

بدأ سام ينشج بالبكاء.

ابتسمت له إليز بحنان. غمغم بين شهيقين:

- أنتِ... أنتِ الّتي قتلتُ ابنتَها... تقترح عليّ هذا.

- أنّي مستعدّة أن أحبّك؟ نعم. تلك أنا يا سام.

أخفى وجهه كي يمعن في البكاء. قاوم الاختناق واستطاع أن يقول ويعيد:

- أوه، أنا آسف... لو تدرين مقدار أسفي... أنا...

شعُرَت إليز بارتياح، بسلامٍ جديد، شيء ناعم الملمس ومضيء.

وسمعت نفسها عندئذٍ تقول:

-أغْفِرُ لَكَ يا سام.

ما إن نطقت بتلك الكلمات، حتّى شعرت وكأنّها تغادرُ هذا العالم بتضاريسهِ وأشكالهِ وروائحه. لقد شعرت بقوّةٍ هائلةٍ تسيلُ من السّقفِ، تغلّفها ومن ثمّ ترفعها إلى الأعلى بخِفّة.

أعادت:

-أغفر لكَ يا سام.

ثمّ استسلمت للانبهار.

بعد دقائق، ذهل الحارسان اللّذان قدما لإنهاء حصّة التّخاطب بما اكتشفاه عندما فتحا الباب: من جهة، زائرةٌ ممدّدة على الأرض فاقدة الوعي، وابتسامةٌ مرسومةٌ على شفتَيها؛ ومن الجهة المقابلة، هرقل يبكي بحرقةٍ وهو يطلق صراخ طفل.

عند خروجها من السّجن، وقد عادت إلى وعيها، وأُنعشت، واستردّت نشاطها بفضل قطعة سكّرٍ منقوعةٍ في كُحُول النّعنع، أحسّت بغرابة أنّها فارغة. سارت بمحاذاة الجدران العالية الّتي تحمل في قمّتها مشدّات من الأسلاك الشّائكة، تقدّمت كمَن أصابه نَهَكٌ، غير واعيةٍ بالأرصفة الّتي تطؤها قدماها، وبالمترجّلين الّذين تتجنّبهم كتفاها، والأضواء الحمراء أو الخضراء الّتي تطيعها عيناها.

بعد عدّة مفترقات طرقٍ، عثرت أمام واجهةٍ زرقاء قطعت أُلفتُها حلمَ يقظتها. المصحّة البيطريّة... أليس من المفروض أن تدخل إليها لأجل القطّ؟

دفعت الباب. عرفتها السّكرتيرة فاندفعت إلى مؤخّرة المبنى وجاءت بالبيطريّ. بدا مهمومًا، محزونًا حزنًا يقتضيه الظرف، وأعلمها بأنّ حظّه في البقاء في تدهورٍ، وأنّ الحيوان لن يتجاوز اللّيل.

لم تجب. «ما الأهمّيّة؟» قالت في نفسها.

ألحّ البيطريّ:

- وضعه مستقرٌّ، ما عاد يتحرّك. أمّا عن الشّرب والغذاء فلا يمكن أن نرغمه عليهما. بخلاف ما يعتقد البشر، الحيوانات تتكهّن بنهايتها. عندما تشعر أنّ أمرها قُضي، فإنّ لها من الحكمة ما يجعلها تنساب إلى الموت.

أومأت برأسها منغلقةً. لا شيء يُربك لامبالاتها.

- هل تريدين رؤيته؟

وبما أنّها ظلّت صامتةً، أمسكها من ذراعها وقادها. بدافع عدم الاهتمام، لم تصمد. تسلّلت عبر الممرّات فارغةً، مرتخيةً، بلا قوى.

دلفا إلى قاعة مضاءةٍ بالنيون، مليئةٍ بأقفاصٍ مختلفةٍ ملتصقة بالجدران. في الكبيرة منها ترتاح كلاب رفعت جفونها للتّعرّف إلى الدّخيلَيْن. وفي الصّغيرة قططٌ أكثر حيويّة. قاد البيطريّ إليز إلى آخر قفص، على ارتفاع إنسان.

شعرٌ أسود، لا حراكَ به، يوجد فيه. لا يُرى سوى الظّهر ممدّدًا باتّجاه عمق القفص.

- مات.

- كلاّ، ما زال يتنفّس.

دنت من الحاجز المشبك، وهمست دون وعي منها:

- مينو! مينو - مينو - مينو!

انتصبت أذنان.

تشجّعت، فأعادت:

- مينو!

رفع القطّ جمجمته بصعوبةٍ، ولمّا أدارها اكتشف حضور إليز.

- ميو... قال بصوتٍ واهن.

واصلت إليز بآليّة:

- كيف حالكَ، مينو؟ هه، كيف حالك؟

كانت قد نعّمت نبرتها كي لا تقسو عليه.

ضغط بأرجله، كشّر، ثمّ تحرّك بشكلٍ متقطّعٍ واستطاع أن يلتفت لينظر إليها.

- ميو! نطق بصوتٍ أقوى.

نقر الحاجز المشبك بسلاميّاته الورديّة، كما كان يفعل مع الباب النّافذة.

- ولكن... لم يتحرّك منذ أيّام! هتف البيطريّ.

دفع المزلاج وفتح القفص.

حملت المريض برفق وحاذرت أن تضغط على جنبيه أو أعضائه المضمّدة. استسلم، كأنّه مفكّك من المفاصل، إلى يديها. ببطء، ضمّته إلى بطنها وداعبته. تحت أصابعها، أحسّت دقّات قلبٍ صغيرٍ نقيّ،

مغمور فرحًا، وكذلك هريرًا ناعمًا، ناشئًا، لا يرجو سوى قليلٍ من الثّقة كي يتضخّم.

- شيء لا يصدّق، تمتم البيطريّ. لم أرَ في حياتي قطًّا يحبّ سيّدته بهذا القدر.

- عفوًا؟

- غالبًا ما نبخس مشاعر الحيوانات. انظري قطّك. لكي يظلّ على قيد الحياة، كان يحتاج إلى سبب وجود: أنت. إنّه حبّه، إنّه حبّك أعاده إلى الحياة.

اختضّت إليز، وقد شملها الحنان الحامي الّذي تشدّه بين راحتيها، فأقعت على الأرض، وطمرت أنفها في الشعر النّاعم، الحريريّ، السّاخن، ولأوّل مرّة منذ خمس سنين، بدأت تبكي.

***

كانت تغلق حقيبتها حين هاتفها محامي سام لويس.

كان ذلك آخر صباحٍ لها في أنسيسهايم. في التّاسعة، كان موظّف الوكالة قد حرّر معاينة المحلّ، وأعاد الضّمان ونصح إليز بوضع المفاتيح في صندوق البريد عند الانصراف. عند منتصف النّهار، توقّفت سيّارة في 5 شارع ستاينبرغ، تاكسي بدأ سائقها يشحن حقائبها.

في الهاتف، قدّم المحامي نفسه وأشار إلى لقائهما خلال محاكمة سام لويس حيث... قاطعته في الحين مؤكّدة أنّها تتذكّره.

- ماذا تريد يا أستاذ؟

- مسعاي يخرج قليلاً عن المألوف. موكّلي السّابق، سام لويس، اتّصل بي كي أكلّمك.

- هذا ما حصل. ثمّ ماذا؟

- ممم... يزعم أنّك زرته بانتظام منذ سنتين.

- بالضّبط.

- حصل شيء من قبيل المعجزة، مدام مورينيي: سام لويس أدرك الفظائع الّتي ارتكبها! سام لويس يعي أنّه انتزع الحياة تعسّفًا من خمس عشرة امرأةً بريئة. هو يأسف لذلك أسفًا شديدًا، أليمًا، إلى أقصى حدّ. هو الّذي كان في ما مضى يصف جرائمه بموضوعيّة كاميرا فيديو، ينهار الآن لذكر عنفه، وضرباته، عندما يتذكّر نظرة النّساء المرتعبة، وصراخهنّ، ومقاومتهنّ. يبدو مسكونًا. ويكتشف أيضًا أنّه أفسد حياة خمس عشرة أسرة. منذ شهرٍ، وهو يراسل كلّ أقارب الضّحايا ليعبّر لهم عن تعاطفه وندمه. إنّه نوعٌ من المعجزة، مدام مورينيي. وهو، حسب قوله، يدين بهذه المعجزة لك.

- صحيح؟

- صار آدميًّا، سيّدتي. هو! ما دمتُ قد تولّيتُ الدّفاع عنه، فلن أثقل عليه، ولكن هذا التّحوّل يُذهلني.

- هل حدّد لكَ... في أيّ لحظة صار ... آدميًّا؟

- يوم غفرتِ له.

حدّقت في شحرور ذي ريش فحمي جثم على المرج. كان يرقب

ما حوله وعينه مطوّقةٌ بحلقةٍ صفراء، مثل نظّارة أحاديّة الزّجاج.

واصل المحامي على عجلٍ:

- إنّه يبكي، ينشج، يشهق، يتألّم. منذ شهرٍ ونصف، هو رجلٌ آخر. وبالأحرى: إنّه رجل. هو يرغب في لقائك ثانية، سيّدتي. لم يكلّمك منذ ثمانية أسابيع. اقبلي طلبه، أرجوك، سوف تفاجئين.

- لا أعتقد.

- كيف؟

- لا أعتقد أني سأفاجأ. هدفي، عند محاورته، يتمثّل في إيصاله إلى هنا: أن ينخرط في الإنسانيّة.

- أنتِ قدّيسةٌ.

- لم يكن الأمر سهلًا.

- كنتُ راهنتُ على الإخفاق. هل صحيح - معذرةً على فضولي - ولكن... هل صحيح، سيّدتي العزيزة أنّك... غفرت له؟

- أجل.

- رائع!

- أنا مبتهجةٌ. ذلك أسوأ ما بوسعي أن أفعل.

- كيف؟

- أبْلِغْهُ شيئين من قِبَلِي، أستاذ. أبْلِغْهُ أوّلاً أنّي لن أذهب أبدًا لزيارته.

- ولكن...

- وأبلغه ثانيًا، الآن وقد التحق بالإنسانيّة...

فكّرت، تنحنحت وقالت صيغتها بتمهّل:

- مرحبًا بكَ في الجحيم!

وأقفلت الخطّ دون أن تضيفَ عبارةً أخرى.

على العشب، كان الشّحرور يحني رأسه ليفحص الأرض، ويلتقط الحبّ، يتقدّم بقفزات، وكأنّه ليس مكوّنًا من عظام بل من لوالب. منذ أسابيع، استولى على المرج بحسٍّ حادٍّ بالمنطقة، تمامًا كالقطّ من قبله.

أشار سائق التّاكسي إلى حقيبة على العتبة.

- الأخيرة؟

- نعم، شكرًا، شيء من الخنازيريّات لأخواتي.

- أنتظرك في السّيّارة.

ألقت نظرة حولها، كانت الحديقة تزهر، والشّحرورة البنّيّة تغتسل تحت الغار النّخليّ، والقراقف الفحميّة تتجاسر في تقدّمها حتّى الشرفة، ثمّ حملت سلّة أسل على الأرض وقالت وهي تلوّح بالمفتاح:

- وداعا أنسيسهايم! سنستقرّ في باريس. اتّفقنا؟

من جوف السلّة، ردّ القطّ بالموافقة.

أُرْسُمْ لي طائرة

- من فضلكَ، ارْسُم لي طائرة.

التفت فرنر فون بريسلو. فتاةٌ واسعة العينين مكلّلة بشعرٍ أشقر في رقّة الزّغب، تمدّ إليه دفترًا وقلمًا رصاصًا. حدّقت في يدي الرّجل وهي واثقةٌ من سلطتها، متأكّدةٌ من طاعتها.

- كيف دخلتِ إلى حديقتي؟

رفعت رأسها نحوه، وهي متعجّبةٌ من ضرورة النُّطق بمثل هذه البدهيّة:

- تسلّقت الجدار.

- هذا خطير.

- القطّ يفعلها كلّ يوم.

- هذا ممنوع.

- هل يعلم القطّ بذلك؟

كانت تحملق فيه بهدوء، كأنّهما يتقاسمان قرابةً عريقةً؛ بَيْدَ أنّه يتطلّع إليها لأوّل مرّة. توقّعت الأسئلة الّتي تشغل باله فأضافت في ابتسامة رفيقةٍ:

- اسمي دافني، عمري ثماني سنوات وأسكن في الفيلا المجاورة.

- آه...

- كنتَ تجهل ذلك؟

- نعم. منذ متى؟

ردّت عليه بوقارٍ:

- منذ الأبد...

هذا «الأبد» أثار شعورها هي أيضًا.

أضحكت فرنر فون بريسلو هذه الأبديّة المحدّدة في وجودٍ بثماني سنوات، لقد ولد هنا، منذ اثنتين وتسعين سنة خلَت، وأبديّته شارفت القرن.

قطّبت حاجبيها.

- كطيّار، أنتَ لا تلاحظ جيّدًا.

- أين علمتِ أنّي كنتُ طيّارًا؟

- لم تَعُد طيّارًا؟

- تقاعدت.

رمشت جفونها، وبدت غير متأكّدة من إدراك كلمة «تقاعد». قدّر فرنر أنّ من المقرف شرح هذه الحقيقة الكريهة لطفلةٍ، فختم قائلاً:

- عودي إلى بيتك.

- من فضلك، ارسم لي طائرة.

- لا وقت لديّ، أمامي عملٌ ينتظرني.

- كذّاب! أنتَ متقاعد.

نظر إليها بمشاعر مختلطة: عدم مراعاتها يضايقه ولكن ردّها أعجبه، هذه الوقاحة الهادئة، الماكرة أكثر من كونها عدوانيّة. تنهدّ قائلاً:

- لا أحسن الرّسم.

هزّت كتفيها.

- النّاس جميعًا يحسنون الرّسم.

- كلاّ.

- بلى!

- لنقل إنّي أرسم برداءةٍ.

- أنا أرسم بإتقانٍ.

فخورةٌ، لا يعتريها شكّ في هذه النّقطة الأساسيّة، كانت تشترط أن يقرّ بتفوّقها. أيّدها. فأضافت:

- ولو أنّي لا أرسم الطّائرات.

- لماذا تريدين رسم طائرات؟

- لأنّك طيّار.

خَالَ أنّها لم تفهم سؤاله، فجرّب صيغةً أخرى:

- هل تحبّين الطّائرات؟

- وأنت؟

نفد صبره. وضعت يدها الصّغيرة على يده.

- أنتَ حزين حين تنظر إلى السّماء. منذ مدّة، أراك من نافذتي

تتابع الطّائرات، عن بعد، كأنّك تتألّم لأنّك لستَ فيها. بل إنّي اكتشفت ذات مرّة أنّك كنتَ تبكي.

ارتجف. كان يعتبر أنّ هذه الطّفلة برزت من المجهول، بينما كانت هي تراقبه وتحلّله، وتفاجئه في لحظات الاستسلام الّتي كان يخفيها على العالم أجمع. ارتبك، فَوَدَّ لحظة أن يعترف لها بأنّ ما يهرب في الطّائرات الّتي تجوب السّماء هو شبابه، تلك الأعوام الخضر، خفيفة الحركة، الّتي لن تعود أبدًا.

- من فضلك، ارسم لي طائرة.

تفحّص يدها الصّغيرة، الورديّة، الممتلئة، الخالية من العظام، وهي موضوعة على يده الخشنة، المسفوعة بالشّمس، المنمّشة، الهزيلة: يا للأمل في تلك الأصابع المدوّرة! يا للحيويّة! كانت دافني تتموّج متوحّدة مع الرّبيع الّذي يُنهض العشب، يزين الشّجر، يفتّح أزهار الرّياض وينظّف الأوج من غيومه.

تناول الدّفتر، وقرّر تلبية رغبتها. منذ البداية، ارتأى أن يخطّط لرسم ماسرشميت بي إف 100 [1] أو فوك فولف فو [2]190، ولكنّه تذكّر أن ستّين سنة مرّت على نهاية الحرب، فاختار إيرباص أ 320، الطّائرة المتوسّطة المسافات الّتي تحرث اليوم في الغالب سماء بافاريا.

ولكن يا للخيبة، فسنّ الرّصاص لم تُطِعْه، وأصابعه تترنّح

(1) Messerschmitt Bf 110 أو Me 110 : طائرة مطاردة ذات محرّكين استعملها الألمان في الحرب العالمية الثانية.

(2) Focke-Wulf Fw 190: مطاردة وقاذفة قنابل ذات محرّك واحد استعملها الألمان في الحرب العالمية الثانية.

ومعصمه يتراخى، ولم يتوصّل إلاّ إلى خربشة مرتبكةٍ، باهتةٍ، على الورق. حدّقت فيها دافني باحترازٍ:

- مريضةٌ طائرتك. لا نرغب أن نصعد فيها.

ورغم وجاهة الملاحظة، استاء:

- حسنًا، سأرسم لكِ أخرى!

قلب الصّفحة، وفي الصّفحة الموالية، كسر القلم في وسطها. وقدّم لدافني لطخة في خلفية خالية.

- ها هي طائرتك!

- هذه فطيرةٌ محشوّةٌ وليست طائرة.

- هي طائرةٌ في علوٍّ شاهق، ينظر إليها من أسفل.

تلاعبت بذقنها.

- لو أُري أمّي هذه الصّورة، فسوف تصرخ في وجهي أنّي لم أتعب، وسوف تسخر منّي.

«ولن تكون مخطئةً»، استخلص فرنر. عندئذٍ تناول صفحةً فارغةً. وبحركةٍ، سطر خطًّا طويلاً دون أن يرتعد.

ابتسمت وضربت كفًّا بكفّ.

- أوه هذه، أعشقها!

- هل عرفت؟ قال مستغربًا.

- طبعًا! طائرة تشقّ السّماء. أرأيت أنّك تقدر حين ترسم بعناية...

قَبِلَ التّأنيب، وابتسم بدوره.

لقفت الدّفتر، ورسمت خطًّا على صفحةٍ جديدة.

- ها إنّي أعرف كيف أرسم طائرة. شكرًا.

شملها ارتياح، فاندفعت نحو الجدار الفاصل مدندنةً وأمتعتها تحت ذراعها اليسرى، فشدّت بيدها اليمنى فرع شجرة كرز، وصعدت عليه، ثمّ تشبّثت بفرعٍ ثانٍ... ارتعب فرنر، فأسرع نحوها رغم جسده المقسوط، وعرض عليها حملها.

- دعيني أساعدك!

ندّ عنها ضحك متقطّع حين أمسك فخذيها الصّقيلين ودفعها نحو القرميد الّذي يعلو الجدار.

- لا حقّ لكَ في مساعدتي على التّسلّق: هذا ممنوع!

- من قال إنّه ممنوع؟

- أنت.

أنكر بهزّةٍ من رأسه وأضاف:

- فرنر، الطيّار العجوز الّذي يهذر أحيانًا؟

عبر حدقتي دافني وميض فرحةٍ عارمةٍ. فأدّى لها التّحيّة بانحناءةٍ.

- عودي متى شئتِ، يا أميرة.

- حسنًا. هكذا، أنتَ تتقدّم.

- أنا، أتقدّم؟

- في الرّسم. لا تحسب نفسك بطلاً، على أيّ حال! أنا أشجّعك كي تتحسّن، لا للتوقّف.

انفجرت ضاحكةً، وانحدرت من النّاحية الأخرى، وتوارت.

تحت أغصان الشّجرة، أصغى فرنر فون بريسلو طويلاً لضحكتها اللّؤلئيّة[1]، السّائلة، وهي تتناءى كلّما اقتربت من مسكنها إلى أن ذابت في زقزقة القراقف، وهديل الحمام، وشدو الشّحارير، مثل قطيرات زبد يبتلعها البحر.

***

- هنا، بابا، ينبغي أن تشرح لي، لأنّي لا أفهم!

نفض جوشن فون بريسلو الرّسالة. صاح في أبيه ووجهه محتقنٌ بالغضب، وعيناه مرتعبتان، وذقنه مختلج، ومنخران متقبّضان.

- لماذا؟ لماذا!

نكس فرنر فون بريسلو رأسه. كان لا بدّ أن نتوقّع ما هو أخطر، لأنّه لا يخيب أبدًا. كان يخشى منذ عشرات السّنين أن تطفو هذه الحكاية على السّطح. وهذا ما حصل، فقذيفةُ نهايةِ العالمِ اليدويّةُ انفجرت.

ألقى جوشن بالورقة على الطّاولة، أعاد قراءتها وصفعها بظاهر يده.

- أنت عضوٌ في مجموعة من النّازيّين الجدد!

- لا...

- أنتَ تنتمي إلى خليّة نازيّين جدد! هذا مدوّنٌ أسود على أبيض.

- نعم، ولكن...

- منذ 1952. بعد مولدي مباشرة.

(1) أي الّتي تحوي أصواتًا كلُّ نغمٍ فيها يصدر بصفاء مخصوص.

كان جوشن يذرع الصّالون، ويركل الجدران، والأثاث، والأبواب. استبدّ به الحنق. طوال قرن من الزّمان، لم يُصَب البيت العائليّ بمثل هذا العنف. كانت التّحف الصّغيرة تتساقط، والأرضيّة تهتزّ، والجدران الفاصلة تتلقّى الصّدمات. وفرنر لا يحرّك ساكنًا، وهو يدرك أنّ ابنه يضرب كلّ ما حوله لكي يمنع نفسه من ضرب أبيه.

- ألم تتعلّم شيئًا يا أبي؟ ألم تعِ ما يحدث في البلاد بعد 1945؟ العار. العار المطلق. العار بسبب ارتكاب الفظيعة. أفليس عندك وعي؟

اندفع نحو أبيه فأغمض العجوز غريزيًّا عينيه وهو يحمي وجهه بساعديه. وأمام تلك الحركة الجبانة، بيّض زبدُ احتقارٍ شفتَيْ جوشن. عبس.

- كذبت عليّ طوال حياتك.

- جوشن...

- لطالما قلتَ لي إنّك لم تكن تؤيّد هتلر، وهذيانه العنصريّ، وأيديولوجيّته الفاشيّة. لطالما قلتَ لي إنّك تمقت معاداة السّاميّة، وتنبذ كراهيّة الشّيوعيّة، وإنّك لا تعتبر نفسك عضوًا لعِرق أسمى. لطالما قلتَ لي إنّك قاتلتَ مكرهًا، لا عن قناعةٍ، لأنّك تنتمي إلى أمّةٍ في حالة حرب.

- تلك هي الحقيقة.

- أكدّت لي أنّك حاربتَ بوصفك ألمانيًّا، وليس بوصفك نازيًّا!

- بالضّبط.

- وأكتشفُ أنّك تابعٌ لمجموعة نازيّين جدد! اليوم! بعد ستّين سنة، ما زلت تخالط أوغادًا كهؤلاء؟

- جوشن، أنتَ لا تفهم...

- لا، لا أفهم! ولا أقبل! الأرض تنهار تحت قدميّ. نشأت وفي البال أنّ أبي يمثّل النّزاهة؛ صحيح أنّه قاتل طيلة خمس سنوات، ولكنّه كان يخدم وطنه، لا هتلر. حسبت أبي فاضلاً، مستقيمًا، خلوًّا من التّعاطف مع الوضاعة. في الواقع، نظرت إليك كضحيّة! ضحيّة الواجب الّذي تشبّعت به، ضحيّة الوطنيّة، ضحيّة دكتاتورٍ دمويٍّ يُرغم شعبه. إلاّ أني أكتشفُ أنّ الضحيّة تخفي جلاّدًا!

بدل أن يدافع فرنر عن نفسه، هزّ رأسه مؤيّدًا وهو على يقين من أنّ ابنه يفكّر تفكيرًا سليمًا. فقط...

- خدعتني يا أبي. بالكيفيّة الأكثر دناءةٍ.

كان وجهه يرتعد تقزّزًا. وجّه إصبعه نحو أبيه.

- لو كنتَ نازيًّا لغفرت لك. كنتَ عندها ارتكبتَ خطأً لا خطيئة. لم لا، على أيّ حال؟ كلّ امرئ يخطئ. أكرّر على مسامع الشّبّان الّذين يحاكمون الماضي أنّ من التّبسيط أن نُدين بمفعولٍ رجعيّ. أنا نفسي، أجهل كيف كنتُ سأتصرّف لو كنتُ في سنّك وفي زمنك. نعم يا بابا، كنتُ سأغفر لك لو انخرطت في النّازيّة. ولكن أن تبقى على ذلك اليوم! اليوم!

- اهدأ يا جوشن.

- كلاّ! اليوم هو أمرٌ لا يُغتفر.

- جوشن...

كان فرنر، وهو يرتعد ويتفصّد عرقًا، يعيب على نفسه بطء تفكيره وتركه ابنه يبلغ ذروة السّخط. من أيّ طرفٍ يمسك المسألة؟ بأيّ كيفيّة يروي له؟ هل سيفهمها جوشن؟

- زِدْ على ذلك أنّ الأمر لو شاع فسوف تشوّه سمعتك، ولكن سمعة أسرتك أيضًا! أنتَ تنشر علينا الخزي! أنا، زوجتي، أبنائي، أحفادك، بنات أحفادك! أسرة فون بريلسو، تلك آخر السّلالة النّازيّة!

نهض العجوز. كفى! لا بدّ أن يتدخّل، أن...

سوّد حجابٌ رؤية فرنر فون بريسلو. وفي أقلّ من ثانية، أغمي عليه وارتطم رأسه بالأرضيّة.

***

في الحديقة، ثمّة أشهرٌ شحيحةٌ وأشهرٌ سخيّة. دشّن أبريل هذه المرحلة الكريمة، فالجهد المبذول طوال العام يُؤتي ثماره وأزهاره وأوراقه. وتكافئ الأرض من أظهر لها الوفاء طيلة الخريف والشّتاء.

كان فرنر فون بريسلو مبتهجًا أمام مجتمعه النّباتيّ. وأزهار الرّبيع البسيطة، المتواضعة، العديدة تتفتّح هنا وهناك. بورجوازيّةً، متكبّرةً، كانت الزّنابق الصّفراء، والمرجانيّة، والفوشيا، والخبازيّة، والبنفسجيّة، والزنزولين تبدي أرديةَ حفلها، مخفورةً بأزهار الأنيمون الخبازيّة ذات القلب المذهّب. أرستقراطيّة، ثمّة زهرةٌ منعزلةٌ على شجيرة الكاميليا،

أنفس من سواها لكونها تحكم وحيدة، جوهرة تقوم الأوراق الصّقيلة فيها مقام عليبة الحلي. وأغصان الرودودندرون، متأخّرة ولكن رعناء، ترفع براعم واعدة، بينما تنبعث الوستاريا من الجدار، مثل شبح يغادر قبره، تائقة إلى نزع حجارة أكثر من العام الماضي.

دفع عنه حشرة كانت تشاكس قلانس النّرجس.

- أنت لا تسيء حتّى إلى ذبابة، هتفت دافني، وهي مستلقية على العشب حذوه.

تذكر فرنر مواجهته الأخيرة مع ابنه فامتنع عن التعليق. مثني الجذع، واطئ الكتفين، جلس على كرسي بلا ظهر ليقتلع الهندباء من الصّخر، إذ صار يخشى منذ غشيته تغيير الجلسة. حان الوقت، وهو في الثّانية والتّسعين، أن يدّخر قواه!

رفعت دافني رأسها باتّجاهه.

- نزلتَ من السّماء في طائرة أم كنت تسكن من قبل على البرّ؟

- الطّائرات مصنوعة على البرّ يا دافني.

- كلّها؟

- كلّ الطّائرات صنعت على هذه الأرض لكي تغادرها.

- كنت سأظنّ العكس. أنّها جاءت من الأعلى وسوف تعود إليه.

- هي لا تصعد حتّى النّجومِ يا دافني. لا تخلطي بين الطّائرات والصّواريخ. أنا مثلاً، في طائرتي، أطير على ارتفاع عشرة آلاف متر.

حاولت دافني أن تتصوّر «العشرة آلاف متر» ولم تقدر، فساعدها:

- عشرة آلاف متر معناها أنّ الحقول تتحوّل إلى مناديل، والأودية تتقلّص إلى خيط، والأنهار إلى شريط أزرق، والقرى تنحسر فلا نرى عندها البشر.

- البشر يختفون؟

- نعم.

- حتّى إن وقفت في وسط الطّريق وأرسلت نحوك إشارات كبرى؟

أومأ مؤكّدًا.

انخذلت شفتا دافني من فرط الذّهول.

- أوه، لا أدري إن كان هذا سيعجبني... المهمّ، أنّك من فوق، ترقب النّجوم أو القمر.

- أبدًا. الكواكب تقيم بعيدًا جدًّا.

- هذا يصيبني بالخيبة! عندما كنت تسافر، كنت ترى الأرض بدرجة أقلّ ولا ترى النّجوم أو القمر بأكثر منها؟

- بالضّبط.

- لماذا كنتَ تقوم بذلك إذن؟

- لأطير!

شعّ وجهها فابتسمت بحماس.

- هنا، أفهمك. في أحلامي غالبًا ما كنت أطير.

قامت على رجليها ومدت ذراعيها، وبعد أن تحوّلت إلى طائرة راحت تستكشف الحديقة وهي تصدر من فمها صوتَ محرّكٍ خفيفًا. عند رؤيتها، تذكّر اجتهاده في طفولته، في تلك السّاعات الّتي قضّاها بالفصل يتعلّم، ويعيد، ويستظهر تحت إمرة مدرّسين صارمين، في تلك الأنهر المكفهرّة، الرّماديّة، الكئيبة، المنهكة، المديدة بشكلٍ لا ينتهي، حيث تمنحه فجأةً رؤية عصفورٍ يرفرف خلف النّافذة وسط السّماء الطّاقةَ على المواصلة. كان يبدو له دومًا أنّه سوف يفوز بحريّته، وأنّه يستحقّها، وأنّه ذات صباحٍ مرحٍ، سوف يبلغها بفضل عمله: سوف يحلّق كالعصفور... ولكن يا لخيبته، فلئن قاد، بعد دراساتٍ عسكريّة، طائرات، وجنى من ذلك متعةً، فإنه لم يذق قطّ طعم الاستقلال! حرّ؟ كان ينبغي أن يمتّن جسده بارتداء ثلاث طبقات من الملابس، ويثقل رأسه بخوذةٍ تضغط على الجمجمة كلّما ازداد علوًّا، لأنّ الارتفاع ينفخ الرأس، ويتحزّم بمظلّةٍ ثقيلة في الظّهر، ويرتدي قفّازات يابسة، ويربط نفسه إلى الطّائرة، عن طريق أنبوب يمكنه من تنفّس الأوكسجين. حرّ؟ مجال الرّؤية يختصر في لوحة القيادة. حرّ؟ لم يكن يصعد إلى طائرة إلاّ لإنجاز مهمّة. حرّ؟ كان يتبع المسلك الّذي يرسم له على البرّ. حرّ؟ لم تكن الطّائرة تُطيع الطيّار، كان الطّيار يُطيع الطّائرة، المستنفرة لألف خطّة، فهو عبد للوحة المدرّجة، ومقابض القيادة، والأزرار، والرّافعات، والدوّاسات، والأنابيب، والكبلات. حرّ؟ ما إن بدأ القيادة حتّى اندلعت الحرب: كان يقوم بدوريّات، والخوف يعتصر أمعاءه، لكي يَقتل ويحاذر ألاّ يُقتَل.

حرّ؟ متى؟

انتصبت دافني أمامه.

- هل تُحسن القراءة؟

لم يستطع منع نفسه من التّبسّم.

- بطبيعة الحال، أحسنُ القراءة.

- بطبيعة الحال؟

- النّاس في عمري يُحسنون القراءة.

- كم عمرك؟

خيّرَ أن يتباهى:

- مائة عام.

وثبت ظافرة.

- كسبت الرّهان! قلت «مائة» لأمّي الّتي تحسب أنّك أصغر سنًّا.

هدأت.

- لاحظْ أنّه أمرٌ عاديّ أن تخطئ: هي لَمْ تَرَكَ عن قربٍ مثلي.

أشارت إلى شبكة الغضون الّتي تغطّي وجه فرنر. استاء لتفاخرها وعاد إلى الموضوع:

- هل تريدين أن أقرأ لكِ شيئا مّا؟

أدّت دافني حركات رياضيّة كيفما اتّفق، فدارت حول نفسها، وانثنت، وتنهّدت، وتمطّطت، وانحنت، وقامت؛ بلغت هدفها

وهي محمرّة لشدّة حبس أنفاسها، وناولت فرنر كتابًا حملته معها على ظهرها، كانت تصرّه في ثيابها عند تسلّق الجدار.

- ها هو.

تناوله فرنر.

- أتعرفه؟ سألت دافني.

الأمير الصغير لأنطوان دو سانت إكزوبيري.

هزّ فرنر رأسه بالنّفي وغمغم:

- تعالي، لنجلس في الظلّ.

جرّ كرسيّه تحت الزيزفونة، عدّل نظّارته وفتح الكتاب.

استلقت دافني بجانبه، تصغي باهتمام.

بدأ القراءة:

- «عشتُ وحيدًا، دون أن يكون لي شخصٌ أتحدّث إليه بحقّ، إلى أن حصل عطبٌ في خلاء الصّحراء الكبرى...»

***

صارت دافني تأتي للقاء فرنر كلّ يوم. إذا كان الطقس جميلاً، قضّيا الوقت في أعمال الحديقة؛ وإذا كان رديئًا قرأ لها فرنر **الأمير الصغير**.

فاجأه أن يشدّه الكتاب. أوّلاً، الكاتب امتهن حرفة طيّارٍ، مثله هو، في مرحلة مماثلةٍ. ثانيًا، الحكاية تثير وجدانه وتدفعه إلى التّفكير. لذلك ما إن نطق كلماته الأخيرة واقترحت عليه دافني باكيةً أن يعيد قراءته حتّى استجاب.

كانا قد قرآ الكتاب ثلاث مرّات، وكان فرنر يستعدّ لقراءة رابعةٍ...

لم يكن فرنر، بوصفه رجلاً عمليًّا براغماتيًّا، يخصّص وقتًا لقراءة الرّوايات. لم الاهتمام بالمزوّر؟ كان يسخط على الّذين يغرقون في أنسجة تلك البدع. فقد تعوّد على ملء ذهنه بتشغيل يديه، فقام بأعمال يدويّة كثيرة وأعمالِ بَسْتَنَةٍ عديدة خلال أوقات الفراغ الّتي ينتفع بها من عمله في وزارة النّقل، ولمّا أزف التّقاعد، سرّح خادم بيته. وبذلك ظلّت أيامه ملآنة، متنوّعة، مرهقة. وعندما يعتريه إرهاق، ويصير غير قادرٍ على القيام بمهمّةٍ إضافيّة، يقصد صالونه، ويتهالك على الكنبة فيسمع الموسيقى. باخ، سكارلاتّي، موزارت، شوبرت، مندلسون، شوبان، شومان، براهمز، رافيل، شوستاكوفيتش، أولئك هم خيرة أصدقائه، رفاق قيلولته، خلاّن ليله، الّذين صانوه من السّأم.

كانت دافني تأنف من أيّ كتاب عدا **الأمير الصغير**. «لم لا؟ فكّر فرنر. ألم أتلذّذ بسماع **سيمفونية على الصول مينور** لموزارت نحو مائة مرّة؟ العمل يكون ثريًّا إذا وفّر المتعة عند كلّ سماع. لا شيء يُنضب الأعمال الجليلة».

الأمير الصغير يندرج دون أدنى شكٍّ ضمن هذ الرّفّ. مثل دافني، كان فرنر يضحك عندما يصادف الأمير الصغير شخصيّاتٍ غريبةً، المصرفي الّذي يكدّس الذّهب ولا يستغلّه، عالم الجغرافيا الّذي يجرّد الكون ولكنّه لا يسافر، المزهوّ بنفسه الّذي يحيّي أبدًا، الملك الّذي يحكم بلا رعيّة، السّكّير الّذي يشرب كي ينسى أنّه يشرب. مثلها هي كان يخاف الثّعبان الّذي ينفث سمُّه الموتَ، ويرقّ عندما يألف الثّعلب

والطّفل بعضهما بعضًا. خلافه مع دافني يخصّ الوردة. دافني كانت تشجب تلك الظّريفة التّافهة الّتي تخفق في قبول حبّ الأمير الصّغير أو منحه حبّها. «هي، أكرهها!» كانت تهتف كلّ مرّةٍ. كان فرنر الّذي يؤثر الصّمت، يقدّر، وبسمة تسامحٍ على وجهه، أنّ الكاتب عبّر بشكلٍ جيّدٍ عن سوء التّفاهم الأزليّ بين الرّجال والنّساء ذاك الّذي نسمّيه الحبّ. ولكن هذا، سوف تدركه دافني في ما بعد، في زمنها. مثله هو...

رنّ الجرس.

نزلت دافني من الكنبة حيث كانت تتمرّغ وهي تستمع إلى الحكاية، وأسرعت حتّى المدخل. سمعها فرنر وهي تفتح الباب، وتتحدّث مع صوت رجلٍ، ثمّ ظهرت.

- سيّدٌ عجوزٌ يطلبك.

- هل قال لك اسمه؟

- لا، كان يريدُ معرفة اسمي.

في تلك اللّحظة اجتاز جوشن عتبة الصّالون.

- طلبتَ مجيئي، ها أنذا، قال مزمجرًا.

ارتجف فرنر.

- اجلس، سأعود.

نهض وأمسك دافني من يدها، واعتذر لقطع القراءة، نزل إلى الحديقة، ساعد الطّفلة على تسلّق الجدار الفاصل عند مستوى شجرة الكرز المزهرة ووعدها بأن يصفّر ثلاث مرّات عند انتهاء موعده.

- ليس ليّن الطبع، هذا السيّد، فيما يبدو. من يكون؟

- ابني.

- ليس مسليًّا أن تجيبني بأيّ كلام، غمغمت دافني وهي تتوارى خلف الجدار.

التحق فرنر بجوشن وكان في انتظاره، منتفشًا، متكلّفًا على الشّرفة المطلة على الحديقة.

- صرتَ تحبّ الأطفال الآن!

- عفوًا؟ تمتم فرنر.

- لم ألاحظ سابقًا أنّك تحبّ الأطفال. لم تخصّص لي وقتًا البتَّةَ، ولا لأحفادك أيضًا.

أدرك فرنر أنّ جوشن يقول الحقّ.

دافني اختطفته. رغم جَهْلِهِ بأنّه «لا يحبّ الأطفال»، فإنّه يحبّ هذه الطّفلة، عن يقين. توقّع ألم جوشن لو يكشف له عن هذا الخاطر، فلاذ بالصّمت حتّى الصّالون.

قال جوشن ساخرًا وهو يقيس العجوز:

- حقيقةً، أنتَ تُذهلني. في الخير والشرّ.

- لا...

- كان يمكن أن أحوّل نفسي عنه، صدّقني!

أحسّ فرنر أنّ ابنه ينساق إلى موجة ألمٍ جديدة، فجهد في شرح موقفه:

- جوشن، أنا مدينٌ لكَ ببعض الإيضاحات. منذ وعكتي، لم

نلتقِ، لأنّك كلّفت زوجتك بعلاجي والسّؤال عن صحّتي. أشكرك على ذلك. وهذا كشف لي أيضًا أنّك تلومني إلى حدّ الفرار منّي.

- أتجنّبك. كنتُ أتصوّر أبًا محدّدًا، فحصلتُ على آخر.

- جوشن، أنا لا أنتمي إلى هذا الحزب النّازيّ الجديد.

- البريد الّذي تلقّيتُه يشهد على انخراطك. أنتَ تدفع معلوم اشتراك منذ 1952. لهذا السّبب اكتشفتُ سرّك القذر: بما أنّك لم تسدّد المعلوم الأخير، اتّصل بي الكاتب العام ليسألني إن كنتَ توفّيت. تصوّر صَدْمَتي!

- أنا أندّد بهم. لا أشاركهم حنينهم ولا انتظاراتهم. أكره النّازيّة، وأكره أكثر منها النّازيّة الجديدة.

- تنكر ما يدّعون؟ انخراطك؟ اشتراكاتك؟

- لا.

- ماذا إذن؟

- بسبب الطّائرة.

ظلّ جوشن مبهوتًا.

- الطّائرة؟

- طائرتي.

سكتا. تغيّر لون جوشن. وإن لم يكن فهم، فقد تراءى له أمل، فتسلّل نحو هذا الأفق. بدأت الثّقة تعود إليه؛ لعلّه يستعيد الأب الّذي يجلّه. تزعزع فرنر وهو يرى مقدار مكانته عند ابنه.

- أثناء الحرب، بعد أن استعملت ماسرشميت بي إف 110، كنت أقود فوك فولف فو 190، وهي مطاردةٌ قاذفةٌ ذات مقعدٍ واحدٍ ومحرّكٍ واحدٍ، إنّها جوهرة تكنولوجيّة. رسميًّا، غرقت الطّائرة في بحر البلطيق، وقفزت أنا بالمظلّة على الشّاطئ في الوقت المناسب. ولكن في الحقيقة، لم تتلف الطّائرة، أنا...

- نعم يا أبي؟

- أنا أخفَيْتُها.

كيف يبرّر حركته؟ كيف يصف المشاعر الّتي كان يخصّ بها خليطًا من الحديد والألمنيوم والكبلات؟ لقد كانت طائرته الفوك فولف فو 190 بمثابة جواده طيلة ثلاث سنوات. وإذا استطعنا أن نفهم تعلّق فارسٍ بجواده، فإنّنا لا نفهم جيّدًا تعلّق طيّارٍ بمركبةٍ ليس لها حسٌّ ولا روحٌ ولا حتّى مضغةٌ من ذكاء، رغم أنّ هذه الصّفيحة أبدت شجاعة في الدّفاع عنه، وجُرحت من أجله، وحمته من طلق الرّصاص. متوتّرة، حانقة، وفيّة، كانت تحمل ندوبه. كانت رفيقة وحدته، فائدته، الشّكل المرئيّ لإقدامه، حظّه، تميمته.

- عند نهاية الحرب، حين وقّع الأميرال دونيتز، خلف هتلر، في رانس على هزيمة ألمانيا، كنتُ أقاتل في الجبهة الشّرقيّة، ضدّ السّوفييت. في بداية مايو 1945 ذاك، أدركت أمرين: خسر بلدي، ونجوت أنا. وفي ذلك الصّباح، 9 مايو، تأمّلت طائرتي: المنتصرون قد يسحقون كلّ شيء، يدمّرون كلّ علائم محنتهم خلال النّزاع، لا سيّما الرّوس. عندئذٍ رسمتُ خطّتي ونفّذتها في ظرف بضع ساعات. لقد غَشَشت.

- أنت؟

- أخفيتُ طائرتي في غابة، قرب روستوك، قرب حقلٍ مكّنني من النّزول. ركنتها في إسطبل، ودفعت مالاً لصاحب الضّيعة، ثمّ قصدت المنحدر الصّخريّ، وهو مكانٌ مهجورٌ، بعيدًا عن شهود عيان. هناك، أخرجت مظلّتي، وبسطتها على العشب كأنّي استعملتها، وأحرقتُ ومزّقتُ ثيابي، أصبتُ بالتواءٍ في كاحلي، استلقيتُ ونمتُ ليلتي تحت النّجوم. في صباح الغد، لاحظني مزارع فرَوَيْتُ له حادثي المزعوم: الطّائرة أصابها الرّوس فتحطّمت على الأمواج، وقفزت على السّاحل. في ذلك الوقت، لم يكن يفتَّش عن الحطام في أعماق الماء، كان ثمّة ما هو أولى بالاهتمام.

- المطاردة القاذفة لم تكن ملكك.

- كانت طائرتي... بالنّسبة إلى الألمان والحلفاء، طائرةٌ ناقصة أو زائدة، لا يحسب لها حساب! أما بالنّسبة إليّ، فذلك يكتسي أهمّيّة.

أومأ جوشن، وقد اندهش لعفويّة أبيه.

- أيّ علاقة مع النّازيّين الجدد يا أبي؟

تنهّد فرنر.

- مرّت الأعوام. كنتُ أرسلُ كلّ شهرٍ بعض المال إلى شريكي في الخدعة، صاحب الضّيعة، كنتُ أدفع له مقابل مستودعي في وجه من الوجوه... لسوء الحظّ، أعلمني ذات يومٍ أنّه سيبيع

ضيعته وأنّي مطالبٌ بالبحث عن مخبإ آخر. لم يبق لي سوى وقت قصير كي أتصرّف. كان النّازيّون الجدد قد جاؤوا إلى التّاريخ.

استعان بالماء المعدنيّ الغازيّ لأنّ ذكرياته جفّفت ريقه.

- علمت أنّ متنوّرين يرومون الثّأر يعيشون على عبادة الرايخ الثّالث. هم يطمحون إلى إنقاذ النّظريّة الهتلريّة وأشياء عظمته من النّسيان. بعضهم كان يجمع الأسلحة. اقتربت من أحدهم، مارت مولّر، عضو سابق بسريّة الحماية[1] ببوخنفالد وحدّثته عن طائرتي.

شرب مرّةً ثانيةً.

- قبل في الحال ووعدني بتنظيم نقلها ليلًا بطريقةٍ سرّيّةٍ. تلقّيت تأكيدًا بأنّ طائرتي ستعيش، ويعتنى بها، فتؤنَّق وتُعبَد، ويتولّى ميكانيكيّ ينتمي إلى التّنظيم فحصها بانتظام. في الحقيقة، لم أبايعهم: في تصوّرهم، من البداهة أنّي أفكّر مثلهم. وللمشاركة في المصاريف، انخرطت في الحزب ودفعت معلوم اشتراكي، وفي ذهني أنّي إنّما أسدّد ثمن المرآب.

نظر فرنر إلى جوشن. قدّر وهو يكشف سرّه أنّه تافهٌ أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لكم كان ابنه محقًّا في صدّه! يعرّض سمعته للشّبهة، يساعد أولئك المجانين، يبرّر لهم ويدعمهم، كلّ ذلك من أجل كوم من الخردة!

ارتمى جوشن في حضن أبيه.

---

(1) Schutzstaffel أهمّ التّنظيمات النازيّة وتُـخْتصرَ في الحرفين SS اللّذيْن يمثّلان شعارها.

- شكرًا! استعدتك يا أبي: أنت فعلاً من أؤمن به.

ارتعد فرنر من شدّة الخجل.

- غباءٌ ما فعلت.

- غباءٌ، ولكن ليس نازيًّا.

* * *

طوال الأصيل، كان حديث دافني وفرنر عن الثّعلب. ليس الثّعلب الحقيقيّ ذا الأسنان المدبّبة، النّتن، الضارّ، الّذي قد يعيث في الحديقة فسادًا لافتراس العصافير، بل الثّعلب الّذي يقيم في الكتاب الرّائع لسانت إكزوبيري.

كانت دافني تعتبر أنّ الثّعلب آلف الطّفل خطأً.

- سوف يبكي عندما يرحل الأمير الصّغير. سيحسّ أنّه وحيد. إن لم يحرص على أن يصبح صديق الأمير الصّغير، فلن يضير الثّعلب شيئًا.

ردّ فرنر:

- أن يكون المرء شقيًّا، فتلك كيفيّة حبّ.

- أنتَ تمزح؟

- فقدتُ إيفا، زوجتي، قبل ثلاثين عامًا، وما زلت أشعر بالحزن. الحزن بمعرفة أنّها لا تغنم الحياة. الحزن بملاحظة مدى اشتياقي إليها.

- لم تشفَ؟

- لا ينبغي.

- ماذا؟

- جرحي يعجبني.

- ماذا؟

- أُدَلِّل حزني وأستمسك به. لو زال لأصبحت شقيًّا.

- ولكنّك شقيّ الآن!

- ليس بالكيفيّة نفسها. ثمّة شقاءٌ دافئ وشقاءٌ باردٌ. الدّافئ هو عندما تحبّ. والبارد عندما لا تحبّ. في الدّافئ، ثمّة شخص. وفي البارد، لا أحد. أن أتألّم لغياب إيفا يجعلها حاضرةً لديّ. وأن أكفّ عن الألم يفنيها مرّةً ثانيةً، ويغيّبها نهائيًّا.

- ومع ذلك... كان يستحسن أن تكون دومًا هنا.

- طبعًا. ولكن لا أحد يكون «دومًا هنا».

- بلى! أنا وأنت.

داعب خدّ الطفلة النّاعم نعومة خوخة.

- عمري أربعة وتسعون عامًا يا دافني: لن أكون «دومًا هنا».

- بجدّ؟

- بكلّ تأكيد! ما كان لك أن تألفيني...

غطّى الجدّ ملامح دافني فنظرت إلى الأرض.

- عندما ترحل، سأنظر إلى الحديقة وأفكّر فيك؛ سأنظر إلى السّماء وأفكّر فيك. لن تكون هنا، حيث تُرى، ولكن ستكون في كلّ مكان، حيث لا تُرى.

ضمّ فرنر دافني إليه، وظلاّ كذلك تحت الزّيزفونة السّكّريّة، جالسَيْن على العشب، مستسلمين لسعادة الوجود الصّافية. لكم كان سيتلذّذ طويلًا بصحبة هذا الكائن الصّغير! سوء الشيخوخة، ليس سوى ذاك، هذا المنع، هذا القطع، هذا الصّدع الّذي سيحدث قريبًا.

طرد الكآبة وأعلمها:

- سأحضر هذا المساء محاضرةً عن رفيق الأمير الصّغير.

- الطّيّار؟

- أنطوان دو سانت إكزوبيري. لا أعرف شيئًا عنه. في بيت الأدب، وسط المدينة، سيتولّى كاتبٌ برلينيّ رسم حياته. عثرت على الخبر في الجريدة.

- تأخذني؟

- المحاضرة تبدأ في التّاسعة ليلاً.

- عندما أنام؟ خسارة...

- سأركّز هذا المساء كي أعيدَ عليكِ كلّ شيء غدًا.

وافقته دافني في نوعٍ من العجب.

فرنر أيضًا كان يتعجّب من مسعاه: لم تطأ قدماه قطّ فضاءً ثقافيًّا. كان بيت الأدب ينتمي إلى عالم غير عالمه. ولو أنّه لم يكتشف هذا الكتاب، **الأمير الصّغير**، لما دفع بابه أبدًا.

في ذلك المساء، وهو جالس في الصّفّ الأوّل بقاعةٍ ممتلئةٍ، استمع إلى المحاضر يسرد حياة الكاتب المجيد. استغرب مفتونًا من بعض التّشابه معه: أنطوان دو سانت إكزوبيري ينحدر من أسرة نبيلةٍ وكان

فقد أباه وهو صغير. تفاخر بكونه نجح في ما أخفق فيه أنطوان دو سانت إكزوبيري: المدرسة الحربيّة. ثمّ تقاسم بأخوّة ولعه بالطّيران وتحمّس للبدايات المهنيّة لذلك الّذي اشتغل في البريد الجويّ. وحرصًا على تجسيم أقواله، كان المحاضر يستشهد بمقتطفات من رحلة جويّة ليليّة وبريد الجنوب روايتيه الأوليَين، وفي كلّ مرّة، وكصدى حميم لما يصوّره الكاتب المغامر، يَعد فرنر نفسه بشرائهما.

أخيرًا، وصلنا إلى الحرب. هنا أيضًا، قاس فرنر الفروق بينه وبين سانت إكزوبيري. لم يطر الفرنسي سوى بضع ساعات في وحدةٍ جويّةٍ فرنسيّةٍ عام 1940، لأنّ الهدنة، الّتي أكدّت الهزيمة، تمّ توقيعها. قصد نيو يورك حيث حاول طيلة سنوات الحصول على التّدخّل الأمريكيّ في النّزاع ولم يعاود الطّيران إلاّ في ربيع 1944، مع المقاومين، في سردينيا ثمّ في كورسيكا.

تبسّم فرنر لذكر تلك اللّحظات. كان يعرف مسرح هذه المعارك إذ كان يجوبها خلال تلك الفترة. عندما ذكر المحاضر أنّ سانت إكزوبيري كان يقود لوكهيد بي38 - لايتنغ[1]، تذكّر أنّه صادف تلك المطاردات الأمريكيّة الرّائعة الّتي كان الألمان يسمّونها «الشّيطان ذا الذّيل المفرّع».

أنهى المحاضر مداخلته بذكر «موته الغامض». كان سانت إكزوبيري قد غرق في البحر، مع طائرته، لوكهيد بي38 - لايتنغ، خلال مهمّة استطلاعٍ فوتوغرافيّ بين باستيا وشامبيري، يوم 31 يوليو 1944. ولمدّةٍ

(1) Lockheed P-38 Lightning: طائرة هجوميّة أمريكيّة استعملها الأمريكان في الحرب ضد النازيّين واليابانيّين.

طويلةٍ لم يعرف أحدٌ كيف حدث ذلك، حتّى تمكّن غوّاصون عام 2000 من استعادة سواره وبعض قطع من حجرة الطّيّار في عرض مرسيليا.

امتقع وجه فرنر.

- في عرض مرسيليا؟ صاح.

انكبّ المحاضر على ملفّاته وأجاب:

- باتّجاه جزيرة ريو، قبالة الجون الصّخريّ.

ارتجف فرنر، بَيْدَ أنّه واصل الاستفسار:

- أيّ طائرةٍ أصابته؟

- جاء في شهادة لأحد السّكّان المجاورين كان أدلى بها عام 1950 أنّ الطائرة هي فوك فولف فو 190.

تذكّر فرنر ذلك جيّدًا: غير بعيدٍ عن مرسيليا، كان قد أسقط طائرة لوكهيد بي38- لايتنغ في 31 يوليو 1944، عيد ميلاد إيفا. قبل أن يغمى عليه، وجد متّسعًا من الوقت كي يقول:

- لا...

* * *

لزم الفراش أسبوعًا. كان ابنه جوشن يجيئه بأطباقٍ تطبخها زوجته، بينما كانت دافني تأتي كلّ أصيل لتجالسه. لم يستطع أن يرفض الخادم الّتي أوصتها بها أسرته، بسبب وعكاته المتكرّرة؛ وها إنّه يتحمّل الآن وجود ماريا مَغدَلينا، تلك الشّوابية[1] مهشّمة الأشياء، الصّاخبة، الّتي تنثر عند مرورها ريح لبنٍ خاثر، وهي تتولّى التّمريض أيضًا.

(1) Souabe: من إقليم شفابن Schwaben في بافاريا.

بدا له أنّه صار عجوزًا.

هل يتحدّث عن ذلك؟ ولمن؟

هل يحرّر اعترافًا للصّحافة؟

هل يبوح لابنه بأنّه حطّم واحدًا من كتّاب القرن الكبار؟

هل يعترف لدافني أنّه قتل كاتبها المفضّل؟ كاتبهما المفضّل؟

كان لا يني يعود إلى ذلك اليوم، إلى مهمّته، إلى تحليقه على السّاحل، عندما أبصر، تحته، مطاردة أمريكيّة. أطلق النّار في الحال، بدقّةٍ متناهية، سقطت إثرها البي 38 لايتنغ رأسًا في الماء. لم يدم ذلك سوى بضع ثوان. كان عملاً أنيقًا. وبخفقة جناح بعدها، لم يعد فرنر يفكّر في ما حدث...

ألف طائرة كانت تجوب التّراب الفرنسيّ في تلك الفترة، وهو ما يعني أنّها قطرة ماء في بحر. لماذا لاقى تلك الطّائرة؟

بطلب منه، اشترى له جوشن كتاب المحاضر عن سانت إكزوبيري. كان البرلينيّ في نهاية خطبته يستعرض فرضيّات كثيرة عن موت الطّيّار. الجزئيّات الّتي قدّمها خلال محاضرته لم تشبع فضوله لأنّه كان يصرّ على مضاعفة النّظريّات... ذكر عطبًا تقنيًّا في الطّائرة – وكان كثير الحدوث في تلك الفترة، وقد كابد منه أنطوان دو سانت إكزوبيري الكثير. افترض وعكةً ألّمت بالطّيّار. والأدهى، أنّه طرح فرضيّة انتحار: لعلّ سانت إكزوبيري، كان في حال رديئة، خائر القوى، عاجزًا عن غلق الغطاء الزّجاجي بمفرده، قلقًا حدّ الدّوار من مستقبل أوروبا القريب، متشائمًا، يائسًا، فاختار، مثل ستيفان زفايغ،

أن يغادر هذا العالم. ألم يكتب لأحد أصدقائه عشيّة موته: «لو سقطت، فلن أندم على أيّ شيء، إطلاقًا. عشّ النّملِ الأبيضِ القادمُ يرعبني. وأنا أكره فضيلتهم، فضيلة الروبوت. أنا، خُلقت لأكون بستانيًّا»؟

كان فرنر يُعيد قراءة تلك الجمل ووزنها.

هي أبعد من أن تكون إعلان انتحار، لقد عثر فيها على ظروف تخفيف لصالحه: سانت أكزوبيري، كان مستعدًّا للموت، وهلك دون خيبة. أي أن فرنر لم يوقف مشروعًا عظيمًا ولا قصف حياة في أوجها.

بَيْدَ أنّ فرنر فون بريسلو كلّما تأمّل تلك الجمل لمس قربه من العدوّ الّذي أماته. فقبول الموت حكمةٌ مارسها خلال الحرب. أمّا الخوف من الغد، فقد أحسّه بقوّةٍ، حتّى إنّه أخفى طائرته خشيةً عند الهزيمة. وهذه المقولة الأخيرة، «خلقت لأكون بستانيًّا»، ألا تلخّص حظوة فرنر الّذي كرّس حياته للنّباتات منذ تقاعده؟

الحلّ: تحرير رسالة إلى المحاضر، لوضع حدّ للغز!

هذا المؤلّف، للأسف، ينضح غرارة. أمام الحقائق، يتردّد البرلينيّ مبديًا نهمًا في الغموض، لا نهما في المعرفة. يهمّه أن يخلق «أسطورة سانت إكزوبيري»، الّتي تتغذّى كسائر الأساطير من المجهول أكثر من المعلوم. حتّى وإن بعث إليه فرنر باعترافات، فسوف يمعن المحاضر في التّقليل من شأنها لتنمية الأسطورة.

– تعال.

أمسكت دافني يد فرنر، وكأنّها حازت جهد لاعب قوى، فرضت عليه أن يغادر السّرير. ظلّ خاملاً. ألحّت:

- تعال، أنت بصدد النّسيان.

- نسيان ماذا؟

- نسيان ما هو جميل.

ارتسم على وجه فرنر تقطيب مستريب. شرحت له دافني، وهي مستاءةٌ من التّعبير عن أمرٍ بَدَهِيٍّ:

- أنت بصدد نسيان النّور، الأزهار، شدو الطّيور. لم تعد تتحرّك. أنت تنغلق في ما هو صلب.

- صلب؟

- البيت، الحجارة، الجدران. أنت تثير حيرتي.

جمع قواه ونهض. ولتنشيطه أضافت:

- الحديقة في حاجة إليك.

نزلا الشّرفة فأبهرت الحديقة فرنر. كان يونيو يستقبل الأزهار بالآلاف، البتلات الكثّة القديمة، الجديدة ذات البراعم الحيّة، البرّيّة ذات السيقان المشيقة. تأثّر إذ رأى أنّ الطبيعة عملت بكدّ طيلة نقاهته، كأنّها تثبت له أنّها تواصل عمله.

- أرأيت، هنا وهناك، ينبغي القطع.

تناول فرنر المقراض الّذي مدّته له وبدأ العناية بالشُّجَيْرات.

- أنظر إليك، هتفت دافني وهي تجلس على جذل شجرة. أعشق تنظيفك الحديقة.

في تلك اللّحظة، اهتزّ فرنر. أهِيَ وعكة مرّةً أخرى؟ تضخّم

الضّجيج فأدرك فرنر أنّ ما أزعجه صوت طائرةٍ يتموّج فوقهما، طائرةٍ بمحرّكين يحلّق على ارتفاع منخفضٍ تعيده إلى الحرب، وسانت إكزوبيري... أحسّ بضيقٍ شديدٍ يحفر صدره.

- من فضلكِ، ارسمي لي طائرةً.

- ماذا؟

بدا أنّ جملة العجوز فاجأت دافني. أعاد بعنادٍ:

- هاتي دفترك، وأقلامك، وارسمي لي من فضلك طائرةً.

من نبرة صوته الحازمة، أدركت أنّ الأمر يهمّه. غابت ثمّ عادت بالمواد.

بينما كان يعتني بالورد، عضّت طويلاً على قلمها بحثًا عن إلهام، ثمّ راحت تخطّ شكلًا هندسيًّا.

- ها هي ذي!

مدّت إليه رسم صندوق.

- ما هذا؟

- مستودع.

- أين الطّائرة؟

- بداخله.

قطّب جبينه فقالت:

- المستودع لا غنى عنه. إنّه يحمي الطّائرة. لو قمت بعمليّةٍ حسابيّةٍ لألفيت أنّ الطّائرة تقضّي من الوقت في المستودع

أكثر ممّا تقضّيه في السّماء. والسّماء تغضب، عن طريق الزّوابع، والسّحب، والصّواعق، والطّائرات الأخرى. في حقيقة الأمر، أهمّ شيء بالنّسبة إلى الطّائرة هو أن تكتشف مستودعًا جيّدًا حيث تستريح؛ بل يمكن أن تبقى فيه عند تقاعدها.

ارتبك فرنر فون بريسلو لانطباق حياته على ما تقوله الطّفلة فاستعدّ ليقول لها الحقيقة: لقد قتل ذات يوم أبا **الأمير الصغير**. ولكنّه قدّر الأسى الّذي سيعتريها فتراجع.

- يا لوجهكَ الغريب... هتفت. ثمّة شيء لا يرام؟

- لستُ فخورًا بنفسي في هذه الآونة.

- بنفسك؟

- قمتُ بشيءٍ سيّئ في ما مضى.

- وإذن؟

- لا أستطيع أن أغفرَ لنفسي.

هزّت كتفيها.

- يا لكَ من أحمق!

انتفض.

- عفوًا؟

- تقول لي إنّك لا تستطيع أن تغفرَ لنفسك لأنّك قمتَ بشيء سيّئ في ما مضى. أجيبك إذن: يا لكَ من أحمق!

- لماذا؟

- لأنّ الشّيء ليس شخصًا.

***

تصفّح جوشن فون بريسلو الجريدة الجهويّة قبالة أبيه في الشّرفة الّتي تظلّلها الكرمة.

كان فرنر يتأمّل ابنه، ويتساءل كيف أنتج هذا العجوز. ماذا حدث؟ من الّذي حاك له هذا المقلب؟ منذ زمن غير بعيد، وهو يرافق إيفا الّتي كانت تشعّ سعادة، كان يحمل رضيعًا أملس بين ذراعيه، وها هو الآن يخضع لحضور وجهٍ ثقيل ذي نظّارة حرشفية، ولباس لا ذوق فيه ولا أناقة، وبشرةٍ محمرّةٍ منفوخة بالنّبيذ والأطعمة الفاخرة، باختصار، هو رجلٌ دميمٌ بقدر ما هو تافهٌ، ما كان لَهُ أنْ يخالطه لو لم يكن يحمل اسمه.

بين الحين والحين كانت ماريا مَغدَلينا، الشّوابية، تقترح مشروبًا أو تمدّ حلوياتٍ جافّة. «حلوياتٍ جافّة؟ يقول فرنر في نفسه. لم الحلويات الجافّة؟ ألا تتغذّى إلاّ بذاك؟ كانت تنطق «حلويات جافّة» بفم جافّ، تحديدًا، وهذا يقطع شهيّة الأكل مثلها!» رضي فرنر بحضورها كقدر محتوم، مثلما أسلم أمره لآلام المفاصل أو المشي أبطأ من قنفذ.

لم يعد قلبه سوى جلجل ضعيفٍ في صدره. كان فرنر يفقد وعيه دون توقّف، وكانت الوعكات توقّع أسبوعه. كان يستشعر أنّ أيامه معدودةٌ، ربّما بأصابع يد واحدةٍ.

- خذ، أنت الّذي يهتمّ بسانت إكزوبيري، اقرأ هذا!

ناوله جوشن الجريدة.

الصّغير».

امتقع وجهه.

- بابا، هل بك سوء؟

أسرع جوشن إلى أبيه الشّاحب وكان يرمش جفونه ويتنفّس بصعوبة. حدّق فيه وخاطبه بصوتٍ قويّ:

- بابا! بابا! ابق معي! بابا!

ازدرد فرنر ريقه، وجهد في التّنفّس بهدوء.

- لا بأس... لا بأس.

ألقى نظرة على الجريدة: كانت الصّورة تمثّل شخصًا لا يشبهه.

- أيّ حكاية هذه؟ زمجر جوشن وهو يشير إلى الجريدة.

- لا شيء! لا شيء! لم أكن أتصوّر أنّ هذا سيثير اضطرابك. الموضوع عن طيّارٍ خلال الحرب يتذكّر أنّه أسقط طائرة سانت إكزوبيري.

استعاد فرنر قواه فأمسك الصّفحات. ماريو شولتز، مقاتلٌ سابقٌ، يكشف عن سرّه: لقد أطلق النّار على الكاتب الطّيّار الشّهير.

كاد فرنر يختنق... ماريو شولتز! أغبى شخص خالطه أثناء القتال! جبان، لا يحسن غير الزّعيق والسّكر في السّهرات! ماريو شولتز الّذي كان يراكم الذّرائع ويمنعه من إنجاز مهامّه. ماريو شولتز الّذي تحوم شكوكٌ بأنّه لم يكن يواجه العدوّ بل كان يفرّ منه. ماريو شولتز الّذي آل الأمر إلى تركه على الأرض. ماريو شولتز الّذي لم يعد يحطّم طائرة

سانت إكزوبيري لأنّه تمّ إرساله، في تلك الفترة، إلى أهله في رخصة - يتذكّر ذلك جيّدًا لأنّ ماريو حمل بنفسه إلى إيفا هديّة عيد الميلاد الّتي اختارها فرنر. ماريو شولتز، ذلك الكاذب المدّعي في صلف، الممعن في تفاهته، الأكثر خداعًا في سنّ الثّمانين أكثر ممّا كان في العشرين، يلقي اعترافات خاطئة ليجلب الاهتمام ويسجّل اسمه في التّاريخ.

- هراء! لا شيء سوى هراء!

- ماذا تقول يا بابا؟

- الجرائد تروي أيّ كلام.

اطمأنّ جوشن فأيّده في طيبة.

- أخشى أن تكون على حقّ.

أقبلت الشّوابية وساعدت فرنر على التّمدّد في الصّالون للمقيل.

عندما انغلق فرنر في الغرفة المكسوّة بخشب الجوز الدّاكن، فكّر في الطّيّار، ماريو شولتز، الّذي كان يبحث عن الشّهرة، فيما كان هو يبحث عن الحقيقة.

في الواقع، لم يكن يبحث عنها. كان يتحمّلُ الحقيقة. ويجهل كيف يأنسها. إذ كانت تحرجه.

حتّى الآن، لم يندم قطّ على سيرته خلال الحرب. لم يكن يقتل بشرًا، كان يقتل أعداء. لم يكن الخصم يظهر أيّ جزئيّة. الّذي يهاجمه يتمتّع بتجريديّة مثيرةٍ: الفرنسيّ، الرّوسيّ، الإنكليزيّ، الأمريكيّ، لا ملامح، لا جسد، لا سيرة حياة. كلّ ما كان فرنر يعرفه هو أنّ المقاتل يملك، هو أيضًا، حقّ تصفيته. تناظر تامٌّ كان يخيّم. بَلْهَ مساواة،

المساواة في الموت. الحرب تتلخّص في قوانين لا تدخل فيها الحالات الخاصّة. لم يجل بذهنه قطّ أنّه كان يقتل جنديًّا معيّنًا مع زوجة وأطفال محدّدين، لأنّه هو نفسه لم يكن يمثّل جنديًّا معيّنًا لخصومه. في نظره، لم يرتكب قطّ أيّ فظاعة. كان يقتل بوجهٍ عامّ، لا بوجهٍ خاصّ...

بَيْدَ أنّه صار للعدوّ، منذ أسابيع، وجهٌ، وجه أنطوان دو سانت إكزوبيري. إنّه شيء لا يحتمل! ينبغي ألاّ يكون للخصم وجهٌ أبدًا. فرنر يكتشف أنّه قتل رجلًا بعينه، رجلاً فريدًا، رجلًا يحبّه، أجل، يحبّه لأنّه كتب تلك القصّة البديعة، يحبّه لأنّه جاب الوجود بهمومٍ وحماسٍ شبيهة بهمومه وتحمّسه. بعد ستّين عامًا، يلفي في سانت إكزوبيري أخًا، أخًا عديم المثال، أخًا رائعًا. وهذا الأخ، قتله. يا للخزي! هو، الشّخص العديم العبقريّة يصرع عبقريًّا... كيف يغفر لنفسه ذلك؟

خطرت بباله جملة دافني: «الشّيء ليس شخصًا».

نهض. لقد كان كلام دافني من ذهب. فنحن لا نخلط بين فعل وشخص. لا نختزل فرنر في تلك اللّحظة الوحيدة، ذلك الّذي نسف طائرة سانت إكزوبيري. فرنر كان ألف فعل، منها الطّيّب، ومنها الممتاز، ومنها الرّديء، ومنها النّاقص. فرنر كان ألف مشاعر، الوطنيّة، الاعتزاز الألمانيّ، الحنق البارد عند الهجوم، ولكن أيضًا حبّ ذوي قرابته، أهله، إيفا، أسرتها، أصدقائه، زملائه؛ حبّ الطبيعة، الشّجر، ملايين الأزهار الّتي رعى تفتّحها وانقراضها؛ حبّ الحيوانات الّتي أجارها، وأطعمها، وعالجها؛ الفرحة بالاستماع لموزارت؛ متعة احتضان إيفا بين ذراعيه. دافني محقّة: نحن لا نغفر لشيء، بل نغفر لشخصٍ. الفعل يبقى سيئًا، ولكن الشخص لا يغدو

كذلك. لا يمكن أن نحصره في حركته المؤذية. أن تغفر معناه أن تنظر إلى الفرد في كلّيته، أن تعيد إليه الاحترام والثقة اللّذين يستحقّهما.

دفع فرنر غطاء الصوف الملقى على ركبتيه ووضع قدميه على الأرضيّة. كان يخجل من بعض الأفعال، بطبيعة الحال، ولكن ليس من نفسه. إن كان قتل أنطوان دو سانت إكزوبيري، فهو لم يشأ ذلك. بل إنّه كان سيبدي رفضه واستنكاره لو طلب منه أحدهم ذلك.

كان قلبه يخفق بقوّةٍ حتّى خشي أن تنتابه وعكةٌ جديدةٌ. وكان يسمع دمه يضرب صدغيه. «ليس الآن من فضلكما» حدّق عبر الزّجاج في الحديقة حيث دافني تلهو بتقليد طائرة تحت أغصان الشجر المشمِسة.

ابتسم. تباطأت دورته الدّمويّة. كفّ صدره عن اللّهاث بشكلٍ مستقلّ. واستعاد السّيطرة على رئتيه.

لن يحصر في ذلك الفعل، إسقاط البي 38 لايتنغ التّابعة لسانت إكزوبيري. يمكنه إنجاز أشياء أخرى كثيرةٍ. وما زال حتّى اليوم يعرف إيثار الخير.

من أطاع خلال تلك العشريّة المشؤومة؟ هتلر. شلّة من الهمج الّذين استولوا على ألمانيا، بطرقٍ شرعيّةٍ في البداية عبر الاقتراع، وغير شرعيّة بعدها بواسطة الرّعب. عندها، أرغِم الألمان، بعد أن حاصرتهم الحرب، واضطرّوا إلى الدّفاع عن أمّتهم، حتّى وإن غدت مجنونة، على المضيّ إلى آخر لحظة من معارك غير مبرّرة. لقد خدم الشرّ كثيرًا في الواقع. قلّ أنْ ترتفع الإنسانيّة إلى مستواها نفسه. هي

تقحم الأخيار في طرق مسدودة. لعلّه كان من المفروض أن يعترض، يعصي، يـ...

فجأةً أضاءته فكرة!

- بطبيعة الحال...

* * *

كانت دافني تثرثر مع ضفادع حوض البرونز عندما أقبل فرنر وقدّم لها مظروفًا.

- هذه هديّة لك أنتِ يا دافني.

تناولت المظروف وفحصته.

- كتاب!

- بالضّبط.

- ما هو؟

- حكايات سانت إكزوبيري الجميلة.

فتحت أجفانها على وسعها مستثارةً.

- حكايات غير **الأمير الصغير**؟

- بالتّأكيد.

فكّت الغلاف فاكتشفت مصنّفًا سميكًا، ذا غلاف من الجلد في لون الكراميل، يضمّ على الأقلّ خمسمائة صفحة.

- أوه، أوه، هتفت بشراهةٍ.

فتحته فانتفضت. ظنّت أنّ في الأمر خطأً فجعلت تتصفّح

الأوراق وجهًا وقفا، بسرعةٍ متزايدةٍ، ثمّ رفعت رأسها نحو فرنر، والخيبة على محيّاها.

- ولكن... لا يوجد به شيء.

- بالعكس.

- بلى! الصفحات بيضاء.

- آه، تقرّين بأنّ ثمّة شيئا مّا.

- لم أفهم.

دنا منها فرنر وانحنى بالقدر الّذي يسمح به تصلّب قفاه، وجثا رغم الأوجاع الّتي تنهش مفاصله وداعب يدها.

- تذكّري يا دافني. حكيت لك أنّ أنطوان دو سانت إكزوبيري مات في الرّابعة والأربعين، بُعيد كتابة **الأمير الصّغير**، لأنّ طائرته وقعت في أعماق البحر. أربع وأربعون سنة، عنفوان الشّباب! كان يمكن أن يؤلّف عدّة أعمال جليلة. إذن، في هذا الكتاب، سوف تقرئين الحكايات الّتي يمكن لسانت إكزوبيري أن يكتبها لو عاش. لقد جُمعت كلّها هنا. بعضها سوف يثير إعجابك.

أضاءت قزحية دافني. لقد أدركت مقترح فرنر، فعادت إلى الكتاب وجعلت تقلب الصفحات العذراء بأناة وتوليها انتباها وإجلالاً، حتّى ليخيّل أنّها تتهجّى شيئا مّا.

- جيّد، أليس كذلك؟ سأل فرنر.

- جيّد.

تطلّعت إلى فرنر بإكبار.

- هل تظنّ أنّي سأراها في يوم مّا... حقًّا؟

- بخيالك، دون أدنى شكّ. والخيال، أنت تملكينه بوفرة. تذكّري: «الجوهر لا تراه العين. لا نرى جيّدًا إلاّ بالقلب».

صادقت ببراءة. ثمّ تأمّلته، وتفرّست في ملامحه المحفورة، وعينيه المحروقتين، وشفته السفلى الّتي اعترتها خلجات.

- هيئتك على شيء من الغرابة...

- في هذه الآونة، لا أحبّ نفسي كثيرًا.

- إن كنتَ لا تحبّ نفسك، فسوف أحبّك حبّ اثنين.

قالت ذلك باندفاعٍ، وقوّة، وصدق. انشرح فرنر أمام البُنيّة، وشفاهها اللّؤلئيّة، والرّيش الزّبديّ لشعرها البلاتين.

- دافني!

صوت امرأةٍ ندّ من خلف الجدار:

- دافني!

- ينبغي أن أعود إلى البيت، همست دافني كأنّها ضبطت متلبّسة بخطإ. أمّي تنتظرني.

- اذهبي!

قبّلها فرنر واستدار. سار حتّى شرفته بأسرع ما تسمح له به خاصرتاه، دون التفات لكي لا تلمح الطفلة دموعه. ينبغي أن تجهل أنّها لن تكلّمه أبدًا.

***

كان للدنيا في ذلك الصّباح صفاء لوحةٍ مائيّةٍ. ضوءٌ ساطعٌ يغمر البحر والبرّ والقبّة الزّرقاء ويخفي كلّ تحديد. لم يعد ثمّة خطوط ولا حدود، لا شيء سوى تدرّجات طفيفة. كانت الآفاق الضّبابيّة تتضاعف، وكان فرنر، من حجرة قيادته، يبحر في فضاء بخاريّ. وكما في شبابه، كانت الفوك فولف فو 190 تمخر الأجواء بسرعةٍ وخفّة. أفضل من ذلك، كانت الآلة تهمر بنفاد صبر واندفاع مبتهجة بإعادة غزو المسالك السّماوية، والمراعي الغائمة، ونظرة الشّمس الشّاحبة. كان فرنر يضحك، فرحًا بالصّعوبات الّتي تفرضها عليه الطّائرة، مفتونًا بأنّه يجد من جديد تلك البقع الّتي اشتاق إليها، متحفّزًا لكونه يتموّج مع حجرته في توحّدٍ تامّ. كان يحسّ أنّه حرٌّ طليق لأوّل مرّة، رغم الأحزمة الّتي تشدّه والجلد المتين الّذي يكسوه. في ذلك اليوم، قرّر أن يطير، وحدّد مساره، وغادر الأرض في السّاعة المأمولة، دون مساعدة أحد أو توجيه أحد؛ كان في الحقيقة قد أعدّ كلّ شيء خلسة: خلع باب المستودع ليلاً، سرقة الوقود، نقل الطّائرة حتّى مدرج الإقلاع، انتظار الفجر، الإقلاع دون إعلام أيّ برج من أبراج المراقبة.

فرنر فون بريسلو، رجل الواجب، لم يعد يُطيع سوى نفسه. لقد حدّد بنفسه مهمّته. وعندما يكتشف الحارس أنّه خلع الباب وسرق الطّائرة، يكون قد فات الوقت لإيقافه. ومن الّذي سيعلمهم؟ العامل؟ أعرافُه، نازيّون غير شرعيّين... لا شرطة البرّ ولا شرطة الجوّ. كان أمام فرنر إذن ساعة على الأقلّ.

حلّق فوق غابات صنوبر داكنة، كثّة، كثيفة، مدمجة، ثمّ فوق

حقول بدت، بسبب الأخاديد الّتي تخطها الجرّارات، مثل شبكةٍ محبوكةٍ. لن يخطئ إن اتّبع النّهر المنتحِب: حسبه أن يَعدّ المدن كي يهتدي إلى طريقه.

كانت أسنانه تصطكّ. رغم عدد طبقات الثّياب الّتي غطّى بها جسمه، كان يتأثّر بالبرد أكثر ممّا كان في شبابه؛ بَيْدَ أنّه سجّل تحسّنًا: خوذته تضغط على صدغيه في الارتفاع عن سطح البحر بشكلٍ أقلّ
- لعلّ جمجمته تقلّصت مع تقدّم السّنّ؟

مضى بسرعة خمسمائة كيلومتر في السّاعة نحو هدفه.

لم يكن اليومان السّابقان يشبهان أيّ حلقة من حياته. صباح السّبت، التحق في فيمس بحفيد مارتن مولر، هاينريش مولر، الّذي صار يتزعّم جماعة النّازيّين الجدد. قاده الرّجل، وهو جزّارٌ في الحياة العامّة، إلى التّرسانة، مصدر فخرهم، ثمرة عشرات من السّنين. في عمق ملكيّة مشجّرة، قرب معملٍ لنشر الخشب، على امتداد بعض المخازن، يوجد مبنى يخفي كنوزًا.

أبوابٌ مصفّحةٌ، أقفالٌ إلكترونيّةٌ، وأجهزةُ إنذارٍ عديدةٌ وُضِعَتْ لتنفير الدّخلاء.

كان مارتن مولر قد شرح لفرنر وقد استغرب كثرة تلك الاحتياطات:

- بعد الحرب، كان علينا أن نختفي عن عيون السّلط لكي نحافظ على ذاكرة الرايخ الثّالث. الآن، صار لزامًا علينا أن نحتمي من اللّصوص. السّوق تتهيكل. وأصحاب تشكيلات يموّلون

عمليّات سطو. زيّ كامل لسريّة الحماية SS يباع بعشرة آلاف يورو، في حين أنّ زيّ جنود المشاة الإنكليز لا يقارب حتّى الألف يورو. الزّمن يعيد القيم الأصيلة إلى نصابها. ذكريات المنتصرين تفقد قيمتها، مثل أفكارهم... مثلاً، ثمن لوحة رسمها هتلر يفوق مائة مرّةٍ ثمن لوحةٍ لتشرشل! ثمّة عدلٌ في نهاية الأمر...

بعد تعطيل منظومة الأمان، قاد مارتن فرنر إلى الترسانة الّتي تمثّل متحفًا ضخمًا ومدهشًا حيث ترسم التّحف التّذكاريّة والآثار ممرّات، وتصطّف قطع العملة، والشّعارات، والأعلام، والأزياء، وتنكات البنزين[1] -ابتكار ألماني لتلك الفترة-، درّاجات ناريّة، مركبات جانبيّة[2]، سيّارات فولكسفاغن، دبّابات هجوميّة. هنا عصيٌّ تتابعٍ تخصّ الشعلة الأولمبيّة يرجع عهدها إلى 1936. هناك، حاسوب زوس 4 في ضخامة أرغن. بعض خزائن بلّوريّة تحوي أواني هتلر، ولوازم مائدة هملر، وطاسات غوبلز.

أشار فرنر فون بريسلو بإصبعه إلى باب مدعّم بالفولاذ على الجانب الأيمن.

- وهنا؟

- أشياء مجلوبة من معسكرات الاعتقال. المتاجرة بها محظورة.

---

(1) Jerrican: صفيحة بنزين معدنيّة (kanister بالألمانية وtanica بالإيطالية) ابتكرها الألمان في الثلاثينات واستعملوها بأعداد كبيرة في الوحدات المتنقّلة للجيش خلال الحرب العالميّة الثانية.

(2) Side-car: مركبة لشخص واحد متّصلة من جانبها الأيسر بدرّاجة ناريّة.

بمرور الوقت، هذا هو الّذي ستكون له قيمة. هل تريد...

- لا شكرًا. وهنا؟

كان قد أشار إلى منفذٍ آخر.

- رائعة الرّوائع. دعني أُرِك.

تجاوزا السّاس[1] ونفذَا إلى غرفة عملاقة تحت الأرض. لم يصدّق فرنر عينيه: صاروخ طويل المدى، في 2 الشّهير، الّذي أقنع الأمريكان بأنّ النّازيّين يملكون القنبلة النّوويّة، يقبع هناك. وحوله، في الأركان، تتكدّس صناديق قنابل يدويّة وأسلحة وذخيرة.

- المكان خطيرٌ، غمغم فرنر.

- الحياة خطيرةٌ، علّق هاينريش مولر.

غادرا المكان معًا، وفرنر فون بريسلو غارقٌ في التّأمّل، فيما كان هاينريش مولر يسهب في الكلام. شكا من تحوّل الاهتمام بكنوز الترسانة. من رجلٍ عاطفيّ وسياسيّ، صار رجل مالٍ. تلك القطع تُقَدّر بِثَرَوات. بعضهم يلقون بأنفسهم عليها بطريقةٍ ربحيّة محض، دون القناعات الضرورية.

- في المزادات العلنيّة، رأيت أبناء مقاومين فرنسيّين يشترون أشياء تهمّنا، وحتّى يهوديًّا في إحدى المرّات. أمرٌ مقزّز! يفترض أن يكون ذلك محظورًا. لا بدّ من شهادة القوميّة الاشتراكيّة للحصول على الغنائم النّازيّة. وإلاّ فسوف يخبو كلّ شيء، ويضيع كلّ شيء. يا لها من مرحلةٍ قذرةٍ!

---

(1) Sas: حجرة محكمة الغلق تفصل بين فضاءين.

أيّده فرنر دون تعليق.

في صباح الأحد، قاد غونتر شنيك، سكرتير حزب النّازيّين الجدد، فرنر في سيّارته إلى مكان يبعد مائتي كيلومتر، في المستودع الّذي تركن فيه طائرته. كان المبنى ملكًا لمطار هواة، لم يعد صالحًا إلاّ للمهرجان السّنوي للطّائرات الشّراعيّة، وقد صارت مدرّجاته تبدي حِزَمَ أعشاب.

تأثّر فرنر عندما وجد بجانب طائرتي ماسرشميت تاريخيّتَين طائرته الفوك فولف فو 190 سالمةً، لامعةً، نظيفةً كأحسن ما تكون، يتعهّدها بالصّيانة ميكانيكيٌّ شغوف، نذر حياته منذ أن أحيل على المعاش لقطع التّشكيلات.

- يبدو أنّها تطير، أردف غونتر شنيك. الميكانيكيّ تأكّد من ذلك خفية، صحبة عسكريٍّ سابق من الفيرماخت[1]، قبل عامين.

سرّ فرنر من أنّ القدر يوفّر له مثل هذه المساعدات: يمكنه تحقيق مشروعه.

في ذلك الصّباح، حينئذٍ كان يقود شهابه الّذي يَمْنَحُه أزيزُه القويّ، المحبوب وغير المحتمل، إحساسًا بأمان هشّ، وبطعم الدّم الّذي ينضح من الخطر.

كان يطير...

فجأةً، لمح العلامة الّتي كان يرصدها: واديان يرفدان النّهر

(1) بالألمانيّة في الأصل Wehrmacht: قوّة الدفاع، اسم القوّات المسلّحة الألمانيّة ما بين 1935 و1945.

ومجرى الماء الّذي يعبر الغابة. في المنحنى الرّابع، مباشرةً بعد كوم التّراب، سوف يبلغ مصنع نشر الخشب و...

- ها هو ذا!

تحت أغصان أشجار البلّوط الكثيفة، تراءت التّرسانة السرّيّة بشكلٍ متقطّع، وتبدى سقف المعدن المورق. تجاوزها فرنر، ثمّ عاد أدراجه، فدار بها، وقرّ رأيه على مسار معقول. كان مبتهجًا. من هذه الزّاوية، سوف يؤمّن ضربته.

بدأ العدّ. الهدف في مرمى التّصويب، مقبضَا القيادة مثبّتان، الطّائرة لن تحيد، سوف تتحطّم على التّرسانة. حتّى إن أصاب فرنر إغماء، فالتّرسانة سوف تُفْرى، وتلتهب، وتنفجر.

هدأ فرنر، وتماسك، ثمّ انشرح وتبسّم للسمت. رغم أنّه كان يشكّ في وجاهة حياته، فقد كان يعلم أنّ موته سيكون ذا جدوى.

أربعمائة متر عموديًّا...

ثلاثمائة متر...

مائتان...

مائة...

وهو يُداني القصدير الرّماديّ، أبصر فجأةً، في طرف الغابة، بركة زمرديّةً تُحيط بها أزهار اللّيلك، ووجد متّسعًا من الوقت ليقول في نفسه «خُلقت لأكون بستانيًّا» قبل الصّدمة الأخيرة.

إيريك إيمانويل شميت

انتقام الغفران

أربعُ حكايات وأربعة مصائر، تبدو منفصلةً ظاهريًا لكنّها مشدودة بخيطٍ ناظمٍ واحدٍ هو تيمة الغفران، ومحكومةٌ بهاجسٍ واحدٍ هو الغوصُ داخل النفسِ البشريّة والإطلالة على أكثر الأسرارِ تحكّمًا في مصائرها.

شقيقتانِ خاضعتانِ لأكثر المشاعرِ لبسًا وتناقضًا، الحبّ والكراهية، يلعبُ القدرُ معهما لعبتهُ الأثيرة، يفرّقهما ثمّ يجمعهما، فلمن ستؤولُ الكلمة الفصل في النّهاية: للغيرة أم للرّحمة، للانتقامِ أم للغفران؟

زيرُ نساءٍ ثريّ يستغلُّ براءة امرأة عاشقة وينتزعُ منها طفلها. فأيّ درسٍ يمكنُ أن تستخلصهُ الطبيعة البشريّة من مأساةٍ كهذه؟

رجلٌ قاسي القلب يستعيدُ إنسانيّتهُ بفضل طفلةٍ، كان يغرق معها في قراءة روايةِ «الأمير الصغير»، قبل أن يدركَ في أحد الأيّام أنّهُ هو من كان وراء إسقاطِ طائرة مؤلّف الرواية.

امرأة تزورُ بانتظامٍ قاتل ابنتها، هذا الذي حوكم في جرائم قتل خمس عشرة فتاةً. هي لا تكتفي بزيارتهِ فقط وإنّما تروّضُ وحشيّتهُ وتحاول إخراجه من عزلتهِ. فلماذا تفعلُ كلّ ذلك؟

هذا هو الاختبارُ الإنسانيُّ الذي يقدّمهُ إيريك إيمانويل شميت لقرّائهِ، اختبارُ الغفرانِ في مواجهةِ الانتقام، مُعْمِلاً مشرطهُ في جنوحِ النّفسِ البشريّة إلى أكثرِ ردود الفعلِ غرابةً. أليسَ الغفرانُ في النّهايةِ، انتقامًا في حالتهِ البكر؟

وليد أحمد الفرشيشي

ISBN: 978-9938-24-046-7
9 789938 240467